خمس وأربعين وستمائة فعمر مكانه مساكن وهو الخط الذي يعرف الآن بالكافوري.
قال صاحب كتاب خطط مصر: لما دخل جوهر القائد واختط القاهرة وقرر كل جانب
منها على أمير من أمراء عسكره وأرصده لبناء تلك الحارة حسبما أمره المعز لدين الله
فسميت كل حارة باسم مقدمها أو الطائفة التي نزلت بها. وابتدأ بالعمارة في شهر رمضان
من السنة.
قال المؤرخ: ودخل القائد جوهر مصر، وبين يديه ألف ومائتا صندوق مالاً، وأقام عسكره
يدخل سبعة أيام. وبعث إلى مولاه المعز لدين الله يبشره بالفتح.
قال: ولما دخل القائد مصر كان الغلاء بها، فنادى مناديه: من عنده قمح فليخرجه. وفرق
الصدقات على الناس، وأقر أبا الفضل على الوزارة، وجهز جعفر بن فلاح إلى الشام.
إقامة الخطبة ، وضرب السكة بمصر، للمعز لدين الله في الدعاء له على المنبر، وما
نقش على السكة.
وفي يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان من السنة ركب القائد جوهر إلى المسجد الجامع
العتيق لصلاة الجمعة، ولإقامة الدعوة، في عسكر كثير. وخطب هبة الله بن أحمد خليفة
عبد السميع بن عمير العباسي، لغيبة عبد السميع، فخطب وعليه البياض، ودعا للمعز
لدين الله، وقال في دعائه في الخطبة الثانية:
اللهم صل على عبدك ووليك، ثمرة النبوة، وسليل العترة الهادية المهدية، عبد الله الإمام
معد أبي تميم المعز لدين الله، أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه
المنتخبين، الأئمة الراشدين. اللهم ارفع درجته، وأعل كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة
على طاعته، والقلوب على موالاته وصحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارق
الأرض ومغاربها، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق "ولقد كتبنا في
الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"" فلقد امتعض لدينك، ولما انتهك
من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك، وزيارة قبر رسولك

صلى الله عليه وسلم وأعد للجهاد عدته، وأخذ لكل خطب أهبته فسير الجيوش لنصرك،
وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل، وقصر المتطاول، وظهر
الحق وزهق الباطل. فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين
وجهاد الملحدين، والذود عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم وإزالة الظلم والتهم، وبسط
العدل في الأمم. اللهم اجعل راياته عالية منشورة، وعساكره مؤيدة منصورة، وأصلح به
وعلى يديه، واجعل لنا منه واقية عليه.
وضربت السكة على الدنانير، وكان على الوجه الواحد لا إله إلا الله محمد رسول الله،
علي خير الوصيين، ووزير خير المرسلين، محمد رسول الله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الذين كله ولو كره المشركون. وعلى الوجه الآخر الدعاء دعاء الإمام معد، لتوحيد الإله
الصمد، المعز لدين الله، أمير المؤمنين. ضرب بمصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.
قال: وأشرك القائد جوهر في الدواوين المصريين والمغاربة، فجعل في كل مكان مصرياً
ومغربياً.
وفي ذي الحجة من السنة تكامل بمصر من الإخشيدية وقوادهم خمسة آلاف فارس
استأمنوا القائد جوهر، وفيهم أربعة عشر رئيساً فأمنهم، ثم قبض عليهم واعتقلهم، ثم
سيرهم إلى المعز في إفريقية.
وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الآخر، صلى
القائد جوهر في جامع ابن طولون وأذّن " حي على خير العمل" وهو أول ما أذّن به بمصر،
ثم أذّن بذلك بالجامع العتيق بمصر في الجمعة الثانية.
خروج تبر الإخشيدي
والقبض عليه
وفي شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ثار تبر الإخشيدي بناحية أسفل الأرض، ودعا
للخليفة المطيع لله، وكتب اسمه على البنود، فراسله جوهر، فلم يقبل؛ وكان معه أبو القاسم
العلوي الأقطيني. فأنفذ القائد جوهر العساكر لقتاله براً وبحراً، وكان قد كبس صهرجت
ونهبها، فأمر القائد بنهب دوره في مصر، وقبض على صهره فأغار تبر، ونهب ضياعاً.

فوافته العساكر بصهرجت، فانهزم إلى تنيس، وركب البحر الملح يريد الشام، ثم إلى الروم،
فأنفذ القائد جوهر أسطولا خلفه، فلما بلغ صور دخل بها الحمام، فقبض عليه وجماعته من
أتباعه وغلمانه، وذلك في شهر رمضان منها، وحمل إلى مصر، فقدمها لأربع عشرة ليلة
خلت من شوال، فأدخل على فيل وبين يديه رجل وخلفه رجل، وغلامه عجيب على جمل
خلفه، ومعه قرد، وخلفه غلامه سرور على جمل، وجماعة على جمل منكسي الرؤوس، ثم
اعتقلوا واستصفى القائد أمواله وودائعه، وطولب بالأموال، فلما اشتد عليه الطلب جرح
نفسه فمات بعد أيام فسلخ جلده وحشى تبناً وصلب جلده، وضرب شلوه.

فتوح الشام

قد ذكرنا أن القائد جوهراً جهز جعفر بن فلاح إلى الشام بالعساكر في سنة ثمان وخمسين
وثلاثمائة، فسار جعفر ولقي الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة، وهو يومئذ صاحب
الشام، فهزمه جعفر بن فلاح وأسره، وبعث به إلى مصر، ثم سار إلى دمشق فملكها في
سنة تسع وخمسين بعد حرب شديدة. فكتب إلى القائد جوهر بالفتح، واستأذنه في المسير
إلى غزو إنطاكية، فأذن له القائد فسار نحوها في نحو عشرين ألف فارس.
فحاصر أنطاكية مدة إلى أن اتصل به مسير مدد الروم إليها، فعاد عنها إلى دمشق.

استيلاء القرامطة على دمشق

وفي سنة ستين وثلاثمائة وصل الحسن الأعصم القرمطي إلى دمشق. وقيل أنه إنما قدم بأمر
الخليفة المطيع فخرج إليه جعفر بن فلاح وقاتله، وكان عليلاً وانهزم وأصحابه ونصب رأسه
على دمشق.
وملك القرمطي دمشق والشام، وسار إلى الرملة فانحاز عنه سعادة بن حيان إلى يافا
وتحصن بها، فسار إليه وحاربه، ثم سار يريد مصر، فتأهب القائد جوهر لذلك، وحفر
خندقاً، وبنى عليه باباً كبيراً، وركب عليه الباب الحديد الذي كان على الميدان
الإخشيدي، وبنى عليه بابين آخرين، وبنى القنطرة على الخليج، وجعلها ممراً لمن يريد

المقس، وكاد القرمطي يأخذ القاهرة، ثم رجع عنها بغير سبب علم، وكبس الفرما، ثم
قاطع أهلها على مال فحملوه إليه، واخذ عاملها عبد الله بن يوسف، وقيل أنه كان معه
خمسة عشر ألف بغل تحمل صناديق الأموال وأواني الذهب والفضة والسلاح، سوى ما
تحمل من المضارب والخيام والأثقال.
وفي سنة ستين وثلاثمائة أيضاً بنى جوهر سوراً على القصور التي بناها في سنة ثمان
وخمسين وجعلها بلداً وسماها المنصورية، ولما استقر المعز سماها القاهرة.
وفي سنة إحدى وستين وستمائة، في المحرم، كبس ياروق الفرما وأخرج منها ابن العمر
القرمطي، وأرسل إلى مصر رؤوساً وأعلاماً وغير ذلك، وفي هذا الشهر عصى أهل تينس
وغيروا الدعوة، ودعوا للمطيع والقرامطة، وحاربوا ياروق. وفي صفر وصل ياروق منهزماً
من القرامطة حتى بلغوا عين شمس واستعد القائد جوهر للقائهم، وأغلق الأبواب التي
بناها.
وفي مستهل ربيع الأول جاءت مقدمة القرامطة ووقفوا على الخندق، فقاتلهم القائد، واشتد
القتال ، وقتل من الفريقين قتلى كثيرة، وأصبح الناس متكافئين للقتال، وسار الأعصم
القرمطي بجميع عساكره، ووقع القتال على الخندق والباب مغلق، وعمل القائد جوهر الحيلة
فانهزم عن القرمطي، ودام القتال إلى الزوال، ثم فتح القائد الباب وانتصب للقتال، وخرجت
العبيد والمغاربة إلى القرامطة، واشتد القتال واضطرب الناس في المدينة وكثرت القتلى من
الفريقين. وانهزم الأعصم القرمطي، وأراد المغاربة أتباعه فمنعهم القائد جوهر لدخول الليل،
وخشية من مكيدة أو كمين. ونهبت صناديق القرمطي ودفاتره، وفارق القرمطي من كان
معه من الإخشيدية والعرب، قيل: وهذه أول هزيمة كانت للقرامطة.
ثم وصل بعد الكسرة بيومين أبو محمد الحسن بن عمار بمدد معه من جهة المعز وهرب
القرمطي الذي كان بتينس وعادت الدعوة المعزية بها.
وفي شهر ربيع الآخر قبض القائد جوهر على أربعمائة وأربعين رجلاً من الإخشيدية
والكافورية وحبسهم.

وفي شعبان منها ورد على القائد جوهر رسول من ملك الروم برسالته وهديته.
وفي شهر رمضان لسبع خلون منه كمل بناء الجامع بالقاهرة، وجمعت فيه الجمعة.
وفي شوال منها ابتدأ القائد جوهر يحفر الخندق الذي كان عبد الرحمن ابن جحدم، خليفة
عبد الله بن الزبير، حفره قبلي مصر، ثم شق الخندق حتى بلغ قبر الإمام الشافعي رحمه
الله، فعدل به عنه، ثم شقه مشرقاً إلى الجبل على المقابر، أراد بذلك أن يحفظ طريق الحج
من ناحية القلزم.
وفي ذي القعدة منها خرج أبو محمد الحسن بن عمار إلى تنيس فسار إليه أسطول القرامطة
فواقعه وأسر منه سبع مراكب، وسيرها إلى مصر ومعها خمسمائة رجل منهم.
خروج المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى الديار المصرية 43 وما رتبه ببلاد المغرب قبل
مسيره.
وفي يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة إحدى ستين وثلاثمائة، رحل المعز لدين الله من
المنصورية إلى سردانية ومعه يوسف بن زيري بن مناد فسلم إليه إفريقية وأعمالها وسائر
المغرب، وذلك من يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة منها، وأمر الناس بالسمع والطاعة
له؛ وفوض إليه أمور البلاد كلها إلا بلاد جزيرة صقلية وطرابلس. وأقام المعز بسردانية
أربعة أشهر، ورحل منها لخمس خلون من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وسار حتى
أتى قابس، ثم وصل إلى طرابلس فأقام بها أياماً، ورحل منها في يوم السبت لثلاث عشرة
ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر منها، وسار فوصل إلى الإسكندرية في يوم الجمعة لست
خلون من شعبان، ونزل تحت المنار وأنزل الناس حولها، وأتاه أهلها فسلموا عليه، ووافى
يوم الأحد أبو طاهر قاضي مصر، ومعه العدول وقدم أبو عبد الرحمن بن أبي الأعز في بني
عمه وغيرهم من العرب، فركب لهم المعز فسلموا عليه وانصرفوا.
ثم رحل من الإسكندرية يوم الاثنين لثلاث بقين من شعبان. فلما كان يوم السبت لليلتين
خلتا من شهر رمضان نزل المنية بساحل مصر، وهي بولاق، فأقام بها إلى يوم الاثنين؛ فخرج

إليه الشريف أبو جعفر مسلم الحسيني قبل وصوله في جماعة الأشراف ووجوه البلد، فرأى
المعز وهو سائر والمظلة على رأسه، فنادى مناد: يتقدم الشريف أول الناس، فتقدم وسلم
على المعز. ثم تقدم الناس كلهم وسلموا عليه واحداً بعد واحد حتى فرغوا، وهو واقف
على دابته؛ ثم سار والشريف يحادثه.
قال: وأخذ الناس في التعدية بعيالاتهم وأثقالهم في هذه الأيام إلى ساحل مصر، وتفرق
الناس في الدور بمصر والقاهرة، وأكثرهم في المضارب فيما بين القاهرة ومصر.
ثم عبر المعز لدين الله إلى القاهرة يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان، سنة اثنتين
وستين وثلاثمائة، ولم يدخل إلى مصر ودخل إلى قصره، فلما انتهى إلى الإيوان الكبير خر
ساجداً لله تعالى، وجلس على سرير الجوهر الذي صنعه له جوهر، وقبل الهناء، ومدحه
الشعراء.
قال: وكان تلقي القائد جوهر له عند جوازه من الجسر الثاني، فكانت مدة تدبير جوهر
للديار المصرية إلى أن قدم المعز، أربع سنين وعشرين يوماً.
وحكى بعض المؤرخين أنه لما وصل المعز وخرج الأشراف للقائه، قال له: أبو محمد عبد
الله بن أحمد بن طباطبا الحسيني، من بينهم يا مولانا، إلى من تنتسب؟ فقال المعز:
سنقعد لكم ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر في قصره جمع الناس في مجلس عام
وقال: هل بقي من جماعتكم أحد؟ فقالوا: لم يبق منا معتبر فجرد عند ذلك سيفه إلى
نصفه وقال هذا نسبي وفرق المال وقال: هذا حسبي فقالوا: سمعنا وطعنا. وكان الخليق بما
قيل:
جلوا صارماً وتلوا باطلاً وقالوا: صدقنا؟ فقلنا: نعم!
وقال ابن جلب في تاريخه: إن المعز لما قدم صعد المنبر وخطب خطبة بليغة، فذكر نسبه
إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فكتب إليه بعض المصريين ورقة ولصقها بالمنبر
فيها:
إنا سمعنا نسباً منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً فاذكر أبا بعد الأب الرابع
أو فدع الأنسب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
أو كنت فيما تدعي صادق فانسب لنا نفسك كالطائع

قال: وكان يتظاهر بذكر المجريات قبل وقوعها لإطلاعه على علم النجامة، ولكتب كاتب
عنده يستدل، فكتب إليه بعض المصريين ورقة طرحها في مجلسه، فيها:
بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة
وقال بعض المؤرخين: لما قدم المعز إلى مصر أحضر معه توابيت آبائه وكان معه خمس
عشر ألف رجل تحمل صناديق الأموال والسلاح وغير ذلك، وكان معه مائة تحمل شبه
طواحين من الذهب، وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صندوقان وألف وثمانمائة بختي محملة،
وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات وجملان يحملان الإكسير الذي يصنع به الكيمياء 44 وثلاثة
آلاف شيني وغراب في البحر تحمل الموجود، ومن الرجال المقاتلة من قبيلة كتامة مائة ألف،
ومن البربر أربعون ألفاً، ومن الرموح ستون ألفاً، وغير هؤلاء من قبائل العرب والمغاربة، وهو
مع ذلك شديد الخوف من القرمطي.
قال ابن زولاق في تاريخ مصر: ولما انقضى شهر رمضان ركب المعز لصلاة العيد وصلى
بالناس، وكان القاضي ابن النعمان يبلغ عنه في التكبير، وقرأ في الأولى بعد الفاتحة "هل أتاك
حديث الغاشية"" وفي الثانية بعد الفاتحة صورة الضحى، ثم صعد المنبر وخطب بعد أن
سلم على الناس يمينا وشمالاً، وذلك بالمصلى الذي بناه القائد جوهر.
قال: وأقام المعز بعد مقدمه أياماً وعزل القائد جوهر م جميع ما كان إليه من النظر على
الدواوين وجباية الأموال، وتدبير الأمور، وغير ذلك، والله أعلم.
مكاتبة المعز لدين الله القرمطي وجواب القرمطي له.
قال بعض المؤرخين: لما استقر المعز بالقاهرة أهمه أمر الأعصم القرمطي فرأى أن يكتب
إليه كتاباً يعلمه فيه أن المذهب واحد، وأن القرامطة منهم استمدوا وهم سادتهم في هذا
الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه الرتبة، فكتب المعز كتاباً مشحوناً بالمواعظ وضمنه من أنواع
الكفر ما لا يصدر إلا عن مارق من الدين.
كان عنوان الكتاب:
من عبد الله ووليه، وخيرته وصفيه، معد أبي تميم بن إسماعيل، المعز لدين الله أمير

المؤمنين، وسلالة خير النبيين، ونجل علي أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد،
وأول الكتاب:
رسوم النطقاء، ومذهب الأئمة والأولياء، ومسالك الرسل والأنبياء، السالف منهم والآنف،
صلى الله علينا وعلى آبائنا أولي الأيدي والأبصار، في متقدم الدهور والأكوار، وسالف
الزمان والإعصار، عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله، الابتداء بالأعذار، والانتهاء
إلى الإنذار، قبل نفاذ الإنذار، في أهل الشقاق والإصرار، ولتكون الحجة على من خالف
وعصى والعقوبة على من باين وغوى، حسبما قال الله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولاً"، "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير""
يوقد ذكرنا في أخبار القرامطة جملة من مواعظ هذا الكتاب على ما نقف عليه هناك ومن
جملة ما لم نذكره هناك.
أما علمت أني "نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة" اعلم "خائنة الأعين وما تخفى
الصدور"
وحشاه بأنواع من الكفر وحضه على اقتفاء آثار آبائه وعمومته وموالاتهم، فقال: إن آباءك
كانوا من أتباع آبائي، ثم قال فيه بعد الإطالة: وكتابنا هذا من فسطاط مصر، وقد جئناها
على قدر مقدور، ووقت مذكور، لا نرفع قدما إلا بعلم مصنوع، وعلم مجموع، وأجل معلوم،
ثم قال فيه: وما أنت إلا أيها الغادر الخائن الناكث المباين عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ
عن دين أسلافه وأنداده، الموقد لنار الفتنة، الخارج عن الجماعة والسنة، لم أغفل أمرك، ولا
خفي علي خبرك، وإنك مني بمنظر وبمسمع، قال الله تعالى: "إنني معكما اسمع وأرى" ، "ما
كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا" فعرفنا على أي رأي ضللت وأي طريق
سلكت.
وقال في فصل منه: إنا لسنا مهمليك ولا ممهليك إلا ريثما يرد به كتابك والوقوف على مجرى
جوابك، فانظر لنفسك ما يبقى ليومك معادك، قبل انغلاق باب التوبة، وطول وقت النوبة،
حينئذ "لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً" ثم ختمه بأن

قال: فما أنت وقومك إلا كمناخ نعم، أو مراح غنم، فأما "نرينك بعض الذي نعدهم أو
نتوفيك"، "فإن عليهم مقتدرون" هكذا رأيت، والتلاوة في سورة يونس "أو نتوفيك فإلينا
مرجعهم" فعندها تخسر "الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين" . وأنذرتهم، "ناراً تلظى
لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى"، " يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من
نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون". فليتدبر من كان ذا نذير. وليتفكر من كان ذا
تفكير؛ وليحذر يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة. "أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت
من جنب الله". "ويا حسرتنا على ما فرطنا". ويا ليتنا "نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل".
"والسلام على من اتبع الهدى". وسلم من عواقب الردى. وهو حسبنا ونعم الوكيل.
قال: فلما وقف الحسن بن أحمد القرمطي على هذا الكتاب المطول كتب جوابه بالبسملة:
وصل كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله؛ ونحن سائرون على إثره والسلام.
وقيل: الجواب ما تراه دون أن تسمعه.
وقيل أنه كتب إليه:
ظنت رجل الغرب أن سهولتي بمحالها، وأخو المحال ذليل
إن لم أرو النيل من دمهم، فلا نلت المراد، ولا سقاني النيل
وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، في شعبان، بلغت تقدمة القرامطة إلى أرياف مصر
وأطراف المحلة، فنهبوا، واستخرجوا الخراج، واشتهر الأعصم القرمطي ببلبيس فتأهب
المعز للقائه، وعرض العساكر، وفرق فيهم الأموال والسلاح.
وسير جيشاً قدم عليه ولده الأمير عبد الله، فالتقى مع الأعصم، فانهزم القرمطي وأسر
جماعة من رجاله، وجهز جيشاً آخر قدم عليه ريان الصقلبي في أربعة آلاف فارس، فأزال
القرامطة من المحلة ونواحيها.
وفي هذا الوقت ورد خبر من الصعيد الأعلى أن عبيد الله أخا الشريف مسلم أوغل في
الصعيد واستخرج الأموال، وقتل ألفاً من المغاربة.
وفي هذا السنة ، في المحرم منها، انبسطت المغاربة في نواحي القرافة، ونزلوا في الديور،
وأخرجوا الناس من أماكنهم، وشرعوا في السكن في المدينة، وكان المعز أمرهم أن يسكنوا

أطراف المدينة، فاستغاث الناس إلى المعز فأمر أن يسكنوا نواحي عين شمس، وركب
بنفسه وشاهد المكان، وأخبرهم بالبناء فيه، وهو الموضع المعروف الآن بالخندق، وجعل
لهم والياً وقاضياً، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين للناس.
فتوح طرابلس الشام
كان فتوحها في سلخ شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلاثمائة، على يد ريان الخادم غلام
المعز، وهرب ابن الزيات بعد أن كان نصب عليها الصلبان وجعلها للروم.
وفي جمادى الأولى منها سار نصير الخادم غلام المعز في عسكر كثير، ودخل إلى بيروت،
وتواقع مع الروم على طرابلس وهزمهم، وكانت الوقعة في نصف شعبان.
وفي هذا الشهر وصل الخبر إلى المعز بوصول أفتكين التركي من بغداد إلى دمشق بقصد
مصر، فشرع المعز في تجهيز العساكر.
وفي شهر رمضان منها كثرت الأراجيف بمسير الروم إلى الشام لأن أفتكين التركي كاتب
ابن السنهسكي فسار بالروم إلى بيروت، فلقيهم نصير غلام المعز فهزموه وأسروه، وتوجهوا
إلى صيدا فخرج إليهم أفتكين التركي وقبل الأرض لابن السنهسكي وهادنه على دمشق،
وانصرف ابن السنهسكي معلولاً، فسر المعز بذلك، وهنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه
الشعراء.
وفاة المعز لدين الله
وشيء من أخباره
كانت وفاته لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ وقيل في يوم
الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من الشهر. وكانت مدة حياته خمساً وأربعين سنة وخمسة
أشهر وعشرة أيام، ومدة مقامه بمصر سنتين وسبعة اشهر وأياماً.
وكان نقش خاتمه: بنصر العزيز العليم ينتصر الإمام أبو تميم. وقيل: كان لتوحيد الإله
الصمد دعاء الإمام معد، وقيل: لتوحيد الإله العظيم دعاء الإمام أبو تميم.
أولاده : أبو المنصور نزار تميم الظاهر، وبه كنى، توفي بمصر في ذي القعدة سنة أربع
وسبعين وثلاثمائة، الأمير عقل، توفي في شعبان من السنة، وسبع بنات.

قضاته: قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعي، مات بمصر
في سلخ جمادى الآخرة سنة خمس وستين وثلاثمائة، ولم يل القضاء بها؛ واستقضى بالمغرب
أبا طالب أحمد بن القائم بن محمد بن المنهال؛ ولما وصل مصر وجد القائد جوهراً قد
استخلف على القضاء أبا طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله الذهلي البغدادي، وهو
القاضي على أيام كافور، فأقره، وكان أبو سعيد عبد الله بن محمد بن أب ثوبان حكم
بمصر والمغاربة الجند والتجار إلى أن مات في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين؛ فتولى أبو
الحسن علي بن النعمان على قاعدته إلى أن مات 46 أبو طاهر، فقضى أبو الحسن على
الجميع.
كتابه: كان جوهر قد فوض تدبر الأموال في أيامه إلى علي بن العرمرم وأبي محمد
الرودباري، ورجاء بن صولات، وعبد الله بن عطاء الله، وأبي الحسن الكرخي؛ ورد تدبير
هؤلاء الكتاب إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات. واستقر الأمر بعد وصول
المعز على عسلوج، ويعقوب بن يوسف.
وممن وزر للمعز يعقوب بن كلس، وهو أول وزراء دولتهم بمصر، وهو من جملة كتاب الدولة
الإخشيدية، وسنذكر خبره إن شاء الله مستوفى أخبار العزيز.
حاجبه: جعفر بن علي إلى أن توفي، فولي عمار بن جعفر، والله أعلم بالصواب.
بيعة العزيز بالله
وهو أبو المنصور نزار بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، وهو الخامس من ملوك
الدولة العبيدية، والثاني من ملوك مصر والشام منهم.
كان قد ولي العهد من أبيه في حيات، ثم بايعه الناس في يوم وفاة أبيه، لسبع خلون من شعر
ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة.
حكى الرئيس ابن القلانسي في تاريخ الشام وسبب بيعة العزيز الأولى أن أباه المعز لدين الله
كان مغرماً بعلم النجوم والنظر فيما تقتضيه أحكام مولده، فحكم له بقطع، فاستشار
منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن يعمل له سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه مدة إلى
حين زوال ذلك القطع، فصنع ذلك وأحضر وجوه دولته، وقال لهم: أن بيني وبين الله عهداً

وعدنيه قد قرب أوانه، وقد جعلت عليكم ولدي نزاراً، ولقبته بالعزيز بالله، واستخلفه
عليكم، وعلى تدبير أحوالكم مدة غيبتي؛ فألزموا الطاعة المناصحة له، فقالوا: نحن
عبيدك وخدمك، فأخذ البيعة له ووصاه بما أراد، وجعل القائد جوهر مدبراً لأموره، ونزل
السرداب الذي اتخذه وأقام به سنة، فكانت المغاربة إذا رأوا سحاباً ترجلوا الأرض وأوموا
بالسلام عليه، ثم خرج بعد ذلك، وجلس الناس، فدخلوا على طبقاتهم وسلموا عليه؛ ولم
يلبث بعد ذلك إلا مدة يسيرة، واعتل فمات.
حرب أفتكين وعساكر العزيز
ولنذكر ابتداء أمر أفتكين لتأتي أخباره بسياقه.
هو أبو المنصور أفتكين المعزي، أحد مماليك معز الدولة بن بويه، وكان سبب وصوله إلى
الشام أنه لما وقعت الفتنة بين الترك والديلم ببغداد وخلع المطيع كما ذكرناه، وتوالت تلك
الفتن، انفصل أفتكين عن بغداد في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة في ثلاثمائة غلام، وسار حتى
قدم حمص فأقام أياماً يسيرة، وسار منها إلى دمشق، فوجد أحداث البلد قد تحكموا فيها
والفتن بين أهلها وبين عساكر المغاربة، فخرج إليه شيوخ دمشق وأظهروا السرور به، وسألوه
أن يتولى عليهم، ويكف أيدي المفسدين، وتوثقوا منه وتوثق منهم بالإيمان، ودخل البلد
وأصلح أمره، وأحسن السيرة، وكف المفسدين، فاستقام له الأمر وثبت قدمه، فاضطر إلى
مكاتبة المعز لدين الله بمصر فكاتبه وخادعه، وغالظه، وأظهر الانقياد له والطاعة لأمره،
فأجابه المعز يستدعيه إلى حضرته ليشاهده، ويصطفيه لنفسه، ويعيده إلى ولايته؛ فلم يثق
إلى ذلك وامتنع من الإجابة، ووافق ذلك علة المعز ووفاته.
وكتب أفتكين في أثناء القضية إلى مولاه ببغداد يقول إن الشام قد صفا في يدي، فإن سيرت
لي عسكراً مالاً وسلاحاً فتحت ديار مصر، فبعث إليه الجواب: غرك عزك فصار قصار
ذلك ذُلّك فاحش فاحش فعلك، فعلّك تهدأ بهذا، فلما يأس أفتكين من إنفاذ العساكر إليه
من بغداد اضطر عند ذلك إلى مكاتبة القرامطة، فقصدوه ووافوه في سنة خمس وستين
وثلاثمائة؛ وكان الذي أتاه منهم إسحاق، وكسرى، وجعفر، فنزلوا بظاهر دمشق، ووافاه

معهم كثير من العجم، فأكرمهم أفتكين وحمل إليهم الميرة، فأقاموا أياماً وتوجهوا إلى الرملة،
فخرجت إليهم عساكر الساحل، واقتتلوا، فهزمهم أفتكين، وقتل منهم مقتلة عظيمة.
وكان على الساحل مظلوم بن موهوب العقيلي، فانهزم إلى صور، وأحصي القتلى فجاءوا
أربعة آلاف فارس، فكاتب العزيز بن المعز أفتكين واستماله ووعده إن وطئ بساطة أن يرفع
منزلته. فأبى إلا مخالفته، وأغلظ له في الجواب. فاستشار العزيز وزيره يعقوب بن كلس فيما
يفعله فأشار عليه بإخراج 47 جوهر القائد إليه؛ فشرع العزيز في ذلك وجهز جوهراً، فلما
سمع أفتكين ذلك عاد إلى دمشق واستشار أهلها، وقصد التوجه لبلاد الروم؛ وكان أهل
دمشق يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم بالاعتقاد، فطمأنوه، وثبتوا للقاء عساكر مصر.
وخرج جوهر في العساكر العظيمة بعد أن استصحب أماناً من العزيز لأفتكين.
فلما وصل جوهر إلى الرملة كاتب أفتكين ولاطفه، وعرفه ما معه له من الأمان، فلاطفه
أيضاً أفتكين في الجواب واعتذر إليه بأهل دمشق، فعلم جوهر أنه لا بد من الحرب، فسار
إليه ونزل بالشماسية فبرز إليه أفتكين؛ ونشبت الحرب بين الفريقين مدة شهرين، وقتل من
الطائفتين عدد كثير وظهر من شجاعة أفتكين ما عظم قدره في النفوس، فأشار عليه أهل
دمشق بمكاتبة أبي محمد الحسن بن محمد القرمطي واستدعائه لدفع عساكر مصر، فكاتبه
فأتاه القرمطي، فعلم جوهر أنه إن أقام استظهر أفتكين عليه، فرجع إلى طبرية وتبعه أفتكين
والقرمطي فقاتلاه، فانهزم إلى عسقلان فتبعه أفتكين وحصره بها حتى أشرف جوهر على
الهلاك، فصالحه، ووقع الصلح بينهما على أن يخرج جوهر وأصحابه حفاة عراة لا شيء
يستر عورتهم.
وكان العزيز قد خرج من الديار المصرية لإغاثة جوهر، فلقيه في الطريق على تلك الحال،
فأخبره جوهر أن كتامة خذلوه فقبض عليهم، ثم أظهر الغضب على جوهر وعزله عن
الوزارة.
حرب أفتيكن وأسره

وفي سنة ثمان وستين ثلاثمائة، في المحرم منها، وصل العزيز بالله إلى الرملة وأفتكين وعسكره
بالطواحين، ووقع المصاف بينهما، ونشبت الحرب في يوم الخميس سابع الشهر، فانهزم
أصحاب أفتكين وقتل عامتهم وشوهد العزيز في هذا اليوم وقد انفرد عن عسكره وصلى
على الأرض وهو يقول اللهم ارحمني وارحم من ورائي من هذت القبلة، وانصرني، فما
استمد النصر إلا منك، وهو يعفر وجهه على التراب ويبكي، ثم ركب وقد انتصر عسكره،
وجيء بأفتكين أسيراً، أسره مفرج بن دغفل ابن الجراح الطائي أمير طيء، فجاء به وفي
عنقه حبل، فاحسن إليه العزيز لما رأى من شجاعته، ومنّ عليه، ورجع به إلى مصر، فأقام
بها إلى أن مات في سنة سبعين وثلاثمائة، والحجاب والأكابر يركبون إلى داره.
ولما رجع العزيز هنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه الشعراء، فمنهم الحسين ابن عبد الرحيم
الزلالي بقصيدته التي أولها:

لاح للحق شهاب فوقد   فرأى قاصده أين قصد
بالعزيز بن المعز اعتضدت   دولة الحق، وبالله اعتضد
يا أمير المؤمنين المرتضى   وعماد الدين، والركن الأسد
بنزار بن معد، وهما   خير أبناء نزار بن معد

ومنها:

أصلح الشام بما دبره   وتلافاه وقد كان قد فسد
أطفأ الفتنة فيه، بعدما   أبرق التركي فيها ورعد

وكان عود العزيز إلى مصر ووصوله إليها في يوم الاثنين لست بقين من شهر ربيع الأول سنة
ثمان وستين وثلاثمائة.
وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة، في ثامن عشر شهر ربيع الأول، تزوج العزيز بابنة عمه
وأمهرها مائتي ألف دينار عيناً.

فتوح اللاذقية

وفي سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة، في حادي عشر شهر ربيع الأول، ورد كتاب نزال يذكر فيه
أنه واقع الروم بساحل الشام، وكسرهم، وأخذ اللاذقية. ثم ورد نزال من الشام في العاشر
من جمادى الآخرة، ومعه نحو خمسمائة نفر من الروم أسرى في السلاسل.
وفي هذه السنة وصل من تنيس رجل وامرأة بمولودة لها رأسان ووجهان وأربع أيدي كاملة
الخلق في جسد واحد، وسنها دون العشرين.

وفيها كان النوروز لسبع خلون من شعر ربيع الأول وأكل الناس 48 الرطب قبل النوروز
على عاداتهم، وأصرمت النخل، ولم يبق عليها شيء ألبتة، ثم حمل النخل ثانية، فأكل
الناس البلح والبسر مرة ثانية؛ ولم يتفق مثل ذلك في زمن من الأزمنة.
فتح قنسرين وحمص
وفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، في شهر ربيع الأول منها، دخلت عساكر العزيز إلى
قنسرين وحمص، وأقاموا الدعوة له بها.
وفيها في ثامن شوال صرف العزيز وزيره يعقوب بن كلس واعتقله وحمل من ماله خمسمائة
ألف دينار؛ ثم أفرج عنه بعد ذلك، وأعاده إلى الوزارة، في سنة أربع وسبعين، ووهب له
العزيز مالاً كثيراً وألفاً وخمسمائة غلام تكون في خدمته، وإليهم تنسب حارة الوزيرية
بالقاهرة.
وفي هذا السنة اشتد الغلاء بمصر وبلغت حملة الدقيق الجشكار أحد عشر ديناراً
والعلامة اثني عشرة ديناراً؛ والحملة ثلاثمائة رطل بالمصري.
وفيها في العشرين من ذي القعدة ورد الخبر أن ابن حمدان خطب للعزيز بحلب والجزيرة
كلها.
وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة خطب للعزيز بمعرة النعمان.
وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة استجد العزيز في جامع مصر العين الفوارة، ودامت إلى أيام
العاضد، فخربت في الحريق في سنة أربع وستين وخمسمائة؛ ثم جددها الملك العادل أبو
بكر بن أيوب وفيها لاعن القاضي محمد بن النعمان بين رجل من لدن عقيل وامرأته.
وفي سنة ثمانين وثلاثمائة اختط العزيز الجامع بالقاهرة، وهو الجامع المعروف بالحاكم بباب
الفتوح.
وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خرج منير والي دمشق على العزيز بالله، وقتل ابن أبي
العواد الكاتب ولحقه بشارة الإخشيدي فسار نزال والي الرملة إلى دمشق، فحاربه منير،
فهزمه نزال، وكانت الوقعة بمرج عذارء في تاسع شهر رمضان وهرب منير يريد حلب،
فأخذه العرب وأحضروه إلى دمشق لنزال، فوجدوا منجوكتين قد وصل إليها فأخذ منيراً
وحرسه على جمل وإلى جانبه قرد وعليه طرطور.

وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة إحدى وثمانين. وأمده العزيز في سنة اثنتين وثمانين
بخمسمائة فارس وخزانة وسلاح صحبة صالح بن علي وجيلين التركي، فاشتمل عسكر
منجوتكين على ثلاثة عشر ألف فارس فطمع في ملك حلب وخرج إليها في ثلاثين ألف
فارس ونازلها، وفتحها في شهر ربيع الآخر، وبقيت القلعة بيد أبي الفضل بن سعيد الدولة
بن حمدان ولؤلؤ، فكاتبا بسيل ملك الروم، فكتب لصاحب أنطاكية، وهو من قبله، بأن
يجمع العساكر ويتوجه إلى حلب لنصرة صاحبها، ودفع المغاربة عنها، فسار إليها في
خمسين ألف راجل.
وقال المسبّحي: كان عسكر الروم سبعين ألفاً وعسكر منجوتكين خمس وثلاثين ألفاً.
فنزل الروم على الجسر الحديد بين أنطاكية وحلب، فأشار أصحاب منجوتكين عليه بقصد
الروم، فتوجه نحوهم وانضم إليه جماعة من بني كلاب، فالتقوا فانكسرت عساكر الروم،
وغنم منجوتكين ومن معه من الغنائم الجزيلة، وجمع رؤوس الروم مقدار عشرة آلاف رأس
فسيرها إلى مصر.
وتبع منجوتكين الروم إلى أنطاكية، وأحرق ضياعاً، ونهب رساتيقها، ورجع إلى حلب.
فعمل لؤلؤ مقدم حلب على رجوع منجوتكين عن بلده، فكاتب أبا الحسين بن المغربي وزير
منجوتكين وخواصه أن يحسنوا له الرجوع إلى دمشق والعود إلى حلب في العام المقبل،
ووعدهم على ذلك بالأموال الجزيلة، فذكروا ذلك لمنجوتكين فصادف هذا الرأي موقعاً
لسوقه إلى دمشق، فرجع عن حلب.
ولما بلغ العزيز رجوعه عنها انزعج لذلك وعلم أنه تدبير وزيره ابن المغربي، فعزله عن وزارة
منجوتكين، وولي صالح بن علي الروزباري.
وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ظهر من الجراد والكمأة على جبل المقطم بمصر ما لم يعهد
بمثله، فخرج الناس إليه وجعلوا يدخلون القاهرة ومصر كل يوم، فبيع الجراد أربعة أرطال
بدرهم، والكمأة سبعة أرطال بدرهم.
وفيها في يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة احترقت صناعة الإنشاء بمصر بما فيها من

المراكب الحربية وآلات السلاح وغير ذلك، فاتّهم الأمراء بذلك، فقتل منهم مائة وسبعة نفر،
ثم أحضر عيسى بن نسطورس من بقي من الروم فاعترفوا بذلك، فأمر العزيز بالله أن تنهب
كنيسة الروم فنهبت وأخذ منها ما ينيف عن تسعين ألف درهم
وفاة العزيز بالله وشيء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلس ومن ولي بعده.
كانت وفاة العزيز بالله بعد الظهر من يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ست
وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس في مسلخ الحمام بعلتي القولنج والحصاة.
وكان مولده بالمهدية في يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة أربع وأربعين
وثلاثمائة.
وكانت مدة حياته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومدة ولايته إحدى
وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاَ.
وكان أسمر، طويلاً، بديناً، أشهل، أعين، أصهب الشعر، عريض المنكبين، وكان لا يؤثر
سفك الدماء،
قال المؤرخ: وجدد في أيام العزيز من الأبنية قصر الذهب، وجامع القرافة، والفوارة، وبستان
السردوس، وقصور عين شمس، والمصلى الجديد بالقاهرة، وهو أول من بنى دار الفطرة،
وقرر الرواتب، وسن إعطاء الضحايا للأولياء، وكان قريباً من الناس، بصيراً بالخيل
والجوارح والصيد.

ولده أبوعلي المنصور، وهو الحاكم بأمر الله.
أخبار الوزير يعقوب بن كلس
وكنيته أبو الفرج، وهو أول من خوطب بالوزارة في دولتهم، وكان يهودياً من أهل بغداد،
فهاجر منها إلى الشام ونزل الرملة، فجلس وكيلاً للتجار بها، فاجتمع عنده مال فاكتنزه،
وسافر إلى مصر، واتصل بخدمة كافور، فتاجر في متاع كان يحيله بثمنه على الضياع، فكان
إذا احتيل على عمل بمال لا يخرج منه حتى يعلم مستخرجه ونفقته وارتفاعه، فعلم أحوال
ديار مصر، فأخبر كافور، فقال: لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً. فبلغه ذلك،
فأسلم على أيدي كافور، في يوم الجمعة في الجامع العتيق، في سنة خمسين وثلاثمائة.

ثم تعلقت به مطالبات ديوانيه في الدولة الإخشيدية فهرب بسببها من مصر، فلقي العسكر
المغربي قاصداً مصر فعاد بصحبته، فلما ملك القائد جوهر مصر تصرف ابن كلس في
الأمور الديوانية مدة أيام المعز، ثم انتقل إلى خدمة ولده العزيز، فاختص به وتمكن منه،
واقتنى الأموال، فاستوزره في يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة؛
وأقطعه بمصر والشام في كل سنة ثمانية آلاف دينار- وبسط يده في الأموال، وكتب اسمه
على الطرز، وابتدأ بنفسه في المكاتبات والعناوين، من يعقوب بن يوسف وزير أمير
المؤمنين.
وتمكن من الدولة حتى أسقط المغاربة، واستخدم المشارقة في سنة سبعين وثلاثمائة، من
الترك والإخشيدية. وأذل جوهر الرومي غلام المعز، وجعله على المرمة، وكان جوهر يقول
قبح الله طول هذا العمر الذي أحوج لمثل هذا.
ثم نكبه العزيز النكبة التي ذكرناها في سنة ثلاث وسبعين، ثم أطلقه وأعاده إلى الوزارة،
وقال له: عزلت بالإغراء، وردت بصميم الآراء، ووهب له ألفاً وخمسمائة غلام كما ذكرنا.
ولم يزل كلس على ذلك إلى أن توفي لست خلون من ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة،
ولما مرض مرضته التي مات فيها ركب العزيز إليه، وعاده، وقال له: وددت أنك تباع
فأبتاعك بمالي وولدي.
ولما مات أمر العزيز أن يدفن في داره في قبة كان بناها لنفسه، وحضر جنازته وصلى
عليه، وألحده في قبره.
وبلغ قيمة الكفن الذي أنفذه العزيز له، وهو خمسون مثقلة سبعة آلاف دينار. وانصرف
من دفنه، وأظهر الحزن وأغلق الدواوين ثمانية عشر يوماً، وعطل الأعمال أياماً، واشتملت
تركته على مال عظيم.
ولم يستوزر العزيز بعده أحداً بل ضمن أموال الدولة بجماعة من المستخدمين وجعل الغالب
عليهم عيسى بن نسطورس النصراني، فمال إلى النصارى وقلدهم الأعمال. واستناب
بالشام منشّا ين إبراهيم اليهودي فقدم اليهود ومال إليهم، وأطرح المسلمين، فوقفت للعزيز،

امرأة بيدها قصة مكتوب فيها: يا أمير المؤمنين بالذي أعز النصارى بابن نسطورس وأعز
اليهود بمنشّا بن إبراهيم، وأذل المسلمين بك إلا ما نظرت في أمري وكشفت ظلامتي فقبض
على عيسى، وكتب بالقبض على منشّا بالشام ثم شفعت ست الملوك ابنة العزيز في
عيسى فرده إلى ما كان عليه، وحمل الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، وشرط عليه استخدام
المسلمين في دولته وأعماله.
قضاته: أبو طالب محمد بن أحمد البغدادي إلى أن استعفى، ثم علي بن النعمان إلى أن
توفى في شهر رجب سنة أربع وسبعين، فرد القضاء إلى أخيه أبي عبد الله محمد بن
النعمان.
حجابه: الأمير منجوتكين 50 القائد ياروخ.
ولما مات العزيز قام بالأمر بعده ولده أبوعلي المنصور.
بيعة الحاكم بأمر الله
وهو أبوعلي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور
بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، ين القائم بأمر الله أبي القاسم محمد ، بن المهدي عبيد الله،
وهو السادس من ملوك الدولة العبيدية، والثالث من ملوك مصر والشام منهم.
بايع له أبوه العزيز قبل وفاته ببلبيس، وكان ولي قبله ابنه محمد فهلك في حياة أبيه العزيز،
ثم جددت البيعة للحاكم بأمر الله صبيحة وفاة أبيه في يوم الأربعاء لليلة بقيت من شهر
رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ولبس أثواب الخلافة، وتعمم بعمامة عليها الجواهر،
وعمره آنذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وتولى كفالته برجوان الخادم، وقام بأمر
الجيوش وتدبير أمور الدولة أبو محمد الحسن بن عمار ابن أبي الحسين، وتلقب بأمين الدولة،
وهو أول لقب في دولتهم في مصر، وكان ذلك بوصية من العزيز.
قال: وكان الكتاميون قد أضعفهم الوزير ابن كلس، فأظهرهم ابن عمار وردهم إلى ما كانوا
عليه.
القبض على الوزير عيسى
بن نسطورين النصراني وقتله
كان القبض عليه في تاسع شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وذلك أن ابن عمار اتهمه

بالإغراء عليه ومباطنة منجوتكين، فبسط عليه العذاب واستخرج منه سبعمائة ألف
دينار، ثم أخرجه لثلاث بقين من المحرم سنة سبع وثمانين على حمار، إلى المقس، وضرب
عنقه هناك، رحم الله ابن عمار الآمر بقتله، فلقد حكى عنه جوره بالمسلمين واطراحه
لهم ما لا مزيد عليه.
حكى الأثير بن بيان المصري أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب فيها عيسى
على قبح فعله بالمسلمين وبالغ فيها فأجابه عيسى عنها يقول: أن شريعتنا متقدمة، والدولة
كانت لنا ثم صارت لكم، فجرتم علينا بالجزية والذلة، فمتى كان منكم إلينا إحسان حتى
تطالبونا بمثله، إن مانعناكم قاتلتمونا، وإن سالمناكم أهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا
تتوقعون أن نصنع بكم، ثم تمثل في آخرها بيتين:
بنت كرم غصبوها أمها ثم داسوها، هواناً، بالقدم
ثم عادوا حكموها فيهم وأناهيك بخصم قد حكم
مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك
كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ في الإحسان إليهم، وخولهم الأموال
وبسط أيديهم، وفرق فيهم ما خلفه العزيز.
قال بعض المؤرخين: إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرس وبغل، وجمل
وحمار، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء، ففرق ابن عمار ذلك فيمن أراد
اصطناعه، فلما كان في سنة سبع وثمانين ومائتين انبسطت يد كتامة وجاروا على الناس
بديار مصر، وامتدوا لأخذ أموالهم، ثم اجتمع مشايخهم وحسنوا للحسن بن عمار قتل
الحاكم، فعلم برجون بذلك، فبالغ في حفظ الحاكم وضم إليه شكر العضدي من غلمان
عضد الدولة بن بويه، وكاتبا منجوتكين أمير دمشق يعرفانه ما عزم عليه ابن عمار، وأنه
بسط يد كتامة في الأموال ومكنهم من الجور وأنهم حصروا الحاكم بقصره، وأشار عليه أن
يقصد مصر ليكون عوضاً عن الحسن بن عمار.
فلما قرأ منجوتكين الكتاب جمع القواد والأجناد وغيرهم بجامع دمشق، وعرفهم ما جرى
من كتامة، وبكى، وخزق ثيابه، فأطاعه الناس وحلفوا له على طاعة الحاكم وقتال ابن

عمار، فأنفق فيهم الأموال ووثق منهم، وبرز من دمشق ستة آلاف فارس.
فلما اتصل ذلك بابن عمار عظم عليه وجمع وجوه كتامة وعرفهم الحال، فقالوا: نعرف
الناس إن منجوتكين قد عصى الحاكم وخالف عليه وخرج عنه، ليبالغوا بقتاله ففعل ذلك
وأظهره، وفرق الأموال في وجوه الدولة. ثم أحضر برجوان وشكر العضدي وقال لهما: أنا
شيخ كبير وقد كثر الكلام علي والقول في، وليس لي غرض إلا حفظ الإمام الحاكم،
وسألهما أن يحلفا له على المساعدة فما وسعهما إلا أن حلفا له، وندب من وقته أبا تميم
سليمان بن جعفر بن فلاح وقدمه على العسكر، وأمره بالمسير إلى الشام، فخرج في ستة
عشر ألف فارس وراجل، فسار سليمان في ثاني صفر، ورحل منجوتكين إلى الرملة فملكها
ومعه مفرج بن دغفل بن جراح، وسار سليمان حتى نزل بظاهر عسقلان.
وتقابل الجيشان بعد ثلاثة أيام؛ وكان المصاف في يوم الجمعة لأربع بقين من جمادى الأولى
سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فاستأمنت العرب من أصحاب دغفل وغيرهم إلى سليمان،
فاستظهر، وقتل من أصحاب منجوتكين أربعة قواد، وانهزم منجوتكين وأحصيت القتلى من
أصحابه فجاءت ألفي فارس، وامتلأت أيدي أصحاب سليمان، وبذل سليمان لمن يحضر
منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب، فأسره علي بن الجراح وحمله إلى سليمان، فسيره
إلى مصر، فاصطنع الحسن بن عمار منجوتكين، وسار سليمان ونزل طبرية.
فلما بلغ أهل دمشق ما اتفق لمنجوتكين نهبوا داره، وبعث سليمان أخاه إلى دمشق في
خمسة آلاف فارس، فلما وصلها أغلقوا دونه الأبواب، فكتب لأخيه بذلك، فسار إلى
دمشق وتلطف بأهلها، وطيب قلوبهم، ففتحوا له الأبواب، ودخل البلد واستقر أمره، وثبت
قدمه، واستتب له الأمر، فنظر في أمر الساحل واستبدل بولاية الجابريين، وعزل الأمير جيش
بن الصمصامة من طرابلس الشام واستعمل عليها أخاه، فحضر جيش إلى مصر ولم يجتمع
به.
الفتنة بين المشارقة والمغاربة

وهرب ابن عمار ما كان من أمره
كان سبب ذلك أن سليمان بن جعفر لما عزل جيش بن الصمصامة، عن طرابلس حضر
جيش إلى مصر واجتمع بشكر الخادم وبرجوان سراً وعرفهما بغض أهل الشام في المغاربة،
وكان جيش أيضاً من كتامة وبينه وبين سليمان عداوة متمكنة، فحسن لهما الفتك بالحسن
بن عمار، فوقع هذا الكلام من برجوان بالموقع العظيم مع ما تقدم بينهما من الوحشة.
وعلم برجوان أن القاهرة ومصر قد خلتا من المغاربة فلم يبق فيها إلا العدد القليل وأمكنه
الفرصة فانتهزها، وراسل الأتراك والمشارقة في القبض على الحسن بن عمار.
وأحس ابن عمار بذلك فقصده المبادرة إلى الإيقاع ببرجوان وشكر، ورتب جماعة في
دهليز داره، وقرر معهم الفتك بهما إذا دخلا إليه، وكان لبرجوان عيون كثيرة فأطلعوا على
ما دبره ابن عمار عليه، واتفق أن الحسن استدعاه ومعه شكر، فركبا إلى داره، وكانت
آخر القاهرة مما يلي الجبل، ومعهما جماعة من الغلمان، فلما وصلا باب الدار ظهرت لها
عين القضية فعادا إلى القصر بسرعة وجرد الغلمان سيوفهم، فدخلا قصر الحاكم، فثارت
الفتنة، واجتمع الأتراك والديلم والمشارقة وغيرهم على باب القصر، وبرجوان يبكي، وهم
يبكون لبكائه، وهو يحرضهم على القيام بواجب خدمة الحاكم.
وركب الحسن بن عمار في كتامة إلى الجبل، وتبعه وجوه الدولة فصار في عدد كثير وفتح
برجوان خزائن السلاح وفرقها، على الغلمان وغيرهم، وأحدقوا بالقصر، فبرز منجوتكين
وفارحتكين وينال الطويل في خمسمائة فارس من الأتراك، ووقعت الحرب بينهم وبين الحسن
بن عمار إلى وقت الظهر من يوم الخميس سلخ شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فانهزم ابن
عمار، ورجعت العامة إلى داره فنهبوها ونهبوا خزائنه؛ واستتر عند بعض العوام وتفرقت
عنه جموعه.
وفتح برجوان باب القصر، وأجلس الحاكم، وأوصل إليه الناس، وجدد له البيعة على
الجند، فلم يختلف إليه أحد، وكتب الأمانات لوجوه كتامة وقواد الديلم وراسلهم بما يطيب

قلوبهم فأتوه، واستقام أمر برجوان وكتب إلى أهل دمشق يطيب قلوبهم ويأمرهم بالقيام على
سليمان والإيقاع به، فثار أحداث دمشق وقصدوا دار أميرها سليمان، فوجدوه وقد التهى
بالشرب وانهمك على لذاته، فهرب على ظهر فرسه ونهبت خزائنه وأمواله، وجعل برجوان
الحسين بن القائد جوهر قائد القواد، وبعث جيش بن محمد بن الصمصامة إلى دمشق،
وتلطف في إخراج الحسن بن عمار من استتاره، فخرج، فأعاد برجوان عليه ما كان بيده
من الإقطاعيات وحلفه ألا يخرج من داره.
وفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة عصى أهل صور على الحاكم بسبب فتنة برجون وابن
عمار وقتلوا جماعة من جند المصريين، وثار بعض الملاحين من أهلها، ويعرف بالعلاقة،
فملك البلد.
وثار مفرج بن دغفل الجراحي بالرملة ونهبها.
فندب برجون إلى الشام أبا الحسن عبد الصمد ابن أبي يعلى، وضم إليه عسكراً، فسار
من القاهرة لأربع عشر ليلة خلت من ذي القعدة، سنة ثمان وثمانين، فلما وصل إلى الرملة
حضر إليه من جند الساحل خمسة آلاف فارس، ووجد سليمان بن جعفر بن فلاح بها
فقبض عليه وسيره إلى مصر، وسير إلى صور أبا عبد الله الحسن بن ناصر الدولة وياقوت
الخادم ومن معه من عبيد الشراء، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور، ثم طلبوا الأمان
فأمنوا، وأسر العلاقة الثائر، وكان قد استنصر بالروم، فسلخ وهو حي، وحشي جلده تبناً
وصلب. وكان قد ضرب على الدينار بصور عز بعد فاقة ، وشطارة بلباقة، للأمير
العلاقة.
وفيها في شعبان ورد الخبر بفتح إنطاكية على يد الأمير جيش بن محمد بن الصمصامة.
قتل برجوان الخصي
كان مقتله في ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة. وسبب ذلك أنه كان
لفرط إشفاقه على الحاكم منعه من الركوب خوفاً عليه، ومنعه من العطاء لغير مستحق،
فثقل على الحاكم، ولم يبق للحاكم في الأمر غير الاسم، واستبد برجوان بالأمر، وكان عند

الحاكم خادم اسمه ريدان الصقلبي كان قد اختص به وأنس إليه، فشرع في إغراء الحاكم
على برجوان، وكان من جملة ما قال: إن هذا ليقصد أن يفعل بك كما فعل كافور
الإخشيدي مع أولاد سيده، فباطن الحاكم الحسين بن جوهر قائد القواد على قتل برجوان،
ووعده أن يفوض إليه تدبير الأمر بعده، ثم ركب الحاكم وبرجوان في بعض الأيام إلى بستان
اللؤلؤة على عادته، فمال عليه ريدان بسكين فضربه بها في ظهره وأخرجها من صدره، فقال
برجوان للحاكم: غدرت، فزعق على الخدام فاحتزوا رأسه، فانزعج الناس لذلك ولبسوا
السلاح، فسبق الحاكم فدخل القصر، وحضر شكر الخادم والجند ظناً منهم أن الحسن بن
عمار تمم على الحاكم حيلة، فلما رأى الحاكم ذلك تراءى للناس فترجلوا وقبلوا الأرض،
وسكنت الفتنة،
ثم فتح الحاكم القصر واستدعى أكابر الناس وقال لهم: أنكرت علي برجوان وقتله،
واستدعى الحسين بن جوهر وأمره بصرف الناس إلى منازلهم فصرفهم.
وركب مسعود الحاكمي إلى دار برجوان فأحاط على ما فيها، وكان من جملة ما وجد
ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير، وناهيك بموجود يكون هذا من جملته.
و إلى برجوان هذا تنسب حارة برجوان التي بالقاهرة.
واستقر الحسين بن جوهر في تدبير أمور الدولة في ثالث جمادى الأولى من السنة.
وقتل في أثناء الفتنة الحسن بن عمار الكتامي، وتوفي جيش ابن محمد بن الصمصامة أمير
الشام بدمشق في ثالث عشر ربيع الأول منها، وندب الحاكم لولايتها القائد تميم بن إسماعيل
المعزي الملقب بفحل.
ما شذ به الحاكم بأمر الله
وأمر به من أمور الدالة على اضطراب عقله بعد أن استقل بالأمر بمفرده.
كان أول ذلك أنه نهى في سادس شهر رجب سنة تسعين وثلاثمائة أن يخاطب الناس
بعضهم بعضاً بسيدنا أو مولانا، وألا يخاطب بذلك غيره. وفي إحدى وتسعين، في شهر
محرم، أمر أن تزين مصر ويفتح الناس دكاكينهم ليلاً، ولازم ركوب الخيل بالليل، وكثر ازدحام

الناس، وصار البيع بالليل أكثر من النهار، وأكثر الناس الوفود. وغلب النساء على
أزواجهم على الخروج، فأمر في رابع عشر الشهر ألا تخرج امرأة من العشاء لهذا السبب،
فلم يخرجن بعد أمره.
وفي سنة ثلاث وتسعين حصل للحاكم مرض المانخوليا، فأخذ في قتل أرباب الدولة وذوي
المناصب وغيرهم، وصدر عنه الأفعال 53 ما نذكره إن شاء الله تعالى بتواريخه على
حكم السنين.
بناء الجامع المعروف باسم راشده
كان ابتداء عمارته في سابع شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكان سبب
إنشائه أن أبا منصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع وبنى للنصارى فيه كنيسة فرفع أمره
للحاكم، فأمر بهدم الكنيسة وأن يجعل موضعها مسجداً، ثم أمر بالتوسعة فيه، فخربت
مقابر اليهود والنصارى، وجمع فيه الجمعة لليلتين بقيتا من الشهر، وبنى فيه منبر من الطين،
وصلى فيه ابن عصفورة القارئ ثم ظهر بعد ذلك أن المحراب وضع على غير صحة فهدم
ما كان من ارتفاع البناء، ثم بني عليه ما هو عليه الآن.
بناء الجامع المعروف بالحاكم الذي هو باب النصر وباب الفتوح بالقاهرة
قد ذكرنا أن العزيز بالله كان قد اختطته في سنة ثمانين وثلاثمائة، ومات العزيز بالله ولم تكمل
عمارته،
فلما كان في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، أمر الحاكم بالله
إتمامه، وقيل إن الوزير يعقوب بن كلس، وزير العزيز، هو الذي بدأ بعمارته وقدر له أربعين
ألف دينار، فاخرج له خمسة آلاف دينار ومات ولم يكمل، فابتدأ بعمارته في هذا التاريخ.
وفي هذه السنة قتل الحاكم مقداد ابن حسن كاتب جوهر، ضرب عنقه وأحرق بالنار،
وفيها لليلتين خلتا من ذي الحجة قتل ريدان الصقلبي الخادم، وكان خصيصاً به مكيناً
عنده، وإليه ينسب الريدانية التي هي بظاهر القاهرة خارج باب النصر، وفيها قتل منجمه
العكبري صاحب الرصد الحاكمي وكان شديد الاختصاص به، ونادي مناديه بإباحة دم
المنجمين، وأنهم كفار، فهربوا فلم يبق بالديار المصرية منجم.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، في رابع عشري المحرم قرئ سجل من الحاكم بمنع الملوخية
والمتوكلية والترمس المعفن والدليس وعمل الفقاع، وعن ذبح البقر، وألا يدخل أحداً المنبر
إلا بمئزر ولا تكشف امرأة عن وجهها في طريق ولا خلف جنازة، وألا يباع من السمك ما
ليس له قشر،
وفي رابع صفر منها كتب على المساجد بسب الصحابة رضي الله عنهم، وعلى حيطان
الشوارع والقياسر، ثم نهى عن ذلك سبع وتسعين، وأمر اليهود والنصارى إلا الحبابرة بلبس
السواد، وأن يحمل النصارى الصلبان على أعناقهم، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته
عشرة أرطال، وعلى أعناق اليهود قوامي الخشب والجلاجل، وألا يركبوا شيئاً من المراكب
المحلاة، وأن يكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحداً من المسلمين ولا يركبوا حماراً
لمكار مسلم.
وفي سابع عشري صفر منها نودي بالقاهرة ألا يخرج أحداً بعد عشاء المغرب إلى الطريق
ولا يظهر بها.
وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر منها أمر بقتل الكلاب فقتلت عن آخرها.
وفي تاسع عشر جمادى الآخرة فتحت دار بالقاهرة وسميت دار الحكمة، وجلس فيها
الفقهاء وحملت إليها الكتب من خزائن القصور، ونسخ الناس من الكتب ما اختاروه،
وجلس فيها القراء والفقهاء والنحاة واللغويون، والأطباء والمنجمون، بعد أن فرشت
وزخرفت، وعلقت الستور، على جميع أبوابها وممراتها، وجعل لها قوام وخدام، وحصل في
هذه الدار من الكتب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله، وأجريت بها الأرزاق،
وفي هذه الشهر منع الناس من العبور إلى القاهرة ركاباً مع المكارية، ومنع من الجلوس على
باب الزهومة إلى أقصى الباب المعروف بباب الزمرد.
وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة، ركب الحاكم في موكبه ومعه أرباب دولته فمر على
الموضع الذي يباع فيه الأحطاب وقد تراكمت الأحطاب فيه بعضها على بعض، فوقف
وأمر أن تؤجج النار في بعضها، ثم أمر بقاضي القضاة بمصر، وهو الحسين بن النعمان، فأنزل

عن دابته ورمي به في تلك النار حتى هلك، ولم يتقدم له مقدمة توجب ذلك، ثم مرّ كأن لم
يصنع شيئاً.
أبي ركوة
وظهوره وما كان من أمره إلى أن قتل
كان ظهوره في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وأدعى أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن
عبد الرحمن الأموي، وتلقب بالثائر بأمر الله، والمنتقم من أعداء الله، ونحن الآن نذكر
أخباره وابتداء أمره، وكيف تنقلت به الحال إلى أن كان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.
كان مولده في الأندلس ونشأ بها بحال سيئة يجوب البلاد إلى أن وصل إلى القيروان، ففتح
فيها مكتباً يعلم الصبيان فيه القرآن، ثم توجه منها إلى الإسكندرية، ومنها إلى مصر فأقام
بها وبأريافها يعلم الصبيان، ثم توجه إلى الفيوم وعلم بها الصبيان أيضاً، وعاد إلى مصر،
وخرج إلى سبك الضحاك فنزل به على رجل يعرف بأبي اليمن، ثم نزل بقرنفيل وسار منها
إلى البحيرة فنزل على بني قرة، وكان الحاكم قبل ذلك في سنة خمس وتسعين قد بعث إليهم
جيشاً مقدمه أبو الفتيان التركي وقتل الحاكم بعضهم وحرقه بالنار، فوجدهم قد أجمعوا
على أن يقتلوه ويحاربوه، ولم يعلموا من يقدمونه عليهم، فعرفهم أبو ركوة أنه من بيت الخلافة،
فانقادوا إليه وبايعوه بالخلافة، ونعت بأمير المؤمنين، وانضاف إليهم من لوانة ومزاتة وزناتة
جمع كثير، وجاءوا إلى مكان بالقرب من برقة.
فلما بلغ الحاكم أمره جهز عساكره لقصده، فأول من خرج بها ينال الطويل التركي في
منتصف شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فالتقوا واقتتلوا، فقتل ينال وعامة من معه من
العساكر، وغنموا ما معهم، وسار أبو ركوة إلى برقة وأخذها بعد حصار، فاستفحل أمره.
وشرع الحاكم في تجريد العساكر إليه، فجهزها في ربيع الأول سنة ست وتسعين وعليها ابن
الأرمينية، فسار إلى المكان المعروف بالحمام، فلقيه بنو قرة في جماعتهم فهزموه وقتلوه
وانتهبوا ما كان معه.
فندب الحاكم عسكراً وقدم عليه أبا الحسن ابن فلاح وجلين وإبراهيم بن الإفرنجية؛ ثم

ندب القائد أبا الفتوح فضل بن صالح لقتاله، فخرج إلى أرض الجيزة في رابع شوال وأنفق في
العساكر، وكوتب على بن الجراح، بالوصول إلى الحضرة، فورد من الشام في سابع عشر
شوال، وورد الخبر بنهب الفيوم، فبعث الحاكم سرية لحفظه، وسار الفضل بن صالح عن
مكانه إلى ذات الكوم في رابع ذي القعدة، وكسر أبو ركوة عسكر ابن فلاح ونهب سواده
والخزائن التي معه، وقتل من أصحابه جماعة؛ فاضطرب الناس واشتد خوفهم، وباتوا في
الدكاكين والشوارع. وتوجه القائد فضل بن للقاء أبي ركوة، فالتقيا بموضع يعرف برأس
البركة، على نصف مرحلة من مدينة الفيوم، لثلاث خلون من ذي الحجة. واقتتل العسكران
قتالاً شديداً وانجلت الحرب عن قتل عامة عسكر أبي ركوة، وانهزم أبو ركوة إلى بلاد النوبة
وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية.
وذكر بعض المؤرخين أن الحاكم لما أعياه أمره دس إليه جماعة من أولياء دولته وأمرهم
بطاعته، وأن يذكروا انحرافهم عن الحاكم بسبب قتله لهم، ففعلوا ذلك، فاغتر به، ووصل
معهم إلى أوسيم على ثلاثة فراسخ من القاهرة، فالتقى هو والفضل كما ذكرنا، وأتبعه، فبلغه
أنه وصل إلى بلاد النوبة فكتب إلى متملكها يقول إن عدو أمير المؤمنين الحاكم في بلادك،
وكتب إلى صاحب الجبل وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد الدو فيما بين دنقلة وأسوان،
وندب الفضل من العسكر من توجه لقبضه، وكان المساعد على مسكه الشيخ أبو المكارم
هبة الله، شيخ بني ربيعة وقيل أنه وجد في دير يعرف بدير أبي شنودة في أطراف النوبة،
فمسك، وكان الطعن به في شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.
وعاد القائد فضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الجيش في يوم الجمعة، النصف من جمادى
الآخرة منها، وتلقاه أكابر الدولة الحاكمية، وركب في سابع عشر الشهر وأبو ر كوة على جمل
وعلى رأسه طرطور، وطيف به على هذه الصفة وخلفه قرد يصفعه ثم صلب 55
وضربت عنقه وجهزت إلى البلاد.
ونقل بعض المؤرخين أنه لما اعتبرت الأكياس التي خرجت مع القائد فضل للقاء أبي ركوة،

وكان زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطاراً، وقيل إن جملة ما انفق ألف دينار والله أعلم.
وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار حيثما وجدوا، وذلك
أن كان قد قتل خلقاً كثيراً لسعايتهم، ثم أطلع على خيانتهم وأنهم صيروا ذلك معيشة،
فقتلهم عن أخرهم.
وفيها أمر بهدم كنيسة قمامة بالبيت المقدس، فكتب ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في
ذلك خرج أمر الإمامة بهدم كنيسة قمامة، فليصير طولها عرضاً، وسقفها أرضاً.
وفي سنة ثمان وتسعين أيضاً، في سابع عشري شعبان، عزل القائد حسين بن جوهر عن
جميع ما كان يتولاه، وكتب سجل بتولية صالح بن علي بن صالح الروزباري فانصرف الحسين
إلى داره وأمر بلزومها، ثم خلع عليه وركب في رابع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين
وثلاثمائة.
وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، في يوم الجمعة التاسع من شهر رمضان، حضر الناس إلى
القصر وقرئ سجل صالح بن علي لقب فيه بثقة الثقات للسيف والقلم، وخلع عليه، وقيد
بين يديه بغلات وخيل.
وفيها مرض الحاكم فداواه بن معشر، فأعطاه عشرة آلاف دينار.
وفيها سخط الحاكم على وزيره ابن المغربي وقتله، وقتل أخاه وابنه، وهرب ابنه الآخر إلى
الشام،
وفيها في تاسع ذي الحجة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق المقس وكنائس
حارة الروم، فهدم جميع ذلك.
وفي سنة أربعمائة، في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان، جمع الأولياء. وأصحاب
الدواوين في صحن الإيوان بالقصر، وخلع على أبي نصر بن عبدون، وقرئ سجله، ولقب
بالكافي، وولي مكان صالح بن علي بن صالح الروزباري، وكانت مدة ولاية صالح سنتين
وأربعة عشر يوماً.
خروج آل الجراح على الحاكم
ومتابعتهم لأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وما كان من أمرهم

كان سبب ذلك أن نصر بن عبدون كان بينه وبين بني المغربي عداوة متمكنة، فسعى بهم
عند الحاكم وأغراه، إلى أن أمر بضرب أعناقهم، وذلك في ثالث ذي القعدة سنة أربعمائة؛
فقتل أخوي الوزير وولده وثلاثة من أهل بيته، واستتر الوزير أبو القاسم بن المغربي وهرب
إلى الشام، في تاسع ذي القعدة منها، والتجأ إلى حسان بن المفرج بن دغفل الجراح،
واستجار به فأجاره؛ وانشده عند دخوله عليه:
أما وقد خيمت وسط الغاب فليقسون على الزمان عتابي
يترنم الفولاذ دون مخيمي وتزعزع الخرصان دون قبابي
وإذا بنيت على الثنية خيمة شدت إلى كسر القنا إطنابي
وهي قصيدة مطولة مدح بها آل الجراح، فلما سمعها حسا هش لها وجدد من القول ما
طاب به قلب الوزير وسكن جأشه.
ثم حسن ابن المغربي لبني الجراح أن يخرجوا على طاعة الحاكم، فوافقوه، على ذلك،
وقتلوا تارتكين أحد الأمراء الحاكمية المقيم بالرملة، ثم حسن لهم أن يقيموا أبا الفتوح
حسن بن جعفر الحسني خليفة، وهو أمير الحرمين يومئذ، وأن يحضروه من مكة، فأجابوه
إلى ذلك، وأرسلوا إلى مكة وأحضروه إليهم، فلما قرب أبو الفتوح من ديار بني الجراح
خرجوا إليه وتلقوه، وقبلوا الأرض بين يديه، وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالراشد بالله، فحينئذ
صعد أبو القاسم ين المغربي المنبر وخطب خطبة يحرض فيها الناس على الخروج على
الحاكم، فأشار إلى مصر وقرأ: "طسم، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلوا عليك من نبأ موسى
وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون قد علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف
طائفة منهم بذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين
استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم من الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون
وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون"
فلما سمع الحاكم ذلك أزعجه، فندب الجيوش لقتالهم، مع ياروخ تكين العزيزي، فاعترضه
حسان بين رفح والداروم، والتقوا واقتتلوا، فانهزمت أصحاب ياروخ تكين، وأسره هو ونقل
إلى الرملة، وسمع غناء جواريه وحظاياه بحضوره وهو مقيد معه في المجلس، وارتكب معه

الفواحش العظيمة، ثم قتله صبراً بين يديه.
وبقي الشام لبني الجراح، فشرع الحاكم 56 يأخذهم بالملاطفة، وراسلهم، وبذل لهم
الرغائب والأموال، والأقمشة والجواري، وقرر لكل واحد منهم خمسين ألف دينار عيناً،
واستمالهم عن أبي الفتوح، فاتصل ذلك بأبي الفتوح، فقال لهم: إن أخي قد خرج بمكة،
وأخاف أن يستأصل ملكي بها، فأعادوه إلى مكة في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث
وأربعمائة، وكان الحاكم قد أرسل إلى الوزير أبي القاسم المغربي وكتب له أماناً واستماله،
وبني على أهله ترباً في القرافة، وهي ست ترب، وتعرف بالسبع قباب إلى هذا الوقت.
ولما ورد أمان الحاكم على أبي القاسم وهو مقيم عند بني الجراح أجابه برسالة وضمن لها
بيتين:
وأنت وحسبي أنت، تعلم أن لي لساناً أمام المجد يبني ويهدم
وليس كريماً من تباس يمينه فيرضى، ولكن من يعض فيحلم
وسأل آل الجراح أن يجهزوه إلى العراق فجهزوا معه من أخرجه من بلاد المغاربة؛ وعاد بنو
الجراح إلى طاعة الحاكم، وأقام ابن المغربي بالعراق إلى أن توفي بميافارقين في سنة ثمان
عشرة وأربعمائة، وحمل إلى الكوفة فدفن فيها، ولما فارق آل الجراح قدم بغداد وتقلد الوزارة
لمشرف الدولة بن بويه كما ذكرنا في أخبار الدولة البويهية.
أحمد بن محمد القشوري وقتله
وفي سنة إحدى ومائة في يوم الخميس رابع المحرم استدعى الحاكم الناس على طبقاتهم إلى
القصر فركبوا معه إلى خارج باب الفتوح، ثم عاد إلى قصره وأمر من مكان بالموكب بالنزول
إلى القصر، فنزلوا وحضروا في الإيوان، فخرج من عند الحاكم خادم فاخذ بيد أحمد بن
محمد المعروف بالقشوري الكاتب وأخرجه من بين القوم، ثم عاد القشوري وقد خلع عليه
وبيده سجل، فأخذه أبوعلي العباسي الخطيب وقرأه على الناس، فإذا هو يتضمن تقليده
السفارة والوساطة بين الناس والحاكم، وتفويض الأمور إليه، وصرف ابن عبدون، وأقام
القشوري إلى الثالث عشر من الشهر، فقبض عليه وقت الظهر وهو في مجلس ولايته،

وضربت رقبته، ولف في حصير ورمي، فكانت ولايته عشرة أيام، وكان سبب ذلك إكرامه
للقائد حسين بن جوهر وتعظيمه له وكثرة سؤاله الحاكم في معناه.

وفوضت هذه الوظيفة في يوم الأحد رابع عشر الشهر لأبي الخير زرعة ابن عيسى بن
نسطورس النصراني الكاتب، على عادة من تقدمه، ولم يخلع عليه إذ ذاك، ثم خلع عليه في
سابع عشر شهر ربيع الآخر منها.
وفي السادس والعشرين منه قرئ بجامع مصر سجل يتضمن النهي عن معارضة الحاكم فيما
يفعله، وترك الخوض فيما لا يعني، وإعادة حي على خير العمل إلى الآذان، وإسقاط الصلاة
خير من النوم، والنهي عن صلاة التراويح والضحى.
وفي ثاني عشر شهر جمادى الآخرة دخل قائد القواد حسين بن جوهر، والقاضي عبد
العزيز بن النعمان إلى القصر، وكان قد خلع عليهما في ثاني صفر، فلما أرادا الانصراف
بعث إليهما زرعة بن نسطورس يقول إن الخليفة يريدكما لأمر يختاره، فجلسا حتى انصرف
الناس، فقتلا وقتل معهما أبوعلي أخو الفضل بن صالح، ووقعت الحوطة على دارهم.
وفي سنة إحدى وأربعمائة قامت دعوة الحاكم بالمدائن، وهي على نصف مرحلة من
بغداد، وخطب له بمدينة الأنبار وقصر ابن هبيرة، من العراق بدخول مالك بن عقيل بن
قراوش بن المقلد في طاعته وإظهار تشيعه، وذلك أيام الخليفة القادر العباسي ثم بلغ قراوش
بن المقلد اختلال الحاكم وقتله أرباب الدولة وأن المانخوليا قد غلبت عليه ،فأعاد الخطبة
العباسية.
وفيها قام بدعوة الحاكم بمدينة الجامعين وهي الحلة وما جاورها من العراق الأمير علي بن
مزيد الأسدي، وكان قد هزم خفاجة واستولى على بلادهم وخطب فيها للحاكم.
وفي سنة اثنتين وأربعمائة تاب الحاكم ونهى عن شرب الخمر وعن كل ما يعمل منه،
كالزبيب والعسل، ونفى المغاني، وحرم الملوخية، ومنع أن تقبل الأرض بين يديه، وأن تقبل
يده، وأن يخاطب مولانا، واقتصر على قولهم السلام على أمير المؤمنين.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة قطعت كروم العنب بأسرها ورميت إلى الأرض ودرست بالبقر،
وجمع ما كان من الخمر بالمخازن وأريق في البحر، وفيها كسرت جرار العسل؛ وأمر اليهود
والنصارى بلبس العمائم السوداء إلا الحبابرة، ومنعوا أن يستخدموا المسلمين، وأن يركبوا
مع المكاريه، وإذا دخل النصراني الحمام يكون الصليب في عنقه، واليهودي الجلجل، ثم أفرد
بعد ذلك حمامات النصارى وحمامات اليهود، وأسلم جماعة من النصارى في شهر ربيع
الأول.
وفيها في شهر ربيع الآخر شدد الحاكم على النصارى واليهود في حمل الصلبان، وأن يكون
الصليب في طول ذراع وزنته خمسة أرطال، فلما اضر ذلك بهم دخلوا في دين الإسلام.
وفيها في شهر رمضان أمر الحاكم ببناء مصلى العيد بسفح المقطم وأحسن بناءه، وكان
قبل ذلك ضيقاً صغيراً، فهدمه الحاكم وبناه على ما هو عليه الآن.
هدم كنائس الديار المصرية
وفي العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة أمر الحاكم بهدم جميع الكنائس
بالديار المصرية فسأل جماعة من النصارى أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنوا
مساجد؛ فوهب الحاكم جميع الكنائس بجميع ما فيها من أواني الذهب والفضة وغيرها
من الحواصل والمآكل ومالها من رباع وأملاك لجماعة الصقالبة والفراشين والسعدية، ولم يرد
من سأله شيئاً منها، وكوتب كل متصرف في عمل من الأعمال بهدم ما في علمه من
الكنائس، فهدمت من جميع أعمال الديار المصرية.
وفي ثالث شعر رجب منها قرئ سجل بتحبيس ضياع ومواضع على الفقراء والفقهاء
والمؤذنين بالجوامع.
وفي رابع عشر جمادى الآخرة منها أمر الحاكم بعمل رصد بالقرافة، فنزل القاضي مالك بن
سعد واشرف على الرصد وابتدأ بعمله ولم يتم.
البيعة بولاية العهد لأبي القاسم عبد الرحيم
وفي ثالث شهر ربيع الأول، سنة أربع وأربعمائة عهد الحاكم بولاية العهد بعده لابن عمه أبي
القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي فبويع بولاية العهد، وكتب اسمه على

السكة، ودعي له في المنابر،
وفيها منع الحاكم النساء من الخروج مطلقاً لا ليلاً ولا نهاراً، ومن دخول الحمامات، وطلوع الأسطحة، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن، وشدد في ذلك، فشكى إليه التجار من ذلك، فأمرهم أن يحملوا ما يبيعونه في الأسواق ويطوفوا به في الدروب ويبيعوا النساء، وأن يكون للمرأة شيء مثل المغرفة بساعد طويل تتناول ما تبتاعه من الرجل، ثم أمر بإطلاق العجائز والإماء في يوم الخميس تاسع شهر رمضان منها، فخرج بعض النساء إلى القصر داعيات للحاكم، فعلم بهن فأعاد المنع والتشدد في يومه، ولم يسمح إلا للنساء المتظلمات للشرع، والخارجات للحج، والإماء للبيع، والأرامل، وغواسل الأموات، والأرامل اللواتي يبعن الغزل.

إحراق مصر وقتال أهلها

كان سبب ذلك أن الحاكم ركب في ذي القعدة سنة عشر وأربعمائة، فوجد امرأة متردية عممت من قراطيس، وفي يديها ورقة فيها سب للحاكم وأسلافه وذكره بقبيح الأفعال، فلما وقف عليها أمر بنهب مصر وحرق بعض دورها، وفرق السلاح على السودان والعبيد، فتبادورا على إليها وفعلوا ما أمرهم به، فقام أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام، ثم أرسلوا إلى الحاكم يستقيلون فلم يقلهم، فعادوا القتال، وأحرق من مصر جانب جيد، فلما رأى الحاكم أن الأمر يؤول إلى التلاف كف عنهم بعد أن تلف من العقار ما تحصى قيمته، وسير عياداً الصقلبي إليها في جماعة من الجند لتسكين الفتنة، فشاهد أمراً عظيماً، فعاد إلى الحاكم وذكر له قبح النازلة وعظيم الفادحة وقال: لو أن بسيل ملك الروم دخل مر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفعل، فغضب الحاكم من كلامه وأمر بقتله، فقتل.

وفي سنة عشر وأربعمائة أمر الحاكم وولي العهد، عبد الرحمن بن إلياس بالخروج إلى دمشق والياً عليها، ثم عزله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي شهر رجب 58 منها اشتد غضب الحاكم على أهل مصر فأحرق الساحل، ووقع النهب في الأسواق والقياسر.

وسنذكر إن شاء الله السبب الذي أوجب خروج الحاكم على أهل مصر إلى أن فعل بهم
ما فعل.
غيبة الحاكم بأمر الله
وعدمه والسبب الذي نقل في إعدامه، وشيء من أخباره
وسيرته غير ما تقدم
قال المؤرخ: لما كان في آخر ليلة الاثنين السابع العشرين من شوال سنة إحدى عشرة
وأربعمائة، ركب الحاكم حماره وخرج على جاري عادته، فأصبح عند قبر الفقاعي بقرافة
مصر ورد من كان معه، ففقد من ذلك الوقت، ولم يزل الناس يخرجون ويلتمسون رجوعه إلى
يوم الخميس سلخ الشهر، ثم خرج مظفر حامل المظلة في يوم الأحد الثالث من ذي القعدة
ومعه جماعة من الأمراء والكتاميين إلى حلوان، وأمعنوا بالكشف، فبينما هم كذلك إذ
بصروا بالحمار الذي كان الحاكم قد خرج عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه
بالسيف فأثر فيهما، فتتبع الأثر فإذا أثر الحاكم وأثر آخر خلفه وآخر أمامه، فقصوه حتى
انتهوا إلى بركة القصب شرقي حلوان، فأنزلوا رجلاً من الرجالة فوجد ثياب الحاكم في
البركة، وهي سبع جباب مزررة لم بحل أزرارها، وفيها أثر السكاكين فعادوا إلى القصر ولم
يشكوا بقتله.
وأما السبب الذي نقل في إعدامه فقالوا: أن السبب في ذلك أن ست لملك أخت الحاكم
وقع بينها وبينه، فتنكر لها وهم بقتلها، وكرهت بعض أموراً صدرت منه منها أنه رأى
بعض قهارمتها داخلة إلى القصر، فقال لها: قد سمعت أنكم تجمعون الجموع وتدخل إليكم
الرجال، والله لأقتلنكم أجمعين. وتكرر هذا القول منه فأعملت ست الملك الحيلة في
إعدامه، وخرجت ليلاً إلى دار الأمير سيف الدين حسن بن دواس، فدخلت عليه
واختلت به وعرفته بنفسها أنها ابنة العزيز أخت الحاكم، فعظمها، وبالغ في إكرامها، فقالت
له: إنك قد علمت ما فعل أخي وما صدر منه من سفك الدماء وقتل الأولياء ووجوه
الدولة بغير سبب، وقد عزم على قتلك وقتلي. فقال لها: فكيف الحيلة في أمره، فأشارت:

أن تجهز إليه رجالاً يقتلونه إذا خرج إلى حلوان فإنه ينفرد بنفسه هناك، ووعدته أن يكون
هو المدبر لدولة ولده والوزير لها، فاتفقا على ذلك وتحالفا عليه، ورجعت هي إلى قصرها.
فلما ركب الحاكم وانفرد عند وصوله المقطم على عادته، كان ابن دواس قد احضر عشرة
من العبيد، وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وحلفهم، وعرفهم كيف يقتلونه،
فسبقوه إلى الجبل في تلك الليلة؛ فلما انفرد خرجوا إليه وقتلوه بالمكان الذي ذكرناه، وخرج
الموكب لتلقيه على العادة، فطال انتظارهم له فلم يرجع، فعادوا؛ ثم خرجوا ثانياً وقصوا
الأثر، فوجد حماره وثيابه، كما ذكرناه، فعادوا إلى القصر وطلبوه من أخته ست الملك
وقالوا إن مولانا ما جرت عادته بهذا، فقالت لهم: إن رقعته قد وصلت إلينا أنه يأتي بكرة
الغد، فتفرقوا. فبعثت الأموال إلى وجوه الدولة والقواد على يد ابن دواس، وبقي الأمر
مستمراً والحال متماسكاً إلى عاشر ذي الحجة من السنة، فجرى بين العساكر وبين ست
الملك كلام كثير أوجب أنها أخرجت إليهم ولده أبا الحسن علياً في يوم الأضحى فبايعه
الناس، على ما نذكر إن شاء الله تعالى في أخباره، هذا ما حكي في سبب إعدامه.
وأما سيرته وأفعاله وأخباره فقد قدمنا منها على حكم السنين ما قدمناه، فلنذكر خلاق
ذلك.
قال المؤرخ: كان الحاكم سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال. كان في ابتداء أمره
يلبس الثياب الفاخرة والمذهبة، والعمائم المنظومة بالجوهر النفيس، ويركب السروج المحلاة،
ثم ترك ذلك على تدريج أن يتنقل منه إلى لباس المعلم غير المذهب، ثم لباس الساذج، ثم
زاد به الأمر حتى لبس الصوف والشواشي وركب الحمير، وأظهر الزهد، وكثر استطلاعه
على أخبار الناس، فلم يخف عليه خبر رجل ولا امرأة من حواشيه ورعيته وكان يأخذ
بيسير الذنوب، ولا يملك نفسه عند الغضب، أفنى خلقاً كثيراً، وأقام هيبة عظيمة، وكان
مع طغيانه المستمر وفتكه، وسفكه للدماء، وظلمه، يركب وحده تارة وفي الموكب أخرى،

وفي المدينة طوراً وفي البرية آونة، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه، وهو بينهم
كالأسد الضاري.
ثم عن له أن يدعي الإلهية، ويصرح بالحلول والتناسخ، ويحمل الناس عليه، وألزم الناس أن
يسجدوا له مدة إذا ذكر، فلم يذكر في محفل أو غيره إلا سجد من سمع بذكره، وقبل الأرض
إجلالاً له 59 ثم لم يرضه ذلك.
فلما كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمائة ظهر رجل يقال له حسن ابن حيدرة الفرغاني
الأخرم يرى حلول الإله في الحاكم ويدعو إلى ذلك، ويتكلم في إبطال النبوة، ويتأول جميع ما
وردت به الشريعة، فاستدعاه الحاكم وقد كثر تبعه ،وخلع عليه خلعاً سنية، وحمله على
فرس بسرجه ولجامه، وركبه في موكبه وذلك في ثاني شهر رمضان منها.
فبينما هو يسير في الموكب في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ وهو على جسر طريق
المقس فألقاه عن فرسه، ووالى الضرب عليه حتى قتله وارتج الموكب، وأمسك الكرخي
فأمر الحاكم بقتله، فقتل لوقته، ونهب الناس دار الأخرم في القاهرة. وكان بين الخلع عليه
وقتله ثمانية أيام، ثم ظهر رجل من دعاته في سنة عشر وأربعمائة يقال له حمزة اللباد،
أعجمي من الزوزن ، ولازم الجلوس في المسجد الذي عند سقاية ريدان خارج باب النصر،
وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم وأن الإله حل فيه، واجتمع الناس إليه جماعة من غلاة
الإسماعيلية، وتلقب بهادي المستجيبين. وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة خرج إليه
من المسجد وانفرد به وحادثه، وتمادى على ذلك فارتفع شأنه؛ وأتخذ لنفسه خواص لقبهم
بألقاب، منهم رجل لقبه بسفير القدرة وجعله رسولاً له، وكان يرسله لأخذ البيعة على
الرؤساء على اعتقاده في الحاكم، فلم يمكنهم مخالفته خوفاً على نفوسهم من بطشه.
ثم نبع شاب من مولدي الأتراك اسمه أنوشتكين النجاري، ويعرف بالدرزي، فسلك طريق
الزوزني وكثرت أتباعه، وكان الحاكم أيضاً يقف معه ويخلو به؛ وسمى نفسه سند الهادي
وحياة المستجيبين. واستمر الأمر على ذلك إلى الثاني عشر من صفر، سنة إحدى عشرة

وأربعمائة، فاجتمع جماعة من أصحاب حمزة الزوزني على خيول وبغال، ودخلوا الجامع
العتيق ركباناً وهم يعلنون بمذهبهم، وجاء ثلاثة منهم إلى الموضع الذي يجلس فيه قاضي
القضاة، والمتحاكمون جلوس ينتظرونه، فتكلموا بكلام أنكره الناس وضجوا بالتكبير والتهليل
والثناء على الله عز وجل، واجتمع أهل مصر بالجامع من كل جهة، ومضى بعض الناس
للقاء القاضي فلقوه وعرفوه ما جرى، فجاء إلى المجلس، فتقدم إليه أحد الثلاثة فناوله رقعة
الزوزني في أولها بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم يأمره فيها بالاعتراف بإلهية الحاكم، فلم
يجبه القاضي بشيء سوى أن قال حتى أدخل إلى حضرة مولانا فطاوله الكلام، فقتله العوام
وقتلوا رفيقيه والجماعة الذين بالجامع أبرح قتل، ووثب العوام على قوم كانوا يعرفونهم بهذا
المعتقد فقتلوا من وجدوه منهم وحرقوه.
فلما اتصل ذلك بالحاكم أمر بعزل صاحب الشرط وولى غيرهم، وأمرهم بطلب من
اعتدى على أصحاب الزوزني، فقبضوا على جماعة منهم يناهزون الأربعين، فقتلوا في
أوقات متعددة. واجتمع الأتراك وقصدوا دار الزوزني فغلقها عليه وعلى من عنده، وقاتلهم
من أعلاها، فهدموا ونهبوا ما فيها، وقتلوا نحو من الأربعين رجلاً ممن كان معه فيها، وفر
الزوزني فلم يقدر عليه، ودخل إلى القصر، فأخفاه الحاكم فيه، فاجتمع الأتراك ولبسوا
سلاحهم وطلبوه من الحاكم، فوعدهم بتسليمه لهم، فانصرفوا، ثم ركبوا في اليوم الثاني
وطلبوه منه، فخرج جوابه لهم أنه قتل، فرجعوا إلى ريدان في طلب الزوزني فلم يجدوه،
وأظهر الحاكم الغضب على كافة الجند طول شهر ربيع الأول، ثم رضي عنهم في الرابع من
شعر ربيع الآخر.
وتحقق الحاكم أن أول من جرأ عليه العسكر وحملهم على قتل دعاته أهل مصر، فأمهلهم
حتى دخل جمادى الآخر، ثم ابتدأ في التدبير عليهم.
فأول ما عمل أن سلط عليهم الرجالة ومقدمي السودان وغيرهم، وقرر معهم أن ينزلوا إلى
مصر على هيئة المناسر، فيكسبون الحمامات ومنازل أهل مصر، فكانوا يفعلون ذلك

نهاراً. وتكرر ذلك منهم، فاجتمع الناس ووقفوا للحاكم وسألوه أين يكف عنهم أيديهم، فما
أجابهم بجواب فتزايد بهم الضرر إلى أن بقيت الرجالة تكبس مساكنهم ويأخذون ما فيها،
ويعرونهم في الطرقات، ويفتحون دكاكين البزازين وغيرهم، وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها
بعد ذلك، والناس يستغيثون فلا يغاثون، ثم نزل بعد ذلك جمع كثير من بعد أن غلقت
الدروب، وكانت بقيت تغلق من النحاسين والأبزاريين والسكريين ودار الشمع، وغير ذلك مما
تقرب من هذه الأسواق، وأخذوا ما أرادوا منها، وأفسدوا بقية ما فيها، فكانوا يخلطون
العقاقير والأصناف بعضها ببعض، والمياه المختلفة بالزيت، ويفسدون ما لا يمكنهم حمله،
وطرحوا النار في أبواب القياسر المجاورة للجامع بعد ذلك، فأخذ الناس في الانتقال إلى
القاهرة، وضجوا بالابتهال إلى الله تعالى في كشف ما بهم من البلاء.
قال: وكان الحاكم قبل ذلك قد ضيق على النصارى واليهود كما 60 قدمناه، وأمرهم
بالتظاهر بالإسلام، فأسلم بعضهم وهرب بعضهم إلى بلاد الروم، وهدم جميع الكنائس، فلما
كان في شهر جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، أذن لهم بالرجوع إلى دينهم،
فارتدوا، وأذن لهم ببناء الكنائس فأعادوها، فاشتد غضب العسكر وحنقهم، فاجتمع
الأتراك والكتاميون وتحالفوا على قتل الرجالة الذين فعلوا بالمصريين ما فعلوا، فوقع اقتتال
بينهم، فقتل الرجالة أبرح قتل، ورأى أهل مصر فيهم وفي حرمهم ومنازلهم ما أسلاهم، عما
جرى عليهم.
وتمادى الحال على ذلك والحرب قائمة بينهما، والحاكم على حاله في ركوبه وهيبته، فإذا
بلغه ركوبهم للحرب تركهم تارة وجاء أخرى، فإذا رأوه تفرقوا لهيبته. ولم يزل الأمر على
ذلك إلى أن فقد الحاكم في التاريخ الذي ذكرناه.
مولد الحاكم ومدة عمره وملكه وأولاده وكتابه ووسائطه وقضاته ونقش خاتمه
كان مولده بالقاهرة في يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وسبعين
وثلاثمائة، فكانت مدة عمره ستاً وثلاثين سنة وستة أشهر ويومين، ومدة ولايته خمساً

وعشرين سنة وشهر واحداً إلا ثلاثة أيام إلى يوم ركوبه الذي عدم فيه.
أولاده: أبو الحسن علي، وهو الظاهر أبو الأشبال الحارث، مات في حياته لعشر بقين من
ربيع الآخر سنة أربعمائة
كتابه ووسائطه: أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار، ثم الأستاذ برجوان الخصي إلى أن
قتل، ثم استقل الحاكم بالأمر وولي من ذكرناهم وغيرهم. وكتب له أبو العلاء فهد بن
إبراهيم النصراني.
قضاته: أبو عبيد الله محمد بن النعمان إلى أن توفي في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وأقام
الناس بغير قاض تسعة عشر يوماً؛ ثم ولي أبا عبد الله الحسن ابن علي بن النعمان إلى أن
صرفه في شهر رمضان سنة أربع وتسعين؛ وولي أبا القاسم عبد العزيز ين محمد بن النعمان
ثم صرفه، في شهر رجب سنة ثمان وتسعين، وولي مالك، بن سعيد إلى أن قتله في سنة
خمس وأربعمائة، لأربع بقين من شهر ربيع الآخر، وأقام الناس بغير قاض إلى أن ولي أبا
العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام في يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت
من جمادي الآخرة منها إلى آخر وقت.
نقش خاتمه: بنصر العلي الولي ينتصر الإمام أبوعلي.
بيعة الظاهر لإعزاز دين الله
هو أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي بن الحاكم، وهو السابع من ملوك الدولة العبيدية،
بويع له بعد أن تحقق الناس عدم الحاكم بأمر الله في يوم الأضحى من سنة إحدى عشرة
وأربعمائة، وأقام الناس منذ فقد الحاكم في سابع عشر شوال منها إلى هذا التاريخ بغير
خليفة، وست الملك، ابنة العزيز وأخت الحاكم، تدبر أمور الدولة، وتسكن الجيوش، وتفرق
الأموال على يد الأمير سيف بن دواس، ثم جرى بينها وبين العساكر كلام كثير أوجب أنها
أخرجت إليهم أبا هاشم هذا وقت الظهر من يوم الأضحى، فبايعه الناس وازدحموا عليه،
فركب تحت الأرض في السرداب إلى قصر الذهب، وخرج من بابه إلى العيد، فأجلسته
وقالت: هذا خليفتكم، فلما رآه ابن دواس قبل الأرض وسلم عليه بالخلافة، فبايعه الأمراء
والأجناد، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله.

وكتبت الكتب لسائر الأعمال بأخذ البيعة، وجمعت ست الملك الأجناد وأحسنت إليهم،
ورتبت الأمور أحسن ترتيب، وعدلت عن ولي العهد إلياس بن داود بن المهدي وجئ وبايع
والسيف على رأسه، وحبس، وكان آخر العهد به، وكان يشار إلى الخلافة إلى عبد
الرحيم بن إلياس ابن أحمد بن المهدي، فأدخل عليه الشهود وهو يتشحط في دمه
فأشهدهم أنه فعل ذلك بنفسه. ثم قضى نحبه وقام ابن دواس بتدبير أمور الدولة هو العزيز
عمار بن محمد، وكانا لا يصدران إلا عن رأي ست الملك عمة الظاهر.
مقتل الحسين بن دواس
قال: لما استقر أمر الظاهر لإعزاز دين الله وسكنت الأحوال خرج من القصر خصي
وبيده سيف مجرد، واستدعى وجوه الدولة، والوزير في دسته والحسين بن دواس إلى
جانبه. فقال الخصي أمر مولانا أن يقتل بهذا السيف قاتل مولانا الحاكم، فنادوا بالسمع
والطاعة فصبه على ابن دواس فقتله، ولم يختلف اثنان.
وقيل إنه لما قتل في شهر رجب سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، والله أعلم
وباشرت السيدة ست الملك للأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس.
وفي ثالث عشر ذي الحجة من السنة، في اليوم الرابع من بيعة الظاهر، قرئ لأصحاب
الأخبار أنهم لا يعرفون مالا فائدة فيه مما كان ينهى إلى الحاكم.
وفي يوم الاثنين سابع يوم الحجة منها ركب القاضي عبد العزيز بن النعمان ومعه جماعة
توجهوا نحو الجبل لافتقاد الحاكم وعادوا.
وفي يوم الخميس لعشرين منه أقيمت المآتم في القصر وسمع الصراخ واتصل بالليل، وأصبح
الناس على وجل، وأغلقت أبواب القاهرة.
وفي المحرم سنة اثنتي عشرة وأربعمائة سومح بمكس الفقاع، وكان مبلغه في الشهر سبعمائة
دينار.
وفي حادي عشر ذي القعدة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، توفيت ست الملك ابنة العزيز؛
وكان مولدها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببلاد المغرب، وكانت من الدهاة.

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة ظهر ببلاد الفيوم بركة ينصب إليها الماء، فاستخرج منها
سمك بلطي، ومقدارها أربعة آلاف فدان.
وفي شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر بإقامة الدعوة الظاهرية
بالموصل والبصرة والكوفة وأعمال المشرق.
وفيها وردت الأخبار أن سنان بن صمصام الدولة وصالح بن مرداس جمعا العساكر
وحشدا العربان لحصار دمشق، وأنهم حاصروها وقطعوا أشجارها وقتلوا فلاحي الضياع
وتقرر الحال أن يقاتل العوام يوماً وعسكر السلطان يوماً؛ واتصلت الحرب بينهم وقتل جمع
عظيم، وحاصر صالح بن مرداس حلب؛ واضطربت أحوال الشام بأسره، وتغلبت الحرب
عليه، وطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار ويرتحل عنهم، فأجابه أهل البلد
لذلك، فمنعهم الشريف ابن الحسن وأشار بنفقتها في عياري البلد، فأنفقوها وقاتلوا قتالاً
شديداً، فقتل من العرب جمع كثير. وطلب العرب الصلح فأجيبوا إليه، ثم عادوا إليها في
الوقت برأي ابن الجراح.
ووصل الخبر من جهة بني قرة، عرب البحيرة، أنهم أقاموا عليهم إنساناً ببرقة ولقبوه بأمير
المؤمنين.
وفي الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع من العبيد ألف
عبد عند سفح المقطم وقصدوا نهب مصر، فأركب الظاهر لإعزاز دين الله من حفظها،
وأمر أهل مصر بقتل من ظفروا به منهم، ونهبوا في اليوم الثاني أطراف مصر، فقاتلهم الناس
فانهزموا.
وفي سنة سبع عشرة وأربعمائة جرد الظاهر أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري من مصر
بعساكر كثيرة لدفع العرب عن الشام، وخرج الظاهر لتوديعه. وسار في سبعة آلاف فارس
غير العرب، وعيد عيد الأضحى بالرملة، وجمع العساكر، فلما بلغ حسان بن مفرج
خروجه بعث إلى صالح بن مرداس فأتاه من حلب في بني كلاب، ووقعت الحرب بينهم
بالأقحوانية من عمل طبرية يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة عشرين

وأربعمائة. فطعن صالح بن مرداس، فسقط عن فرسه، فقتل، فحمل رأسه إلى أمير
الجيوش. فعندها انهزم حسان، وقتل من أصحابهم مقتلة عظيمة، وهرب أصحاب صالح
إلى بعلبك وحمص وصيداً وحصن عكار. واستولى نصر بن صالح وأخوه ثمال على حلب
وأعمالها وبالس ومنبج وسار الدزبري حتى أتى دمشق، ثم إلى حلبن فظفر بشبل الدولة
نصر بن صالح فقتله، ثم عاد إلى دمشق فأقام بها وعلت منزلته.
وفاة الظاهر لإعزاز دين الله على ابن الحاكم بأمر الله وشيء من أخباره
كانت وفاته في ليلة الأحد النصف من شعبان المكرم من شهور سنة سبع وعشرين
وأربعمائة ببستان الدكة بالمقس، فركب الوزير صفي الدين أبو القاسم علي الجرجرائي إلى
البستان، وحمل الظاهر منه إلى القصر.
وكان مولد الظاهر في يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان المعظم سنة خمس وتسعين
وثلاثمائة. وكانت مدة عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشراً شهراً وخمسة أيام، ومدة
ملكه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وكان أجمل الناس صورة. وتولى غسله
قاضي القضاة عبد الحكيم، ومعه ظاهر عبد الخالق بن أحمد المهدي شيخ القرافة، وصلى
عليه قاضي القضاة وأخذه سبله، قال واستمرت النوائح تنحن عليه مدة شهر.
وكان كريماً مشتغلاً 62 بملذاته معولاً على وزيره.
ولده أبو تميم معد المستنصر بالله، وهو الذي ولي الأمر من بعده على ما نذكره.
وزراءه ووسائطه: أبو الحسين عمار بن محمد، أحد وسائط أبيه الحاكم بأمر الله، إلى أن
زال أمره في ذي القعدة سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، ثم قتل؛ وتولى الوساطة أبو الفتوح
موسى بن الحسن، وذلك في المحرم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، إلى أن قبض عليه في
العشرين من شوال وقيل صبيحته؛ وتولى الوزارة عميد الدولة أبو محمد الحسن بن صالح
الروزباري، أحد وسائط الحاكم بأمر الله، ثم عزل في سنة ثماني عشرة وأربعمائة بالوزير
القاسم علي بن أحمد الجرجرائي إلى آخر المدة، ولقب بالوزير الأجل والأوحد صفي الدين؛

وكان أقطع اليدين، وتمكن من الظاهر تمكناً عظيماً، حكى من تمكنه أنه كان بينه وبين
خليل الدولة بن العداس عدواه، فاتفق أن خليل الدولة سأل الظاهر لإعزاز دين الله أن
يشرفه بزيارته ببركة الحبش فأجابه الظاهر إلى ذلك وحضر عنده، فاغتنم ابن العداس
الفرصة وجعل يذكر للظاهر مثالب الوزير. فسد عليه الظاهر مسامعه وقال لابن العداس:
أني وإن رعيت حق تشريفي إياك بزيارتي فما أترك حق من أرتضيه لوزارتي، ولا بد أذكر
له طرفاً من ذلك، فاذكر خيراً لأحكيه له. فرجع عن ذكر مثالبه وأثنى عليه، فذكر الظاهر
للوزير عنه خيراً، فكان ذلك سبب الصلح بينهما، وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار الوزير
الجرجرائي مستوفاة عند ذكر وفاته في سنة ست وثلاثين في أخبار المستنصر.
بيعة المستنصر بالله
هو أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي
المنصور، بن العزيز بالله أبي المنصور نزار، بن المعز لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور
بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله.
وهو الثامن من ملوك الدولة العبيدية وهو الخامس من ملوك مصر والشام منهم.
بويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثني عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة سبع وعشرين
وأربعمائة، وذلك أن الوزير الجرجرائي أحضر وجوه القبائل من الكتاميين، وغيرهم من
الأتراك، فلما اجتمعوا قال لهم: مولانا ضعيف والآجال بيد الله سبحانه، فإن قضي الله
بانتقاله ما تقولون في ولده الأمير معد؟ قالوا: الذي يقوله الوزير نحن راضون به، وله
سامعون. فلما رتب هذا الأمر استدعى الوزير، فنهض قائماً ودخل إلى قاعة من قاعات
القصر، ثم أحضر الجماعة، فوجدوا الأمير معد على سرير الملك وعليه التاج، فقال: هذا
مولاكم، سلموا عليه بالخلافة، فسلموا عليه وانصرفوا، ولقب بالمستنصر بالله، وكان عمره
إذ ذاك سبع سنين.
فلما كان في صبيحة يوم مبايعته، وهو يوم الخميس، وقف الكتاميون وعبيد الشراء

وغيرهم بباب القصر، وأغلظوا في الكلام وطلبوا أرزاقهم واستحقاقهم من الوزير، فقال: أنا
كنت وزير الظاهر لإعزاز دين الله وقد توفي، وأنا أحمل إليكم جميع ما في داري، وأصبح
حمل جميع ما في داره إلى القصر، فغضب الأتراك له، وأعادوا ما أحضره إلى مكانه. وتقرر
اجتماعه يوم السبت، فاجتمع الأتراك والديلم وعليهم السلاح، وجاء الكتاميون، فلما
اجتمعوا بباب القصر خرج إليهم أحد الخدم وقال: ليدخل من كل طائفة عشرة أنفس،
فدخل جماعة، فقال لهم الوزير: مولانا يقرئكم السلام ويقول لكم: إذا كان مستهل شهر
رمضان أمر بالنفقة فيكم، فانصرفوا، وجلس قاضي القضاة عبد الحاكم يحلف الناس
للمستنصر بالله، فلما استهل شهر رمضان انفق في الأشراف والكتاميين والعرب والديلم
وغيرهم لكل واحد منهم ثلث رزقه، فلم يرضوا بذلك.
ودامت النفقة إلى العشر الأوسط من شوال فتحالف الكتاميون والأتراك أن يكونوا عصبة
واحدة في طلب واجباتهم. واجتمعوا بباب القصر، فخرج إليهم الأمير أن احضروا بكرة
الغد، فحضروا، وركب المستنصر إلى أن بلغ باب البحر، فرموه بالحجارة وصاحوا عليه،
ورماه أحد العبيد بحربة فلم يصبه، فرمى بنفسه عن دابته ودخل باب البحر إلى القصر،
وانصرف الناس، وعادوا بكرة نهار الغد، فدخل من كل طائفة مائة نفر، ووقع كلام كثير،
وتقرر في آخر الأمر أن يحضروا 63 البغاة منهم، وخرجوا على مثل ذلك، ثم عادوا بعد
ذلك وتنصلوا من ذنوبهم. وسكن الوزير جميع الطوائف، واختلف بنو قرة مع كتامة بالجيزة،
فأخرج الوزير عسكراً فأصلح بينهم واستقرت الأمور.
وركب المستنصر في مستهل المحرم سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من باب العيد إلى باب
الذهب؛ ومشى الناس كافة بين يديه والوزير راكب خلفه، ودخل الوزير إلى مكانه، فدخل
عليه جماعة من الأتراك الصغار وطلبوا أرزاقهم وأغلظوا له في القول، وقصدوا قتله؛ فدخل
بعض الأمراء الكبار فخلصه منهم.
عود حلب إلى ملك الديار المصرية
وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة ملكت حلب على يد أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري

أمير الشام، وذلك بعد أن التقى هو ونصر بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، يوم الجمعة
لسبع بقين من جمادى الآخرة فانهزم عسكر ابن صالح. ثم كانت وقعة ثانية فانهزم ثمال بن
صالح وأخوه نصر، فبادر ثمال بدخول البلد، وأخذ من قلعة حلب أموالاً وتحفاً،
واستخلف بها عمه مقلد بن كامل بن مرداس، وسار يستنجد بأخواله بني خفاجة، فثار
العوام ونهبوا حلب. ووافى طغان، أحد الأمراء الذين مع أمير الجيوش، فدخل حلب
بموافقة أهلها، ثم وصل أنوشتكين الدزبري إليها في يوم الثلاثاء لثمان خلون من شهر
رمضان، وأقام بها إلى أخر السنة، ورجع إلى دمشق في تاسع عشري الحجة منها.
الوحشة الواقعة بين أبي القاسم الجرجرائي وأمير الجيوش أنوشتكين الدزبري
قال المؤرخ: كان ابتداء الوحشة بينهما في سنة ثلاثين وأربعمائة، وسبب ذلك أن شبيب
بن وثاب النميري صاحب الجزيرة توفي، فقصد أمير الجيوش أنوشتكين أن يزوج ابنته لولد
أحمد بن مروان ليكون له عوناً على بني نمير أصحاب الجزيرة، وكتب أمير الجيوش إلى مصر
يستدعي ابنته، فلم يطلقها الوزير ولا رأى إتمام الزواج لانضمام ابن مروان إلى الدولة
العباسية وتظاهره بموالاتها، وكتب لولاة الشام إلا يمتثلوا أمر أمير الجيوش. فوقعت الوحشة
بينهما، وأطلق أمير الجيوش لسانه في الوزير، وسبه.
ودامت الوحشة إلى سنة ثلاث و ثلاثين وأربعمائة، فصرفه الوزير عن دمشق، واستعمل
عليها ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان، فلما علم بذلك أهل دمشق تنكروا على
أميرهم، وحاصروه بقصره ظاهر دمشق، في سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث
وثلاثين، فهرب إلى حلب، وقاسى مشقة عظيمة في طريقه، ونهبت أمواله، فلما دخل حلب
أقام بها ثلاثة أيام ومرض فتوفي يوم الأحد النصف من جمادى الأولى، ووصل سجل ثمال بن
صالح بن مرداس بولاية حلب، وذلك قبل وفاة أنوشتكين أمير الجيوش.
شبيه الحاكم بأمر الله وقتله
وفي شهر رجب سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقاهرة رجل يسمى سكين يشبه الحاكم

وكان بمصر أقوام يعتقدون أن الحاكم حي وأنه غاب لرأي رآه، وهذه الطائفة باقية إلى وقتنا
هذا، ويحلفون فيما بينهم فيقولون: وحق غيبة الحاكم، إلا أنهم لا يتظاهرون بذلك لكل
واحد. قال: فلما كان في هذه السنة ظهر هذا الرجل، فاجتمع عليه القائلون بغيبة الحاكم
وزفوه إلى القصر، وأدخلوه إياه، وقد دهش الناس، فأدى الأمر إلى أن حاربهم أولياء
الدولة، وركب الوزير، فأخذوا جميعاً وصلبوا أحياء ورشقوا بالسهام حتى هلكوا.
وفاة الوزير صفي الدين أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي وشيء من أخباره
كانت وفاته لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست وثلاثين وأربعمائة، 64 وأوصى أن
يدفن في داره في المكان الذي كان يجلس فيه، فأخرج وصلى المستنصر عليه في الإيوان،
وأعيد إلى داره فدفن بها، ثم نقل إلى تربته في القرافة.
وكانت وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً وهذه النسبة إلى جرجرايا، قرية من قرى العراق.
قدم إلى مصر هو وأخوه أبو عبد الله محمد، فتنقلت به الحال إلى أن خدم في الصعيد،
فكثرت المرافعات في أيام الحاكم، فاعتقله في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة، ثم أمر
بقطع يده، فأخرج اليسار عوضاً عن اليمين، فقطعت، فقيل للحاكم فقال: إنما أنا أمرت بقطع
يمينه؛ وأمر بقطع اليمين، فقطعت على باب القصر المعروف بباب البحر، وهو الباب الذي
مقابل دار الحديث الكاملية في وقتنا هذا. وكان قطعهما في ثامن عشر شهر ربيع الآخر
منها.
قال: ولما قطع الحاكم يديه مضى من وقته وجلس في ديوانه، فقيل له في ذلك، فقال: إن أمير
المؤمنين أدبني وما صرفني. فبلغ الحاكم ذلك، فأمر باستمراره، ثم صرفه وولاه ديوان
النفقات في سنة ست وأربعمائة، ثم رتب أن يكون واسطة في نظر الدواوين مع أبي عبيد
الله محمد بن العداس، في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، ثم وزر للظاهر لإعزاز دين الله في
سنة ثماني عشرة وأربعمائة، فاستكتب أبا الفرج البابلي وأبا علي الرئيس. وكان القاضي
أبو عبد الله القضاعي صاحب كتاب الشهاب يكتب عنه العلامة وهي الحمد لله شكراً

لنعمه، وكانت أيامه تسمى الأعراس لطيبها، وضبط الأمور أحسن ضبط واستعمل الأمانة
التامة، وتمكن في الدولة الظاهرية، على ما قدمناه.
قال: وهجاه جماعة من الشعراء. فمن ذلك قول أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجلبي
المعروف بالفكيك ويعرف بجاسوس الفلك:
يا جرجرائي اتئد وارفق ودع عنك التحامق
أزعمت أنك الثقا ة فهبك فيما قلت صادق
أعلى الأمانة والتقى قطعت يداك من المرافق!
قال: ولما مات أوصى أن تفوض الوزارة بعده لأبي نصر صدقة بن أبي الفضل يوسف ابن
علي الفلاحي، فخلع عليه خلع الوزارة، وكان يهودياً، ولقب بالوزير الأجل تاج الرئاسة فخر
الملك مصطفى أمير المؤمنين، ثم أسلم بعد الوزارة.
مقتل أبي سعيد التستري
وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرائي
وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة قتل أبو سعيد التستري اليهودي، وكان يتولى ديوان والدة
المستنصر. وذلك أنها كانت جاريته، فأخذها الظاهر منه واستولدها فولت المستنصر
بالله. فلما أفضت الخلافة إلى ولدها فوضت إليه أمر ديوانها، فعظم أمره وانبسطت كلمته
بعد وفاة الجرجرائي الوزير حتى لم يبق للوزير الفلاحي معه إلا اسم الوزارة، فدبر الفلاحي
في قتله فقتل.
وقيل بل كان السبب في قتله أن عزيز الدولة ريحان الخادم كان قد خرج في هذه السنة إلى
بني قرة، عرب البحيرة، لما افسدوا في البلاد، فظفر بهم وقتل منهم، وعاد إلى القاهرة وقد
عظم قدره وزاد إدلاله فثقل أمره على أبي سعيد.
واستمال المغاربة وزاد في أرزاقهم ونقص من أرزاق الأتراك ومن ينضاف إليهم، فجرى بين
الطائفتين حرب بباب زويلة.
ومرض إثر ذلك عزيز الدولة ومات فاتهم سعيد أنه سمه، فلما كان في يوم الأحد لثلاث
خلون من جمادى الأولى ركب أبو سعيد من داره في موكب عظيم وتوجه إلى القصر على
عادته، فاعترضه ثلاثة الغلمان الأتراك واختلطوا بالموكب وقتلوه، فاجتمعت الطوائف إلى
المستنصر بالله وقالوا: نحن قتلناه، وقطع لحمه، فاشترى أهله ما وصلوا إليه من أعضائه،

وأحرق ما بقي، وضم أهله ما اشتروه منه في تابوت وغطوه بستر، وأوقدوا أمام التابوت
الشموع ووضعوه في بيت مفرد، وزروا البيت بالستور، فوصل لهب النار إلى بعض الستور
فاحترق، وقويت النار فأحرقت التابوت بما فيه.
قال: وكان التستري قد زاد أذاه في حق المسلمين حتى كانوا يحلفون: وحق النعمة على
بني إسرائيل.
ولما قتل ولي مكانه في نظر ديوان والدة المستنصر بالله أبو محمد الحسن بن علي بن عبد
الرحمن اليازوري.
وحقدت والدة المستنصر بالله 65 على الوزير الفلاحي وتحققت أنه تسبب في قتله
فقبضت عليه وصرفته عن الوزارة هذه السنة، واعتقلته بخزانة البنود، ثم قتل بعد ذلك أبو
منصور صدقه ودفن في خزانة البنود، وذلك سنة أربعين وأربعمائة.
ووالد هذه الوزير هو أبو الفضل يوسف بن علي الذي هجاه الواساني بقصيدته المشهورة
التي أولها:
يا أهل جيرون هل لسامركم إذا استقلت كواكب الحمل
وقد أوردنا أكثر هذه القصيدة في الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الثاني.
ولما قبض عليه ولي الوزارة أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائي، ابن أخي
الوزير صفي الدين.
وفي سنة أربعين وأربعمائة صرف ناصر الدولة الحسن بن حمدان عن ولاية دمشق وأحضر
تحت الحوطة وولي مكانه القائد طارق، ثم أطلق ابن حمدان في سنة إحدى وأربعين.
وفي سنة إحدى وأربعين صرف أبو البركات الحسين بن الجرجرائي عن الوزارة ونفي إلى
صور واعتقل بها، ثم أطلق، فسار إلى دمشق. ونظر في الدواوين بعده عميد الدولة أبو
الفضل صاعد بن مسعود. ثم فوضت الوزارة لأبي محمد بن علي بن عبد الرحمن
اليازوري.
وفي سنة ثلاث وأربعين أظهر المعز بن باديس الصنهاجي، صاحب إفريقية، الخلاف على
المستنصر بالله، وقد ذكرنا سبب ذلك في أخبار ملوك إفريقية، وكتب المعز إلى بغداد،

فأجيب عن رسالته على لسان رسول من بغداد، يعرف بأبي غالب الشيرازي، وسير إليه
صحبته عهداً بالولاية ولواء أسود وخلعه فاجتاز أبو غالب ببلاد الروم فقبض عليه
صاحب القسطنطينية وبعثه إلى المستنصر بالله، فقدم الرسول إلى مصر وهو مجرس على
جمل، وحفر بين القصرين حفرة، وحرق فيها العهد والخلع واللواء.
وفيها في ذي القعدة عصى بنو قرة، عرب البحيرة، على المستنصر بالله، وكان سبب ذلك
إن الوزير اليازوري قدم عليهم رجل يقال له المقرب، فنفروا منه واستعفوا منه، فلم يجب
الوزير سؤالهم، ثم دخلوا على الوزير وطالبوه بواجبهم، واغلظوا له في القول، فتوعدهم
باستئصال شأفتهم، ففارقوه وأظهروا العصيان، واجتمعوا بالجيزة في جمع كثير، فندب الوزير
عسكراً لقتالهم فكسروه، فندب عسكراً ثانياً فهزمهم وقتل منهم قتلى كثيرة، وحمل إلى
الخزانة المستنصرية من أموالهم جملة عظيمة، فهربوا إلى برقة.
وفي سنة ثمان وأربعين بعث المستنصر بالله ووزيره اليازوري خزائن الأموال إلى أبي الحارث
أرسلان البساسيري ليقيم الدعوة المستنصرية في بغداد واستنفد ما كان بالقصر من
الأموال، وكان من أمر البساسيري وقيامه، والخطبة للمستنصر ببغداد سنة خمسين
وأربعمائة، ورد الخبر إلى مصر فزينت القاهرة.
وكان عند المستنصر مغنية تغني بالطبل، فدخلت عليه وغنته في ذلك اليوم:
يا بني العباس ردوا   ملك الأمر معد
ملككم ملك معار   والعواري تسترد
فقال لها: تمني. فقالت أتمنى الأرض المجاورة للمقسم، فقال: هي لك. فعرفت الأرض
بأرض الطبالة إلى وقتنا هذا.
مقتل الوزير الحسن بن علي
بن عبد الرحمن اليازوري وقتله وشيء من أخباره
وفي المحرم سنة خمسين وأربعمائة سعي بالوزير المذكور عند المستنصر بالله أنه كاتب
السلطان طغرلبك السلجوقي وحسن له قصد الديار المصرية، فقبض عليه وجهزه إلى
تينس، ثم أمر بقتله، فقتل في الثاني والعشرين من صفر منها، وكان من أكابر وزراء ملوك

هذه الدولة.
قال المؤرخ: كان والد اليازوري قاضي يازور، وهي قرية من أعمال الرملة، فلما توفي خلفه
ولده الحسين المذكور، ثم عزل عنها، فقدم إلى مصر وسعى في إعادته لحكم يازور، فرأى
من قاضي مصر إطراحاً لجانبه، فصحب رفق المستنصري- وكان خصيصاً بوالدة
المستنصر، فكلم القاضي في أن يسمع قوله بمصر ففعل، فلما قتل أبو سعيد التستري أشار
رفق على والدة المستنصر أن يكون اليازوري وزيرها، فرتبته في وزارتها، فخافه الوزير أبو
البركات الجرجرائي أن يلي الوزارة، فسعى له في الحكم ليشغله عن الوزارة، فامتنع اليازوري
من ذلك، فأشارت عليه والدة المستنصر بقبول الولاية فقبل، ولم تمض مدة يسيرة حتى
صرف ابن الجرجرائي عن الوزارة وفوضت الوزارة إلى اليازوري مضافة لما بيده من قضاء
القضاة وديوان والدة المستنصر بالله.
قال القاضي أبو الحسين أحمد الأسواني في تاريخه: حدَّثني القاضي إبراهيم بن مسلم
الفوي قال: شهدت خطير الملك، ولد اليازوري الوزير، وكان قد ناب عن والده في قضاء
القضاة والوزارة وغير ذلك، وسار إلى الشام بعساكر عظيمة فاصلح أمره. ورأيته بعد ذلك
بمسجد فوه وهو يخيط للناس بالأجرة وهو في حال شديدة من الفقر والحاجة، فرأيته ذات
يوم وهو يطالب رجل بأجرة خياطة خاطها له، والرجل يدفعه ويماطله، وهو يلح في الطلب،
فلما ألح عليه قال له الرجل: يا سيدنا اجعل هذه القدر اليسير من جملة ما ذهب منك في
السفرة الشامية، فقال: دع ذكر الماضي. فسألته عن ذلك فلم يحدثني بشيء، وسألت غيره
فقال: الذي ذهب منه في سفرته في نفقات سماطه ستة عشر ألف دينار.
قال المؤرخ: وكان اليازوري سيئ التدبير، أوجب سوء تدبيره خروج إفريقية وحلب عن
المستنصر بالله.
قال: ولما قبض على اليازوري ولي الوزارة بعده صاحبه أبو الفرج عبد الله بن محمد
البابلي، وكان خصيصاً به، فلما ولي الوزارة بعده سعى في قتل كل السعي، ويقال أنه جهز

إليه من قتله بغير أمر المستنصر، فلما اطلع على ذلك عظم عليه، وعزل البابلي في شهر
ربيع الأول منها، واستوزر أبا الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي الحسين المغربي، ثم
صرفه في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلي.
وفي سنة خمسين وأربعمائة استعمل ناصر الدولة بن حمدان على ولاية دمشق.
وفي سنة ثلاث وخمسين، في المحرم، صرف البابلي عن الوزارة ووليها عبد الله بن يحيى بن
المدبر، ثم صرف في بقية السنة وولي أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد
الفارقي في شهر رمضان من السنة، فقال أبو الحسن علي بن يسر الرحمن بن بشر الصقلبي
يخاطب ابن المدبر:
لا تجزعن عن الأمور إذا التوت وابشر بلطف مسبب الأسباب
ما كنت إلا السيف، جرد ماضياً وأقر مذخوراً ليوم ضراب
لله سيرتك التي ما سرتها إلا بقوم سنة وكتاب
شيدت للوزراء يا بن مدبر شرفاً لهم يبقى على الأعقاب
وجمعت بين طهارة الأعراق، وال خلاق، والأفعال، والأثواب
جعل الإله لكل قوم سادة وبنو المدبر سادة الكتاب
وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة في المحرم توفي الوزير أبو محمد عبد الكريم، فردت الوزارة
إلى أخيه أبي علي أحمد بن عبد الحاكم، وكان يلي قضاء القضاة؛ وصرف عن الحكم في
صفر، ثم صرف عن الوزارة، وقيل أنه صرف عنها بعد سبعة عشر يوماً من ولايته، وأعيد
للبابلي مرة ثالثة في شهر ربيع الأول من السنة، واستعفى بعد خمسة أشهر، فاستوزر
المستنصر بالله سديد الدولة أبا عبد الله الحسين بن علي الماسكي، وكان يلي نظر الدواوين
بدمشق، ثم صرف في شوال وأعيد البابلي.
فتنة خراب مصر
كان ابتداء هذه الفتنة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وسببها أن المستنصر بالله كان في
كل سنة يركب على النجب ومعه النساء والخمر إلى المكان المعروف بجب عميرة، وهو
موضع نزهة، ويذكر أنه خرج يريد الحج، على سبيل الاستهزاء والتهكم، ومعه الخمر في
الروايا بدلا من الماء، يسقيه للناس كما يسقي الماء في طريق مكة 76 ، شرفها الله، فلما
كان في هذه السنة خرج على عادته في جمادى الآخرة؛ فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفه

على سكر منه على بعض عبيد الشراء، فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه، فجاء
الأتراك للمستنصر وقالوا: إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة، وإن كان عن غير
رضاك فلا تصبر عليه،فأنكر المستنصر ذلك؛ فاجتمع جماعة من الأتراك وقتلوا جماعة من
العبيد، بعد قتال شديد على كوم شريك، وكانت والدة المستنصر تعين العبيد بالأموال
والسلاح، فاطلع بعض الأتراك على ذلك، فجمع طائفة كبيرة من الأتراك ودخل على
المستنصر بهم، وأغلظوا له بالكلام، فحلف إنه لم يكن عنده علم من ذلك، ودخل على
والدته وأنكر عليها، وصار السيف بين الطائفتين، ثم سعى أبو الفرج بن المغربي، الذي كان
يلي الوزارة، وجماعة معه، في الصلح بين الطائفتين، فاصطلحوا؛ ولم تصف طائفة منهم
للأخرى.
ثم اجتمع العبيد وخرجوا إلى شبرا دمنهور في جمع كثير.
وكان سبب كسرتهم إن والدة المستنصر لما قتل سيدها ووزيرها أبو سعيد التستري
غضبت لقتله، وشرعت في شراء العبيد السودان واستكثرت منهم، وجعلتهم طائفة لها،
فاشتد أمرهم إلى أن صار العبد منهم يحكم حكم الولاة. فلما ولي أبو البركات بن
الجرجرائي أمرته أن يغري العبيد بالأتراك، فخاف العاقبة فلم يفعل، فصرفته وولت وزيرها
اليازوري وأمرته بذلك، فلم يقبل منها، ودبر الأمر وساسه إلى أن قتل، ووزر البابلي فأمرته
بذلك، ففعل، ووقع بين الطائفتين.
قال: فلما خرج العبيد إلى شبرا دمنهور قويت شوكة الأتراك وطلبوا الزيادات في أرزاقهم
إلى أن خلت الخزائن من الأموال وضعفت الدولة، والعبيد على حال من الضرورة وهم
يتزايدون عدة، فتكامل منهم ما بين فارس وراجل خمسون ألفاً.
فبعثت والدة المستنصر لقواد العبيد، في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وأغرتهم بالأتراك؛
فاجتمعوا ووصلوا إلى الجيزة، فخرج الأتراك لقتالهم، والمقدم عليهم ناصر الدولة الحسن بن
حمدان، فلقيهم فكسره العبيد ونهبوا عسكره، واشتغلوا بالنهب، فعطف عليهم ابن
حمدان وهزمهم إلى الصعيد، وقد قويت شوكته.

ثم تجمع العبيد في الصعيد في خمسة عشر ألف فارس وراجل، فقلق الأتراك لذلك قلقاً
شديداً، وحضر المقدمون إلى المستنصر ليشكوا ذلك إليه، فأمرت والدته من عندها من
العبيد والخدم بالهجوم عليهم، وقتل الأتراك ففعلوا ذلك، وسمع ناصر الدولة ابن حمدان
بالخبر، فركب إلى ظاهر القاهرة واجتمع إليه من بقي من الأتراك ووقعت الحرب بينهم وبين
العبيد المقيمين بمصر والقاهرة، ودامت بين الفريقين أياماً، فانتصر ناصر الدولة والأتراك على
العبيد، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولم يبق منهم بالقاهرة ومصر إلا القليل.
وبقي العبيد المقيمون بالصعيد على حالهم، وكان بالإسكندرية منهم جماعة، فسار ناصر
الدولة إليهم، فسألوا الأمان، فأمنهم، ورتب بالإسكندرية من يثق به، وانقضت سنة تسع
وخمسين في حربهم.
وقويت شوكة الأتراك في سنة ستين وأربعمائة، وطمعوا بالمستنصر بالله، وقل ناموسه
عندهم، وكان مقررهم في كل شهر ثمانية وعشرين ألف دينار، فصار كل شهر أربعمائة ألف
دينار، وطالبوا المستنصر بالأموال، فاعتذر إنه لم يبق عنده شيء منها، فطالبوه بذخائره
فأخرجها إليهم، وقومت بأبخس الأثمان.
وخرج ناصر الدولة بن حمدان في جماعة من الأتراك إلى الصعيد لقتال من فيه من العبيد،
وكان قد كثر فسادهم، فالتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على ناصر الدولة والأتراك، فعادوا
إلى الجيزة، فاجتمع على ناصر الدولة من سلم من عسكره، وشغبوا على المستنصر بالله،
واتهموه أنه يمد العبيد بالنفقات سراً، فحلف لهم على ذلك.
ثم خرج الأتراك إلى العبيد وقاتلوهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل.
وزالت دولة العبيد، وعظم أمر ناصر الدولة بن حمدان.
ناصر الدولة والأتراك
وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة ابتدأت الوحشة بين ناصر الدولة بن حمدان وبين
الأتراك. وسبب ذلك أن ناصر الدولة قوي واشتدت شوكته، وانفرد بالأمر دون قواد
الأتراك، فعظم ذلك عليهم وفسدت نياتهم 68 وشكوا ذلك إلى الوزير الخطير، وقالوا: كلما

خرج من الخزانة مال أخذ ناصر الدولة أكثره وفرقه في حاشيته، ولايصل إلينا منه إلا
القليل. فقال: ما وصل هذا الأمر وغيره إلا بكم، ولو فارقتموه لم يتم له أمر، فاتفق أمرهم
على محاربته وإخراجه من الديار المصرية، فاجتمعوا وذكروا ذلك للمستنصر، وسألوه أن
يخرجه عنهم، فأرسل إليه يأمره بالخروج ويتهدده إن لم يفعل، ففارق ناصر الدولة القاهرة
وغدا إلى الجيزة، ونهبت دوره ودور حواشيه وأصحابه.
فما جاء الليل دخل ناصر الدولة، واجتمع بالقائد تاج الملوك شادي، وقبل رجليه، وسأله
أن يعينه على ألدكز والوزير الخطير، قال: وكيف الحيلة إلى ذلك؟ قال: تركب أنت
وأصحابك وتسير بين القصرين ، فإذا أمكنتك الفرصة فاقتلهما. فأجابه إلى ذلك.
وركب شادي من بكرة الغد للتسير فعلم أن إلدكز بمراده، فهرب إلى القصر واستجار
بالمستنصر فسلم، وأقبل الوزير في موكبه فقتله شادي، وسير إلى ناصر الدولة يأمره
بالحضور، فعدى من الجيزة إلى القاهرة، فأشار إلدكز على المستنصر بالركوب، قال: متى لم
تركب هلكت وهلكنا معك. فلبس سلاحه وركب، وتبعه خلق من عامة الناس والجند،
واصطفوا للقتال، فحملت الأتراك على ناصر الدولة فانهزم، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة،
ومضى لا يلوي على شيء وتبعه أصحابه فالتحق ببني سنبس بالبحيرة فأقام عندهم
وصاهرهم، وتقوى بهم.
ولما تحقق ناصر الدولة ميل المستنصر عنه قصد إبطال دعوته، وكتب إلى السلطان ألب
أرسلان السلجوقي ملك خراسان والعراق يسأله أن يسير إليه عسكراً يفتح له مصر ويقيم
الدعوة العباسية بها، فتجهز ألب أرسلان من خراسان بعساكره، وكتب إلى صاحب حلب
يأمره بقطع دعوة المستنصر وإقامة الدعوى العباسية، ففعل ذلك، وانقطعت دعوة المستنصر
من حلب؛ ثم ملكها ألب أرسلان، كما ذكرناه في أخبار الدولة السلجوقية، ثم ملكت
عساكره دمشق.

الحرب بين ناصر الدولة والأتراك

قال: ولما اتصل بالمستنصر ما فعله ناصر الدولة من مكاتبة ألب أرسلان جرد عسكراً

لقتاله من الأتراك، فساروا ثلاث فرق، فأراد أحد المقدمين أن يلقاه ليكون الظفر له دون
رفيقيه، فتقدم والتقى بناصر الدولة، فهزمه ناصر الدولة وقتل جماعة من أصحابه وأسره، ثم
التقى العسكر الثاني ولم يعلموا ما جرى للأول، فهزمهم أقبح هزيمة، وهرب العسكر الثالث،
وقوي ناصر الدولة بهذا الظفر، وقطع الميرة عن القاهرة ومصر، ونهب اكثر الوجه البحري،
وخطب للقائم بأمر الله العباسي، وعدمت الأقوات في القاهرة ومصر واشتد الغلاء، وكثر
والوباء، وامتدت أيدي الجند إلى نهب العوام.

الصلح بين ناصر الدولة والأتراك

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة وقع الصلح بين ناصر الدولة بن حمدان والأتراك واشتدت
بهم الضائقة لقطع الميرة، فاضطروا عل مصالحته، فصالحوه على أن يكون مقيماً بمكانه
ويحمل إليه مال قرره المستنصر، ويكون تاج الملوك شادي نائباً عنه، فرضي بذلك وسير
الغلال إلى مصر، ثم وقع الخلاف بينهم بعد شهور فجاء ناصر الدولة من البحيرة، وعساكر
كثيرة، وحاصر مصر في ذي القعدة من السنة، ودخل أصحابه فنهبوا شطراً منها، وأحرقوا
دور الساحل؛ ثم عادوا إلى البحيرة والله أعلم.

حرب ناصر الدولة وتاج الملوك

شادي وما كان من أمر ناصر الدولة إلى أن قتل.

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة جمع ناصر الدولة جموعه من العربان وجاء إلى الجيزة ،
واستدعى إليه تاج الملوك شادي وبعض المقدمين ،فخرجوا للقائه، فقبض عليهم ونهب
مصر 69 وأحرقها.

وكان سبب ذلك أن شادي كان قد قطع عن ناصر الدولة ما كان قد تقرر حمله إليه من
المال، ولم يوصل إليه إلا اليسير منه. فلما قبض عليهم سير المستنصر عسكراً كثيفاً،
فهزموه، فهرب إلى البحيرة وجمع جموعه من العربان وغيرهم، وقطع خطبة المستنصر وأبطل
ذكره، ثم قدم ناصر الدولة في شعبان من السنة ودخل إلى مصر وحكم بها، وأرسل إلى
المستنصر يطلب منه المال، فرآه الرسول وهو جالس على حصير وحوله ثلاثة خدم، ولم ير
شيئاً آخر من آثار المملكة، فلما ذكر الرسول رسالته للمستنصر قال: ما يكفي ناصر الدولة

أن أجلس مثل هذه البيت على هذه الحال! فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة وذكر له
الحال، فأطلق ناصر الدولة للمستنصر بالله في كل شهر مائة دينار، وحكم في القاهرة، وبالغ
في إهانة المستنصر، وقبض على والدته وعاقبها، وأخذ منها الأموال. وتفرق عن
المستنصر جميع أقاربه وأولاده، ومضوا إلى بلاد المغرب والعراق.
وعمل ناصر الدولة على إقامة الدولة العباسية، فنهض إلدكز أحد الأمراء، ويلدكوز،
واجتمعا بمن بقي من الأتراك، واتفقوا كلهم على قتل ناصر الدولة، وكان قد آمن وترك
الاحتراس لقوته وسطوته، وظن أن الدنيا صفت له، فتواعد الأتراك وركبوا إلى داره، في
شهر رجب سنة خمس وستين وأربعمائة، وهو إذ ذاك في مصر بمنازل العز، فدخلوا عليه
من غير استئذان إلى أن بلغوا صحن الدار، فخرج إليهم في رداء، فقتلوه وأخذوا رأسه،
وكان الذي تولى قتله إلدكز، وقتل أخوه فخر العرب وأخوهما تاج المعالي وجماعة من أهل
بيته، وانقطع ذكر آل حمدان، ولم يبق بمصر لهم ذكر.
وناصر الدولة هذا هو الحسن بن الحسين بن ناصر الدولة الحسن بن عبد اله بن أبي
الهيجاء حمدان بن حمدون.
نرجع إلى ذكر حوادث الدولة المستنصرية.
وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة ندب أمير الجيوش بدر الجمالي لولاية دمشق وكان على
حربها، وفوض إليه في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ولاية الشام بأسرها.
الغلاء الكائن بمصر
كان ابتداؤه في سنة سبع وخمسين وأربعمائة واشتد من سنة إحدى وستين، وقلت
الأقوات في الأعمال حتى أكل الناس الميتة، وتزايد في سنة اثنتين وستين: وكثر الوباء بالقاهرة
ومصر حتى إن الواحد كان يموت في البيت فيموت في بقية اليوم أو الليلة كل من بقي فيه،
وخرج من القاهرة ومصر جماعة كثيرة إلى الشام والعراق، وأكل بعض الناس بعضاً، ودام
ذلك إلى سنة أربع وستين، وشبهت هذه السنين بسني يوسف عليه السلام.
قال ابن الهمذاني في تاريخه: وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة ورد من مصر الرجال

والنساء هرباً من الجوع والفتنة، وأخبروا أن بعضهم أكل بعضاً، وورد التجار ومعهم ثياب
صاحب مصر وآلاته وذخائره، وكان معهم أشياء كثيرة نهبت عند القبض على الطائع ، في
سن إحدى وثمانين وثلاثمائة؛ وما نهب في وقعة البساسيري.
قال: وخرج من خزانة المستنصر بالله أشياء عظيمة، من جملتها ثلاثون ألف قطعة بلور
كبار، وخمس وسبعون ألف ثوب ديباج خسرواني. وأحد عشر ألف درع، وعشرون ألف
سيف محلاة، وغير ذلك،
قال المؤرخ: ومن جملة ما بلغ من أمر الغلاء أن امرأة كان لها حلي باعت ما يساوي ألف
دينار بثلاثمائة دينار واشترت به حنطة، فنهبت منها في الطريق، فنهبت مع من نهب،
فحصل ما جاء لها رغيفاً واحداً.
وحكى أن بعض أهل اليسار وقف بباب القصر وصاح واستصرخ إلى أن حضر بين يدي
المستنصر، فقال له: يا مولانا، هذه سبعون قمحة وقفت علي بسبعين ديناراً، كل قمح
بدينار، في أيامك، وهو أني اشتريت أردب قمح بسبعين دينار، فنهب مني فنهبت مع من
نهب، فوقع في يدي هذه، فكل قمحة بدينار، فقال المستنصر: الآن فرج الله عن الناس فإن
أيامي حكم لها أن القمحة تباع بدينار.
قالوا: ولم يكن هذه الغلاء عن نقص النيل، وإنما كان الاختلاف الكلمة وحروب الأجناد،
وتغلب المتغلبين على الأعمال، وكان النيل يزيد ويهبط كل سنة، ولم يجد من يزرع الأراضي؛
وانقطعت الطرقات براً وبحراً إلا بالخفارة الكثيرة، وأبيع الرغيف الخبز بأربعة عشر ديناراً
أو درهما، قال الجواني: وأبيع الأردب القمح بمائتي دينار.
72 ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر واستيلائه على الدولة
كان تقدمه في سنة ست وستين وأربعمائة، وسبب ذلك أن المستنصر تواترت عليه الرزايا
وحصره ابن حمدان كما ذكرنا فلما قتل ابن حمدان استطال إلدكز والأتراك والوزير أبي
كدينة، فضاق المستنصر ذرعاً، وكاتب أمير الجيوش بدر الجمالي وحسن له أن يكون
المتولي لأمر دولته، فأعاد الجواب شرط أن يستخدم عسكراً، وألا يبقى على أحد من

عسكر مصر، فأجابه إلى ذلك، فاستخدم العساكر وركب في البحر الملح، وكان إذ ذاك
بعكا، وسار في مائة مركب في أول كانون وهو وقت لم تجر العادة بركوب البحر في مثله،
فوصل دمياط، وركب منها، وسار إلى أن نزل بظاهر قليوب، وأرسل إلى المستنصر بالله
أن يقبض على إلدكز، فقبض عليه، ودخل أمير الجيوش إلى القاهرة في شهر ربيع الآخر
منها، وقيل في جمادى الأولى، فما لبث أن بعث كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة
ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح وقد أحضر إليه من رؤوس قواد الدولة شيء كثير.
وقبض على الأتراك وقويت شوكته، وقمع كل مفسد، حتى لم يبق أحد منهم بمصر
والقاهرة، وخلع المستنصر على بدر الجمالي بالطيلسان، وصار أمير المستخدمين في
حكمه، والدعاة والقضاة نوابه.
قال: ولما قدم مصر حضر إليه المتصدرون بالجامع، فقرأ ابن العجمي: "ولقد نصركم الله
ببدر" وسكت عن تمام الآية. فقال له بدر: والله لقد جاءت في مكانها، وسكوتك عن تمام
الآية أحسن وأحسن إليه، وقيل: بل قال له: لم لا قرأت " إن هو إلا عبداً أنعمنا عليه"
وقتل أمير الجيوش من أماثل المصريين ووزرائهم وحكامهم جماعة، وشرع في إصلاح
الأعمال وقتل المفسدين.
وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة خطب للمستنصر بمكة المدينة، وكانت الخطبة بهما قد
انقطعت منذ خمس سنين.
وفيها حضر أتسيز دمشق وملكها، على ما ذكرناه في الباب العاشر من القسم الخامس من
هذه الفن في أخبار الدولة السلجقية. وانقطعت خطبة المستنصر من الشام.
هلاك عرب الصعيد
وقتل كنز الدولة
وفي سنة تسع وستين وأربعمائة اجتمع جماعة كثيرة من عرب جهينة والجعافرة الثعالبة
وغيرهم بمدينة طوخ العليا من صعيد مصر، واتفقوا على قتال أمير الجيوش، فخرج إليهم،
فلما قاربهم هجم عليهم في نصف الليل، فهزمهم وأبادهم بالقتل، وغرق خلق كثير منهم،
وغنم أموالهم وحملت إلى المستنصر.

وكان كنز الدولة محمد قد تغلب على ثغر أسوان ونواحيها وعظم شأنه وكثرت أتباعه،
فقاتله أمير الجيوش وقتله، وبنى في المكان مسجداً سماه مسجد النصر، وكانت هذه الوقعة
آخر إصلاح حال مصر وعربانها، وقيل كان قتل كنز الدولة في سنة خمس وسبعين والله
أعلم.
وفي غيبة أمير الجيوش هجم أتسيز على الديار المصرية، وكان ابن يلدكوز قد التحق به
وأهدى له تحفاً جليلة المقدار، منها ستون حبة لؤلؤ مدحرج تزيد كل حبة على مثقال،
وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالاً، وغير ذلك، وأطمعه في ملك الديار المصرية، وملك
ما وصل إليه، فجمع أمي الجيوش عساكره وخرج إليه، وقاتله وهزمه، وقتل خلقاً كثيراً من
أصحابه بعد أن أقام بأرياف مصر جماديين وبعض شهر رجب.
وفيها خرج على أمير الجيوش عرب قيس وسليم وفزارة، فخرج إليهم وقاتلهم، وهزمهم،
وطردهم إلى برقة.
وفي سنة سبعين وأربعمائة فوض لأمير الجيوش بدر الجمالي قضاء القضاة، ونعت بكافل
قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين.
وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة خالف الأوحد بن أمير الجيوش على والده، واجتمع معه
جماعة من العربان وغيرهم، واستولى على الإسكندرية، فسار إليه والده وحاصره بها، و
فتحها، وقبض على ولده: وبنى أمير الجيوش الجامع المعروف بجامع العطارين بالإسكندرية
من أموال أخذها من أهل البلد، وكانت عمارته في شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين.
وقامت الخطبة بهذا الجامع إلى أخر أيام العاضد.
وفي سنة اثنتين وثمانين 71 وأربعمائة ندب أمير الجيوش بدر الجمالي عسكراً إلى الساحل
ففتح صور وصيدا، وصار بيده نوابه. ثم سار بعد ذلك وفتح جبيل وعكا، وكان ذلك في
يد تاج الدولة تتش صاحب دمشق.
بناء باب زويلة بالقاهرة
وفي سنة خمس وثمانين وأربعمائة أمر أمير الجيوش بدر الجمالي ببناء باب زويلة الكبير،
الذي هو الآن باق، وعلى أرضه، وأراد أن يجعل له عطفة على عادة أبواب الحصون حتى

لا تهجم عليه العساكر في أوقات الحصار، وتعذر دخوله جملة، فأشار عليه بعض
المهندسين أن يعمل بابه زلاقة من حجارة الصوان، فعمله الحكم، ولم يزل كذلك إلى أن دخل
منه السلطان الملك الكامل بن الملك العادل، فزلق فرسه فرسم أن يخفف من حجارته،
فخفف منها، ولم يبق إلا القليل على ماهو عليه الآن.
وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش ثغر صور بمواطأة من نائب بدر بها.
وفاة أمير الجيوش
بدر الجمالي وولاية ولده الأفضل
كانت وفاته في شهر ربيع الأول، وقيل في جمادى الأول، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وكان
حكمه بديار مصر حكم الملوك ولم يبق للمستنصر بالله أمر، بل سلم الأمور إليه فضبطها
أحسن ضبط. وكان شديد الهيبة، سريع البطش؛ قتل خلقاً كثيراً من أكابر المصريين
وقوادهم وكتابهم؛ وعلى يديه صلحت الديار المصرية بعد أن خربت، وكان له نحو الثمانين
سنة،
وكان أرمني الجنس مملوكاً لجمالي الدولة بن عمار وإليه ينسب وتولى إمرة الشام والساحل.
ولما كان يلي دمشق جرت فتنة بين عسكره وأحداث البلد خرب بسببها قصر الإمارة
والجامع الأموي.
قال المؤرخ: ولما ولي مصر أطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنين إلى أن أمنت أحوالهم
واتسعت أموالهم، وكانت إمارته بمصر إحدى وعشرين سنة.
ولما توفي ولي بعده الوزارة ولده الأفضل ، ونعت بنعوت أبيه وقبض على جماعة من الأمراء
كانوا قد ثاروا عليه.
وفاة المستنصر بالله
وشيء من أخباره
كانت وفاته في ليلة الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة،
ومولده في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة ،فكانت مدة
حياته سبعاً وستين سنة وستة اشهر وثلاثة أيام، ومدة ولايته ستين سنة وأربعة أشهر.
ولقي في ولايته أهوالاً عظيمة وشدائد كثيرة وفاقة متمكنة حتى جلس على نخ وكانت

أيامه ما بين غلاء ووباء وفتن، على ما نذكره، وكان قد عتا وتجبر واشتهر، وذلك أنه اشتهر
عنه أنه نصب خركاه في القصور التي بعين شمس وبنى فسقية عظيمة وحمل إليها الخمر في
الروايا وأخرج جميع من في قصره من الملاهي والقيان إلى الخركاه وهم يغنون بأصوات
مرتفعة ويستقون من فسقية الخمر، ويطوفون بالخركاه، يضاهون بذلك البيت المعظم وزمزم،
ويقول: هذا أطيب من زيارة الحجارة، وسماع صوت كريه، وشرب ماء آسن، فأخذه الله
سبحانه وتعالى وعجل العقوبة، وأراه الذل مع قيام سلطانه، وسلط عليه أنصار دولته حتى
نهبوا أمواله واستولوا على قصره، ولم يبق إلا بساط فجذبوه من تحته، وصار إذا ركب لا
يجد ما يركبه حامل مظلته إلا أن يستعار له بغلة ابن هبة، صاحب ديوان الإنشاء، وكل
خواصه مشاة ليس لديهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من
الجوع، وكانت ابنة بابشاذ تبعث إليه برغيفين في كل يوم، وهذه عاقبة الطغيان الاستهتار.
وكان له أولاد منهم: أبو القاسم أحمد، وأبو المنصور نزار، وأبو القاسم محمد، وأبو الحسن
جعفر، وغيرهم.
ووزر له جماعة وهم: أبو القاسم الجرجرائي الأقطع، وزير والده، إلى أن توفي فاستوزر من
ذكرناهم 72 إلى آخر سنة أربع وخمسين وتكرر بعضهم في الوزارة مراراً واستوزر أبا غالب
عبد الظاهر بن فضل العجمي غير مرة، دفعة في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين صرف
بعد ثلاثة أشهر، ودفعة في شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وصرف بعد ثلاثة وأربعين
يوماً، ثم وليها ثالثة في أيام الفتنة ولقب بتاج الملوك شادي، وقتل سنة خمس وستين، وولي له
الحسن بن ثقة الدولة بن أبي كدينة القضاء والوزارة، كل منصب منها خمس دفعات، ويقال
إنه من ولد عبد الرحمن ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولما وصل أمير
الجيوش بدر الجمالي أرسله إلى دمياط وأمر بضرب عنقه، فدخل عليه السياف بسيف
كليل فضربه عدة ضربات حتى أبان رأسه، وكان عدة ما ضربه عدة ما ضربه عدة ولاياته

الحكم والوزارة. وولي أبو المكارم أسعد ثم قتله أمير الجيوش، ووزر بعده أبو علي الحسن
بن أبي سعد إبراهيم بن سهل التستري عشرة أيام ثم استعفى، وكان يهودياً فأسلم، وولي
أبو القاسم هبة الله محمد الرعباني دفعتين كل دفعة عشرة أيام، ووزر الأثير أبو الحسن
الأنباري أياماً ثم صرف، ووزر أبو علي الحسين بن سديد الدولة الماسكي مرة ثانية أياماً ثم
صرف، ووزر أبو شجاع محمد بن الأشراف بن فخر الملك، وفخر الملك هو الذي وزر
لبهاء الدولة ابن بويه، فصرف وسار إلى الشام فقتله أمير الجيوش في مسيره، واستوزر أبا
الحسن ابن الوزير الطرابلسي، ومن طرابلس الشام، ثم صرفه، وكان أحد الكتاب بديوان
الإنشاء، واستوزر أبا عبد الله محمد بن أبي حامد السيسي يوماً واحداً ثم قتل، فاستوزر
أبا سعيد منصور بن أبي اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور، وكان نصرانياً ثم أسلم،
والنصارى ينكرون إسلامه واستوزر أبا العلاء عبد الغني بن نصر بن سعيد وصرف وبقي
أياماً وقتله أمير الجيوش. ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا ووزر للسيف والقلم
والحكم إلى أن مات، ثم ولده الأفضل من بعده.
قضاته: كان منهم جماعة من الوزراء قد ذكرناهم، ومن لم يل الوزارة عبد الحاكم بن سعيد
الفارقي في أول خلافته، ثم القاسم بن عبد العزيز بن النعمان، وفي ولاية أمير الجيوش أبو
يعلى العرقي إلى أن مات، فولي أبو الفضل القضاعي .ثم جلال الدولة أبو القاسم عب بن
أحمد بن عمار، ثم صرفه وولى أبا الفضل بن عتيق، ثم أبا الحسن علي بن يوسف الكحال
النابلسي؛ ثم فخر الأحكام محمد بن عبد الحاكم.
وكان نقش خاتم المستنصر بالله بنصر السميع العليم ينتصر الإمام أبو تميم
بيعة المستعلي بالله
هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد، وهو التاسع من ملوك الدولة
العبيدية، والسادس من ملوك مصر منهم، بويع له في بكرة نهار الخميس لاثني عشرة ليلة
بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.
وذلك أن المستنصر بالله لما توفي بادر الأفضل أمير الجيوش بدخول القصر وأجلسه على

تخت المملكة، وسير إلى إخوته نزار وعبد الله وإسماعيل، وأعلمهم بوفاة أبيهم، وأمرهم
بسرعة الحضور، فلما حضروا شاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على سرير الخلافة،
فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله
وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فقال نزار: لو
قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سناً، وخط والدي عندي بولاية العهد، وأنا أحضره.
وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى إلى الإسكندرية، فسير الأفضل خلفه من يحضره، فلم
يعلم أحد أين توجه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل لذلك.
وقيل أنه لما توفي المستنصر بالله جلس بعده ولده أبو منصور نزار، وهو ولي العهد وأراد
أخذ البيعة لنفسه فامتنع أمير الجيوش من ذلك لكرهته فيه واجتمع الأمراء والخواص وقال
لهم: إن هذا كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي
القاسم أحمد، فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي، فإن نزار كان قد وعده بالوزارة
والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أطلع نزاراً عليه.
وبادر الأفضل وبايع احمد بالخلافة، ونعته بالمستعلي بالله وأجلسه على سرير الملك، 73
وجلس الأفضل على دكة الوزارة. وحضر قاضي القضاة الإمام علي بن الكحال ومعه
الشهود، وأخذ البيعة على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد
الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا
المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة؛ إن
الله قد اختاره علينا. وبايعاه، وكتب بذلك سجل قرأه على الأمراء الشريف سناء الملك
محمد بن الحسني الكاتب بديوان الإنشاء، بادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى
الإسكندرية، وعليها ناصر الدولة أفتكين التركي، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي،
فعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة، فبايعه، وبايعه أهل الثغر، ولقب بالمصطفي لدين الله.
ما اتفق لنزار ومن معه

قال: وفي المحرم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى
الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال، فلما قرب منها خرجوا إليه، والتقوا، واقتتلوا
قتالاً شديداً، فكانت الهزيمة للأفضل ومن معه، فرجع إلى مصر ونهب نزار ومن كان معه
من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.
ثم خرج الأفضل ثانياً وحاصر الإسكندرية، واشتد الحصار إلى ذي القعدة، فلما اشتد
الحال رأى ابن مصال مناماً، فلما أصبح أحضر رجلاً أعجمياً وقال له: رأيت كأني راكب
فرساً وكان الأفضل يمشي في ركابي.
فقال له الأعجمي: الماشي على الأرض أملك لها، فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب
إلى لُكّ قرية من قرى برقة. فعند ذلك ضعفت قوة نزار وأفتكين، فاضطر إلى مسألة الأفضل
وبعثا يطلبان الأمان، فأمنهما وفتحت البلد.
ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيرهما إلى مصر، وكان آخر
العهد بنزار، قيل إنه جعله بين حائطين إلى أن مات، وكان مولده في عاشر شهر ربيع الأول
سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وأما أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس، وأما محمود بن
مصال فكاتبه الأفضل ورغبه في العود، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.
وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جمع،
ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم.

الاستيلاء على بيت المقدس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام
ونزل على البيت المقدس، وهو في يد الأمير سقمان وإيلغازي، ابني أرتق، وجماعة من
أقاربهما، وخلق كثير من الأتراك. فراسلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس من غير
حرب ولا سفك، فلم يجيباه إلى لذلك. فنصب المناجيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطر
إلى تسليمه له، فخلع عليهما وأطلقهما، وعاد الأفضل إلى مصر.
ونقل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لما رجع من

بيت المقدس مر بعسقلان، وكان في مكان دارس بها رأس الحسين بن علي، رضي الله
عنهما، فأخرجه فعطره وطيبه، وحمل في سفط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد، ولما
تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى ماشياً إلى أن رده إلى مقره، ثم نقل إلى مصر
على ما نذكره إن شاء الله، وقيل إن المشهد بعسقلان ابتدأ بعمارته بدر الجمالي وكمله
الأفضل.
استيلاء الفرنج على بلاد اسلامية
على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس
لم يكن جميع ما استولوا عليه مما نذكره داخلاً في ملك الدولة العبيدية، بل كان منها ما هو
في أيدي نواب المستعلي وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضاً في أيام
المستعلي خاصة، وإنما وردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع
بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية.
والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه 74 من سواحل الشام سنة إحدى
وتسعين وأربعمائة وما بعدها.
وكان ابتدأ ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين
وأربعمائة، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد
ملك، وأيقنت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك
الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى
ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية، فأول ما استولوا عليه
مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه، في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا
جزيرة صقليه في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً
ثم استرجع منهم، على ما قدمناه.
ملكهم مدينة أنطاكية
كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى

وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن فتحها
الملك سليمان بن شهاب الدين ولد قتلمش السلجقي، صاحب أقصرا وقونيه وغير ذلك من
بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية،
وبقيت في يده إلى أن قتل، وتداولتها أيدي المتغلبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن
استقرت بيد ياغي سيان وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تتش صاحب حلب، ولأخيه
الملك دقاق صاحب دمشق.
فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان
تسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل بغدوين يقول: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا
أصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك.
فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد كلها
للنصرانية، فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجله وحبق حبقة طويلة وقال:
وحق ديني هذه خير من كلامكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى
كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، عساكر من جهتي معهم، فإن فتحوا البلاد وكانت
لهم وصارت مؤونتهم من صقلية وينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات كل سنة،
وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم، ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي
ونقضت عهدي، وتنقطع الأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة
أخذناه بها.
ثم أحضر رسوله وقال إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس
وخلصوه من أيدهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود،
فاخرجوا إلى الشام.
وقيل أن المستنصر، أو المستعلي، لما رأى قوة الدولة السلجوقية وتمكنها، وأنهم استولوا
على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج

يدعوهم للخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.
قال فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى قسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد
الإسلام ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم، فمنعهم ملك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن
يمروا من بلاده، وقال: لا أمكنكم من العبور إلا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلي أنطاكية، وكان
قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منه أن الترك لا يبقون منهم أحداً لما
أري من صرامتهم وملكهم البلاد.
فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة، ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان
بن سليمان بن قتلمش، فلقيهم في جموعه ومنعهم، فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب
منها، ومروا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية،
فحصروها.
قال المؤرخ: فلما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها،
فأخرج ما بها من المسلمين بمفردهم أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخندق، ثم أخرج النصارى
من الغد لذلك، فعلموا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلاد منعهم، وقال لهم: أنطاكية
لكم فهبوها لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟
فقال: أنا أخلفكم فيهم فأمسكوا حتى صاروا في عسكر الإفرنج.
وحصرت أنطاكية تسعة أشهر وظهر من حزم ياغي سيان واحتياطه وجودة رأيه ما
يشاهد مثله، وهلك 75 أكثر الفرنج موتاً وقتلاً، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية
الذين أخرجهم، وكف الأيدي عنهم.
فلما طال مقام الفرنج عليها راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو ذراد، ويعرف بروزبة،
وبذلوا له مالاً إقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبنى على شباك في
الوادي.
فما تقرر الأمر بينهم وبينه، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة
منهم بالحبال، فلما زاد عددهم إلى خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب

الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال فقيل له: هذا
البوق من القلعة ولا شك أنها قد أخذت ولم تكن من القلعة وإنما من البرج. فداخله
الرعب؛ ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاماً، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له انه قد
هرب، فخرج من الباب الآخر هارباً، وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.
ثم أن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.
وأما ياغي سيان فإنه لما طلع النهار رجع إلى عقله وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع
عدة فراسخ؛ فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية. فندم كيف
خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.
وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاد المسلمين، ويسترجع؛ فسقط لشدة ما ناله، وغشي
عليه، فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا
عنه، فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الخشب وهو بآخر رمق فقتله وحمل رأسه إلى
الفرنج بأنطاكية.
مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم
قال: ولما اتصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل جمع العساكر وسار
لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار. فلما
بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف لما هم فيه من الوهن وقلة
الأقوات .وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من
المسلمين، فأغضب الأمراء وتكبر عليهم، ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال.
فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند
الصدمة.
قال: وأقام الفرنج بإنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت
الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى
كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا يخرجون منه إلا

بالسيف.
وكان معهم من الملوك بغدوين وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمند
صاحب أنطاكية وهو مقدم العسكر، وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح
عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها
فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.
وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم ثلاثة أيام والتوبة؛ ففعلوا ذلك فلما
كان اليوم الرابع أدخلهم جميعهم وجميع عامتهم والصناع، وحفروا عليها في ذلك المكان
فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: ابشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس من خمسة وستة إلى
نحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فقتل كل من يخرج فإن أمرهم
الآن سهل، فقال أمهلوهم حتى يتكاملوا؛ ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين
جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.
فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق أحد منهم في أنطاكية ضربوا مصافاً عظيماً، فانهزم
العسكر الإسلامي لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمت الهزيمة
عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح، ولا رمي بسهم، وآخر من انهزم
سقمان بن أرتق وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج
ذلك ظنوه مكيدة فخافوا أن يتبعوهم؛ وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة ورغبة في
الشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والدواب، وغير
ذلك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.
ملكهم معرة النعمان
76 قال المؤرخ: ثم سار الفرنج إلى معرة النعمان فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً
شديداً، فرأى الفرنج منهم شدة ونكاية عظيمة، فعمل الفرنج عند ذلك برجاً من خشب
يوازي سور المدينة، ووقع القتال عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم
منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور

وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك.
ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج عليهم على السلالم،
فلما علوه تحير المسلمين ودخلوا دورهم، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما
يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.
وأقاموا بها أربعين يوماً وساروا إلى عرقة، فحصروها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة
نقوب ولم يقدروا عليها، وراسلهم ابن منذر صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى
حمص وحصروها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا
فلم يقدروا عليها؛ فساروا إلى البيت المقدس.
استلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس
كان استيلاء الفرنج، خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع
بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن
المستعلي بالله، فإنه كان بيد تاج الدولة تتش السلجقي صاحب الشام، واقطعه للأمير
سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى
الآن.
فقصده الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه
برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.
فلما فرغوا من ذلك أتاهم الصارخ أن المدينة قد ملكت من الجانب الآخر، وهو الجانب
الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون فيهم.
واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذلك لهم الفرنج الأمان،
فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها.
وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة
المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع
الشريف. وأخذوا من عند السخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، زنة كل قنديل ثلاث

آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلاً، بالرطل الشامي، وأخذوا
من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً من الفضة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً.
وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء.
وورد إلى بغداد القاضي سعيد القروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس،
وأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة،
وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن
يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك،
فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.
قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج
إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير
تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على
عشرة آلاف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.
قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفرى.
ظفر المسلمين بالفرنج
قال المؤرخ: وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمتكين بن الدانشمند طايلو،
وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه
واستقدمه عليه، فورد عليه في خمسة آلاف، فلقيهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهُزم بيمند
وأسر.
ثم وصل من البحر سبعة قناصة من الفرنج، فأرادوا خلاص بيمند، فأتوا إلى قلعة أنكورية
فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحصروها وفيها إسماعيل
بن الدانشمند فجمع الدانشمند جمعاً كثيراً، ولقي الفرنج، وجعل له كميناً فقاتلهم وخرج
عليهم الكمين فقتلهم. وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا.
وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.
قال ابن الأثير الجزري: وكانت هذه الوقائع في شهر و قريبة.

قال: ولم يزل بيمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه.
قتل كندفري
وملك أخيه بغدوين وما استوى عليه الفرنج من البلاد وهي: حيفا. وأرسوف.
وقيسارية. والرها. وسروج
وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا،
فحاصرها، فأصابه سهم فقتله. وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج
اسمه طنكري. فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس
وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه
الأمير جناح الدولة في جموعه، فنصر على الفرنج.
وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا،
وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها.
وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من
أهلها لأن أكثر أهلها أرمن. فما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعاً عظيماً من
التركمان وزحف بهم إليهم، فلقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة
على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم،
ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم.
أخبار صنجيل الفرنجي
وما كان منه في حروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطرسوس
وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلج أرسلان صاحب قونية،
وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم،
وفاز قلج بالظفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوماً في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل
فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق
بدمشق يقول: من الصواب معاجلة صنجيل إذ هو في العدد يسير.

فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، أتتهم الإمداد من طرابلس.
وصافوا صنجيل فأخرج مائة ن عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق
وخمسين إلى عسكر حمص وبقي هو في خمسين.
فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة تبعهم عسكر دمشق.
وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين،
فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.
وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى. فقاتل من
بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل
صنجيل عنهم إلى مدينة أنطرسوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها. وقتل
من بها من المسلمين.
ورحل إلى حصن الطوبان، ومقدمه ابن العريض، فقاتلهم فنصر عليهم وأسر فارساً من
أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى
ذلك.
ثم سار صنجيل إلى حصن الأكراد فحصره، فجمع أمير جناح الدولة عسكره ليسير إليه
ويكبسه، فقتله باطنيٌ بالمسجد الجامع. فلما قُتل صبح صنجيل حمص من الغد ونازلها
وملك أعمالها.
ملك الفرنج جبيل وعكا
وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها
التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم، فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس
فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعاً، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحصروها
وقاتلوا عليها قتالاً شديداً. فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها،
فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم فلم يَفِ لهم. وأخذ الإفرنج أموالهم
وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب. ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على
حصارها، فنازلوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد

قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال
الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى حمص.
وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية وسرمين من أعمال حلب.
وفي سنة اثنتين وخمسمائة فتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك بن
عمار وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغزتكين
صاحب دمشق أن يرسل إله من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه. فبعث إليه طغزتكين
صاحباً له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن. فلما نزل غلام ابن عمار رماه إسرائيل
بسهم فقتله في الاختلاط طمعاً في المال الذي بعرقة لئلا يطلع طغزتكين عليه.
قال وأراد طغزتكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار والثلج مدة
شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقة،
فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغزتكين
عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان، وقبض
على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيراً، ففودي لم يتمكن
منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصناً وجعل تحته ربضاً، وأقام يرصدها
ينتظر فرصة، فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ربضه،
فوقف صنجيل على سقوفه المحروقة، ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف
بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحُمل إلى القدس فدفن هناك. وذلك في سنة
تسع وتسعين وأربعمائة.
وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه والياً
يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب والياً،
ومعه الغلال وغيرها. فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على
ما وجده من أمواله وذخائره.

فما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل أسطول كبير من بلد الفرنج، مقدمه قمص
كبير اسمه ريمند بن صنجيل، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ربمند هذا
ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره. فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن
أخت صنجيل محاصراً لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تتكري
صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره،
فأصلح بينهم ونزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا
أبراجهم بسورها، فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم،
وزادهم ضعفاً. فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة، وداوم الفرنج القتال
والزحف إلى أن ملكا البلد عنوة، وذلك في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي
الحجة، سنة ثلاث وخمسمائة. ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية،
وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يوصف.
وكانت طرابلس من أعظم البلاد وأهلها من أكثر الناس أموالاً.
وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا
إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم.
ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول
الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها:
صور وصيدا وبيروت.

ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس فافتتحها وأمن
أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من
بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.
وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان ابن علي بن
منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغزتكين صاحبها، وأجزل له في العطية وأقطعه

أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسمائة.
ملكهم مدينة صيدا
وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو
بيد طغزتكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباً للفرنج مشحونة
بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به
بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر،
وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة
صور، فعمل الفرنج برجاً من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة عنه،
وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما
أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان،
فأمنهم على نفوسهم وأمواله والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه،
ومن أراد المسير عنهم لا يمنعونه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه
تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.
ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين
أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.
حصن الأثارب
وحصن زردنا
وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل وسار إلى حصن الأثارب،
وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع لميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم.
فنقب المسلمون من القلعة نقباً وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية
فيقتلوه. فلما فعلوا ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز،
وجدّ في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى.
ثم سار إلى حصن زردنا، فحصره وفتحه، وفعل بأهله مثل ذلك. فلما سمع بذلك أهل
منبج فارقوها خوفاً من الفرنج، وكذلك أهل بالس، فطلب أهل الشام الهدنة، فامتنع الفرنج

ثم أجابوا. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنتين وثلاثين ألف دينار، وخيول
وثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي
الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. وكانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم
جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضاً.
حصر مدينة صور وفتحها
كان استيلاء الفرنج، خلهم الله تعالى، على مدينة صور في الثالث والعشرين من جمادى
الأولى سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان ابتداء الحصار في سنة خمس وخمسمائة، وذلك
أن الفرنج في هذه السنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القدس على حصارها. وكانت إذ
ذاك بيد نواب الآمر بأحكام الله وبها من قبله عز الملك الأعز، فحصروها في الخامس
والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وعملوا ثلاثة أبراج من الخشب علو البرج سبعون
ذراعاً في كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق. وألصقوا أحد الأبراج بسور صور،
فجمع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج. فقام شيخ من
أهل طرابلس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل حزمة
حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاته،
وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج بإطفاء النار، فرماهم بجرار
مملوءة بالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحة الكرهة،
فتمكنت النار من البرج. وأحرق المسلمون البرجين الآخرين أيضاً.
وكاتب عز الملك طغزتكين، صاحب دمشق فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابه للإغارة
على بلاد الفرنج، فرجعوا من حصار مدينة صور في شوال من السنة.
ثم عادوا في سنة ست وخمسمائة إلى الحصار، وضايقوا البلد، فأرسل أهل صور إلى
طغزتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته من يتولى أمرهم ويحميهم،
وتكون البلد له. فسير إليهم عسكراً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهماً

شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمده بالعساكر والميرة، فطابت قلوب أهل البلد. ولم
يقطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غير سكته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفه ما
عمل ويقول: متى وصل من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه، وطلب منهم ألا
ينقطع الأسطول عنها بالرجال والميرة. فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل،
وجهز أسطولاً إليها، فاستقامت أحوال أهلها.
ولم يزل كذلك إلى سنة ست عشرة وخمسمائة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش. وذلك أن
المأمون بن البطائحي لما ولي إمرة الجيوش بعد قتل الأفضل سير إلى مدينة صور أسطولاً
على العادة، وأمر المقدم عليه أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طغزتكين،
ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه. وكان سبب ذلك أن أهل صور شكوا منه إلى الآمر
بأحكام الله.
فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعود ليسلم على المقدم قبض المقدم عليه واعتقله،
وحمله إلى الآمر، فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق. واستولى مقدم الأسطول على مدينة
صور، وراسل الأمير طغزتكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعده المساعدة.
فما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوى طمعهم فيها، وشرعوا في الجمع، واتصل
خبرهم بواليها، فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة بهم، لقلة من بها من الجند والميرة، وأرسل إلى
الآمر بذلك، فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغزتكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتب بها
الجند وغيرهم.
وسار الفرنج إلى صور، ونازلوها في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيقوا عليها
ولازموا القتال، فقلت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغزتكين إلى
بانياس ليقرب منها ويذب عن البلد، وأرسل إلى الآمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلها
على الهلاك. فحينئذ راسل طغزتكين الفرنج على أن يسلم إليهم البلد ويمكنوا من بها من
الجند والرعية ن الخروج بما قدروا عليه من أموالهم وغيرها فاستقرت القاعدة على ذلك،

وفتحت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطاقوا وتفرقوا في البلاد، ولم يتعرض الفرنج
إليهم. وملك الفرنج البلد في التاريخ الذي قدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيف عاجز عن
الحركة.
وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس من المسلمين، وملكوا
بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي ورغبته في ذلك، وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدمناه
ذكره في أخبار تاج الملوك طغزتكين صاحب دمشق.
هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية. فلنرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.
وفاة المستعلي بالله
كانت وفاته في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة.
ومولده لعشر بقين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة
وثمانية وعشرين يوماً.
ومدة ولايته سبع سنين وشهراً واحداً وثمانية وعشرين يوماً.
ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من
الأمر إلا الاسم، والرسم للأفضل.
وكان للمستعلي من أولاد أبو علي المنصور، وجعفر، وعبد الصمد.
وزيره الأفضل أمير الجيوش.
قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد بن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن
رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.
بيعة الآمر بأحكام الله
هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية والسابع من
ملوك الديار المصرية منها.
قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي
هذا سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس
وتسعين وأربعمائة، وبايع له الناس ولقبه بالآمر بأحكام الله وله من العمر خمس سنين وشهر
واحد وأيام.
قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمسمائة بني الأفضل أمير الجيوش الدار المعروف بدار الملك على شاطئ النيل
بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها.
ومدحه الشعراء. فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها:
دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر
ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف،
فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرياع السلطانية.
إنشاء ديوان التحقيق
وفي سنة إحدى وخمسمائة جدد الأفضل ديواناً وسماه ديوان التحقيق، واستخدم فيه أبا
البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن قتل في سنة ثمان وعشرين.
واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة العبيدية وانقطع، ثم أعاده السلطان الملك
الكامل بن الملك العادل في سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي. ثم أبطل
في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد. واستخدم في أيام السلطان الملك المعز أيبك صفي
الدين عبد الله بن علي المغربي في استيفاء مقابلة الدواوين، وهو نوع منه.
حل الإقطاعيات
وتحويل السنة
وفي سنة إحدى وخمسمائة كثرت شكاوى الأجناد وطوائف العساكر المصرية بسبب
إقطاعياتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لا تقوم ببعض كلفهم، وأن الإقطاعيات التي
بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع. فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره
وأستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار عيه بحل جميع الإقطاعيات التي بيد
الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها. فاتفق الرأي على ذلك.
وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال الأمراء: لنا في
إقطاعياتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها. فقال الأفضل: الأملاك لملاكها على حالها
يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعيات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منها إقطاع، وكتبت بذلك المناشير
بذلك. ثم شكى إليه كثرة عبرة البلاد وأن متحصلها لا يفي بالعبرة.
وحصل للديوان ضياع مفرده عبرتها خمسون ألف دينار في كل سنة.
ونقلت السنة الشمسية الخراجية إلى الهلالية، وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية
وسنة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسين.
أخذ الفرما
وهلاك بغدوين الفرنجي صاحب القدس
وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما وقتل جميع من بها،
وأحرق جامعها ومساجدها، وذلك بعد أن حاصرها أياماً والفرما كانت بلدة بين القصير
والغرابي من منال الرمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مصر فرحل عن الفرما. ورجع
إلى البيت المقدس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش.
فشق الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك، فهي ترجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته،
فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس.
وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة
وظلم وعسف، وهو الذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد لا بالله،
وسبب تسميته بلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيقولون لا بالله، فيقيدهم
ويستعملهم فيه بغير أجرة. ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكره مقيد. فابتلى الله ذخيرة
الملك بأمراض شديدة، لما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشييعه.
نهب ثغر عيذاب
وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، أمير مكة،
مراب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيرهم إلى عيذاب، فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة
منهم. فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة
حراريق بجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت

الأسعار. وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب
الشريف إلى الأفضل يعتذر، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته.
وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة.
مقتل الأفضل شاهنشاه
أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره
كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من
دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، تلة الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر لأنه كان قد
ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه
أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح
الأحدوثة وسوء الشناعة ما لا تحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا
المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه غيلة لا غنية أن نولي منصبه لغيره،
فيكون المتولي بعده على وجل واحتراس. وإنما الرأي أن ندبر عليه. فدبر عليه حتى
قتل. هذا كان أحد الأقوال في قتله.
قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثماني ضربات، فمات لوقته، وحمل على أيدي مقدمي
ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحداً من الدنو منه، وهم يبشرون الناس
بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطى. ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الآمر يقول له:
أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنء من وجده بسلامة
الأفضل. ففعل حيدرة ذلك، وهنأ حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة فتنة
وأنهم يطلبون الآمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الآمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة
البنود، فحملوا إليها، وبات الأمر بدار الملك.
قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثراً للعدل، صائب
الرأي والتدبير، حسن الهمة، كريم النفس، صادق الحديث.
ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه. فجاء الناس إلى
باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا

يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل
فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسن آثاره، ففارقنا بلادنا حباً لأيامه، وأقمنا في بلده
فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده.
قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الآمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي والقائد عبد
الله محمداً وسألهما عن الأموال، فقال القائد: أما السر فأعلمه وأما الظاهر فالوزير يعلمه،
وأخبراه بذخائره وأمواله. وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة
بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوماً، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور، فوجد له
من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.
وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف دينار عيناً، وفي بيت الخاصة ثلاث آلاف
ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون ديناراً، وخمسون أردباً
دراهم ورق وثلاثون راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل
بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة
الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من
دق دمياط وتنيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبر على قدر جسده برسم ثيابه
توضع ثيابه عليه لتكبسم رائحتها. وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لا يحصى.
وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في
السنة. وكانت الدواة التي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني
عشر ألف دينار. وخلف من الكتب خمسمائة ألف مجلد.
وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل
فقال: خلف. جملة لم يسمع أن أحداً من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله و لا
ادخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحلم على
عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام.

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملاً مما حمل من
موجودة في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف
وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتوار
واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدور وقطع من الفضة والذهب مختلفة
الأجناس ما لا يحصى كثيرة، وبراني صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف
الديباج العابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبيقي
والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطيب مملؤة أسفاطاً، وعود، وبراني مسك
ونوافج، وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لا يحصى
كثرة.
وكان له مجلس يجلس فيه للشراب في ه صور ثماني جواري متقابلات، أربع منهن بيض من
كافور، وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن
الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر
المجلس استوين قائمات. ووجد له من المقاطع والستور، والديباج والدبيقي الحريري،
والذهب، والفرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجناسها، كل حجرة مملوءة من ذلك،
وعدة صناديق مملوءة حقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال ووجد له ثمانمائة جارية منهن
حظايا خمس وستون، لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوي والآلات الديباج
والذهب والفضة. ومن كل صنف.
قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه مما في داره. وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله
وجباته وضمان النواحي فما لا يحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان
والشمع والحديد والأخشاب وغير ذلك. وكل نوع منه ما يجاوز الحد والإحصاء، ولا يمكن
تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة.
وأما العدد والخيول والسلاح والبقر والغنم والخيام، فقال الخازن لم تتحرر لكثرتها. وقال

حمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار
وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عدل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة
آلاف مركب من أصنافها.
وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله. وحكى الشريف محمد
بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في
سنة ثمان تسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكمله المأمون في وزارته، وولى
خطابته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي
النسابة، وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقي
الشريف المنبر قال: الحمد لله، وأرتج عليه دهش، فلم يزل يكررها إلى أن أضجر الناس،
ونزل وقد هم، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة. ومنها
المسجد الذي على جبل المقطم. وبنى في جامع عمر بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة
السعيدية. والمئذنة المستجدة به أيضاً وجامع الجيزة. وغير ذلك وهو الذي أنشأ التاج
والخمسة وجوه.
قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرج، ثم سميت بالقاتول لأنها
كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان. اشتملت على ألف ألف ذراع
وأربعمائة ألف ذراع وكان ارتفاعها خمسين ذراعاً بذراع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف
ألف دينار.
ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد بن هبة الله
الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:
ضربت خيمة عز في مقر علاً أوفت على عذبات الطود ذي القنن
جاءت مدى الطرف، حتى خلت ذروتها تأوى من الفلك الأعلى إلى سكن
أقطارها مُلئت من منظر عجب يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن
فمن رياض سقاها القطر صيبه فما بها ظمأ يوماً إلى المزن

وجامع في عنان لا يجاذبه وطائر غير صداح على فنن
وأرقم لا يمج السم ريقته وضيغم ليس بالعادي ولا الوهن
ومائلين صفوفاً في جوانبها لو يستطيعون خر الجمع للذقن
زينت بأروع، لا تحصى فضائله ماض من المجد والعلياء في سنن
وأطلع الدست فيها شمس مملكة يرى التأمل فضل العين والأذن
وعد على السعد أن النصر يضربها بالصين، بعد فتوح الهند واليمن
وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكابت بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل:
مهلاً، فقد قصرت عن شأوك الأمم وأبدت العجز منها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت اليوم، أم فلك ويقظة ما نراه منك، أم حلم
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن تسمو علواً على أفق النهى الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة في مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلكاً أن احتوتك، وأنت الناس كلهم ومنها
لديك جيش، وجيش في جوانبها مصور، وكلا الجيشين مزدحم
إذا الصبا حركتها ماج موكبها فمقدم منهم فيها ومنهزم
أخيها خيلك اللاتي تغير بها فليس تنزع عنها الحزم واللجم
علمت أبطالها أ، يقدموا أبداً فكلهم لغبار الحرب مقتحم
أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة، والقاطنون بها لايستطيل على أعمارهم هرم
عَلَت، فخلنا لها سراً تحدثه للفرقدين وفي سمعيهما صمم
إن أنبتت أرضها زهراً، فلا عجب وقد همت من كفها الديم
قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:
أقضيب يميس، أم هو قدٌ أم شقيق يلوح، أم هو خد
أنا مثل الهلال سقما عليه وهو كالبدر حين وافاه سعد
وكانت ولاية لأفضل سبعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.
إمرة الجيوش للمأمون البطائحي
قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوض الآمر
بأحكام الله أمور الدولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي
شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن البطائحي،

وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره. واستقرت نعوته في سجله المقروء على كافة
الأمراء والأجناد بالأجل المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير
المؤمنين. ثم نعت بعد ذلك بالأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين
والدعاة. ثم نعت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهي: السيد الأجل المأمون، أمير الجيوش،
سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين.
قال ناظم سيرة المأمون: ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة من السنة، وهو
يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجاء الناس لخدمته للهناء
على طبقاتهم في أرباب البيوت والأقلام، ثم الشعراء، وركب إلى القصور، فأتى باب
الذهب، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق
الباب الذي اعتادها على الرسم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب
السرداب. فلما شاهد المرتبة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يذكر له ذلك قبل حضوره، ثم
ألجأته الضرورة، لأجل حضور الأمراء، إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثلاثة عن يمينه،
وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة قائمون بين يديه، ومن عداهم لا يصل هذا
الموضع. فما كان بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الأستاذين المحنكين وخرج إليه
الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور، فوقف أمام المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على
السيد الأجل المأمون السلام. فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض، وجلس في موضعه،
وتأخر الأمير الثقة حتى نزل من على المصطبة التي عليها المرتبة وقبل الأرض ويد المأمون،
ودخل من فوره من الباب، وأغلق الباب، على حاله على ما كان عليه الأفضل.
وقال: وكان الأفضل يقول: ما أزال أعد نفسي سلطاناً حتى أجلس على تلك المرتبة وغلق
الباب في وجهي والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الدار في السرداب.
قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي

هيئ له، ودعي لمجلس الوزارة. وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح
المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده واخوته، ثم دخل الأمراء
وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والإنشاء، ثم قاضي القضاة،
والشهود، والداعي، ثم مقدمو الركاب ومتولي ديوان المملكة. ثم دخل الأجناد من باب
البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر
وسلما ببياض أهل البلدين، ثم البطريرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.
ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته. وكانت هذه عادة
السلام على ملوك هذه الدولة. وإنما أوردنا ذلك ليُعلم منه كيف كانت عادتهم.
وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من
جهة المغرب، وانتهوا إلى الإسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فساداً متحكماً. فندب المأمون
إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤتمن، فقاتلهم وهزمهم، وغنم أموالهم. وتوجه إلى
الإسكندرية ودخلها، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا،
فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.
القبض على المأمون
قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض
الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى إخوته الخمسة وثلاثين نفراً
من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين، فصلبه مع أخوته.
وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفراً، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه
يقيمه مكانه في الخلافة واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن
علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصاً بالآمر قريباً منه. وناله من
المأمون أذى كثير، فأعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن
أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من
جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئاً، فتزوجت أمه وتركته فقيراً فاتصل
ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير. فدخل مع الحمالين إلى دار
الأفضل مرة بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة حلو الكلام والحجة،
فسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته
وعلت درجته، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا. قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب
في تاريخ مصر: إن ابن الأثير وهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة
وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل. وأكثر الناس يذكرون ما ذكره ابن الأثير.
وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده
من غلمان المستنصر بالله. والله أعلم.

أخبار أبي نجاح بن فنا
النصراني الراهب وقتله

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح. وكان قد خدم والي الدولة يحنا بن أبي الليث، ثم
اتصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون. وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف
دينار، فأطلق يده فيهم. وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية
وقضاتها وكتابها وغيرهم. ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ
المال. وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنيس من
الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الديباج. وكان
يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك، وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب
والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة.
فاستدعى في بعض الأيام رجلاً يعرف بابن الفرس، وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات
والديانة، والناس يعظمونه ويبجلونه - وأوقع به الإهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في

الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه هذا النصراني من
المسلمين! فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فدخل جماعة على الآمر وخوفوه
العاقبة. وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجلٌ من الأشراف،
فأنشد أبياتاً منها:

إن الذي شُرِّفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فمسكت. فأمر به فقتل. وكان الذي تولى قتله الأمير
مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر. ثم أنزل وربط على خشبة ورمي في بحر النيل
وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي
إلى البحر المالح.

ولما قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعاً فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جدداً، لم
تستعمل. هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديباج.

مقتل الآمر بأحكام الله

وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بجزيرة
مصر بالقرب من المقياس. وثب عليه عشر نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل إلى
الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر إلى اللؤلوة في الخليج، ثم حمل إلى القصر، فتوفي بقية
يومه. وقتل القوم الذين قتلوه.

وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء
سابع عشر المحرم منها، فكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وولايته تسعة وعشرين
وثمانية أشهر ونصف شهر. وكان محكوماً عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر
أمره، وصار يتصرف ويركب في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء وإذا لم يركب في يوم منها
ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيراً للسيف والقلم، بل استبد بأموره وباشرها
بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دماءهم،

وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح. ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من
المسلمين، وقد تقدم خبره.
وولد للآمر في هذه السنة ولد سمى أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.
وزراءه: الأفضل، ثم المأمون.
قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع إبراهيم حمزة الشاهد إلى الأفضل أمير الجيوش أنه
أحدث في مجلس الحكم فعزله، وولي أبا الفضل نعمة بن بشير الجليس النابلسي إلى أن
استقال، فولي الرشيد أبا عبد الله محمد بن قاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعاد الجليس ثم
صرفه، وولي أبا الفتح مسلم، فبقى إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قراءته، وولي
أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فولي
الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الآمر بأحكام
الله.
بيعة الحافظ لدين الله
هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك
الدولة العبيدية والناس من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد مقتل ابن عمه الآمر، في
يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربعة وخمسمائة، بولاية العهد إلى أن يستبرئ
نساء الآمر وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.
قال المؤرخ: لما بويع الحافظ لدين الله ثار الجند الأفضلية وأخرجوا ابن مولاهم، أبا علي
أحمد بن الأفضل، الملقب بكتيفات، وولوه إمرة الجيوش، وذلك في يوم الخميس السادس من
ذي القعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظ صبيحة يوم بيعته، ودعا للإمام المنتظر، وقوي أمر
ابن الأفضل.
وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة: الشافعية
والمالكية والإسماعيلية والإمامية، يحكم كل قاض بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان
قاضي الشافعية الفقيه سلطان، وقاضي المالكية اللبني، وقاضي الإسماعيلية أبو الفضل
ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل.

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الآمر، ورد على الناس بعض
مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم حي على
خير العمل، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر بدعاء اخترعه لنفسه وهو: السيد الأجل
الأفضل، مالك أصحاب الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على
المسلمين، الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته
بماضي سيفه، وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى إتباع شرع
الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولي النعم، ورافع الجور عن
الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم: أبو علي أحمد ين السيد الأجلّ الأفضل شاهنشاه
أمير الجيوش.
واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة. فاتفق
ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري
عادته، فوثب عليه مملوك رومي، وقيل بل من صبيان الخاصة، فطعنه طعنة ألقاه بها عن
فرسه، ونزل واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد. فكانت مدة
تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوماً، ودفن بتربة أبيه خارج باب
النصر.
بيعة الحافظ لدين الله الثانية
قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتاً ،
فانتقلت الخلافة إليه، وأمر أن يدعى له على المنابر، اللهم صلّ على الذي شيدت به الدين
بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن طلوعه على الأمة وظهروه، وجعلته آية لمن
يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون،
وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين.
قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير

الجيوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل. وكان
عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضاً من الحافظ، فدبر
كل واحد منهما على صاحبه، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في إبريق استعمل الماء منه
عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ فكلم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأي
مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لابد أن ينهض إليك ويمشي،
فإذا مشى لا يكاد يعيش أبداً. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك
في السادس والعشرين من ذي الحجة، فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

الخلاف بين ابني الحافظ لدين الله

قال المؤرخ، وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حيدرة
وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين، وهما الريحانية
والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر رمضان ووقع الحرب بينهما بين القصرين،
وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان،. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده
حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك، فوقع الاختلاف والحرب بينهما.
واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن
ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده
من بعده. وتمكن حسن من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه
حكم.

مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة
وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، وقبض على جماعة من
الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل. وأقام غيرهم، فخافه من بقي من
الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة فاجتمعوا بين

القصرين، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه، فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم،
وهرب الحسن إلى أبيه فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لابد من قتله، فسقاه
أبوه سماً فمات، وجعله على سرين، وأمر الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا.
وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ.
وزارة بهرام الأرمني
وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر
الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك. وكان بهرام المذكور قد
وصل إلى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلاً وافراً وإقداماً في الحرب وحسن
تدبير.
وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره
فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الحافظ
للوزارة. واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل،
وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع
الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء،
من زمن أمير الجيوش. بدر الجمالي، ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة
عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا، وهو وزير
السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه الناس فيه قاضي القضاة، وأم ذكره في الكتب
الحكمية فلا حاجة إلى ذلك. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.
وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ وأنه سار منها مجداً إلى أن وصل
إلى القاهرة وحاصرها يوماً واحداً ودخلها. فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ
أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل
باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا
على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بني له

كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية، وكثرت الشكايات فيه. وكان
أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية التي بالقرب من إطفيح، قد ولي الأعمال
القوصية فجار فيها جوراً عظيماً واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس.
خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان ابن الولخشي
قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان بن الولخشي، وذلك
في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ متولي الغربية ولاه بهرام إياها إبعاداً له،
فلما أتته كتب الأمراء نهض في طلب الوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبة بليغة حرض
الناس فيها على الجهاد. فأجابوه. وحشد العربان وقدم إلى القاهرة. كان الأمراء قد
كاتبوه وقالوا: إذا وقع الوجه في الوجه ارفع المصاحف على الرماح فإننا ننحاز إليك، ففعل
ذلك. وخرج بهرام إليه لما قرب من القاهرة، فلما عاين الأمراء والجند المصاحف التحقوا
جميعهم برضوان، وبقي بهرام في الأرمن خاصة. فراسل الحافظ وقال: أنا ألقاهم بمن معي.
فخاف الحافظ عاقبة ذلك، فأمره أن يتوجه إلى قوص ويقيم عند أخيه الباساك إلى حين
يدبر أمراً. فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ما خف حمله، وخرج من باب البرقية في حادي
عشر جمادى الأولى، وتوجه إلى الأعمال القوصية.
قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوام منازل الأرمن، وكانوا قد نزلوا الحسينية وعمروها
دوراً. ولما اتصل بأهل قوص انهزام بهرام ثاروا بأخيه الباساك وقتلوه ومثلوا به، وربطوا في
رجليه كلباً ميتاً، ورموه على مزبلة. فقدم بعد ذلك بهرام بعد ذلك بيومين، ومعه طائفة من
أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقتل جماعة من أهل قوص بالسيف ونهبها وسار
إلى أسوان. ثم رجع ونزل بالديرة البيض، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.
قال: ولما فارق بهرام القاهرة دخلها رضوان ووقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما
يفعله، فأمره بالنزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل، وندب
رضوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الدين، فتوجهوا إلى بهرام، فاستقر الأمر بينهم

أن يقيم بالديرة البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر ودبر رضوان الأمر أحسن
تدبير، وصادر جماعة من أصحاب بهرام وشدد عليهم الطلب، وقتلهم بالسيف.
وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل
الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته أنها تعمل برجليها ما يعمله
الناس باليدين من خ ورقم وغير ذلك. فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى
وتأملتها قلماً قلماً فلم ترض شيئاً منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلماً وشقته وقطته،
واستدعت ورقة فمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب
النساء بأيديهن مثل، وحمدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدتها قد
سألته الزيادة في راتبها، فزادها، وأعادها إلى بلدها.
وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالإسكندرية، واستدعى الفقيه أبا طاهر بن
عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسها.
خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل
وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد،
وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند،
فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في
القصور، فلم يمكنه. فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته على لقاء العساكر، فهرب
إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين والي صرخد، فأقام عنده
فأكرمه. ثم عاد إلى مصر في سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعاً صالحاً من الجند،
فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى إلى
الصعيد. فندب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبا الفضل بن مصال بأمان، فسار إليه
وتلطف به، إلى أن أحضره إلى القصر، في رابع شهر ربيع الآخر من السنة، فاعتقله في بعض
قاعات القصور. فأقام في الاعتقال إلى سنة واثنتين وأربعين، فخرج من نقب نقبه في القصر،

وذلك في ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة منها. وركب وحوله جماعة ممن كان يكاتبه،
وتوجه إلى الجيزة، ولي عسكر الحافظ وقاتلهم عند جامع ابن طولون، فهزمهم. ودخل
القاهرة، ونزل بالجامع الأقمر، وأغلق الحافظ باب القصر في وجهه، فاستحضر رضوان
أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، فعرضهم، وأخذ أموالاً كثيرة
خارجة عن القصر كانت في الدواوين، وأنفق: وأرسل إلى الحافظ في طلب المال، فأرسل
إليه عشرين ألف دينار، وأرسل إلى الحافظ في طلب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار.
وأمر الحافظ مقدمي السودان بالهجوم على رضوان وقتله، فهجموا عليه، فهم بالركوب،
فاعجلوه عن ذلك، وضربه بعضهم بسيف فقتله. وقتل معه أخوه، وأحضرت رأساهما إلى
الحافظ. وسكنت الفتنة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجة رضوان فلما وقع في حجرها قالت:
هكذا تكون الرجال. فلم يكن في وقت رضوان أسمع منه.
وكان مولده في سنة تسع وثمانين وأربعمائة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال
الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.
وفاة بهرام الأرمني
كانت وفاته لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بالقصور، وكان
الحافظ قد أسكنه بدار بها ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير الدولة والأمور
ويصدر عن رأيه. فلما هلك حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.
وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر، وأمره بتجهيزه، فجهزه. وأخرج وقت صلاة الظهر في
تابوت عليه الديباج، وحوله جماعة من النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود،
وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان. ثم خرج الحافظ على
بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان. ولم تزل الناس مشاة
والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل
بل في بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير
القبر، وبكى بكاء كثيراً.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعاً وأربع أصابع،
ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من
القاهرة إلى مصر من جهة المقابر. ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والانقطاع،
فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتاباً وقال له: انظر هذا السطر،
فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا
الكتاب الذي تعلم منه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها.
وفاة الحافظ لدين الله
وشيء من أخباره
ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره
كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة،
ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة
عمره ستاً وسبعين سنة وشهوراً، ومدة ولايته منذ بويع البيعة العامة الثانية، بع قتل أحمد بن
الأفضل، ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً.
قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفاً بالبطش والتيقظ، وكان شديد المناقشة. وهو الذي
عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل
من سبعة معادن والكواكب السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به ضربة
خرج الريح من مخرج الضارب.
قال بعض المؤرخين: إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من
لمدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة
السلجقية، فأرسل نحواً من أربعين رجلاً من أهل النجدة والقدرة ، فتوجهوا إلى المدينة
وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سرباً من مكان بعيد، وعملوا حساب الخروج من
المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي
اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.
وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته

أيضاً، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف.
ووزراؤه، تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الولخشي لم يستوزر بعده أحداً، وإنما كانوا
كتاباً. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان القاضي الفاضل يقول: لم يسمح
الزمان بمثله.
ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي، في جملة شعره في قصيدة:
ذكر الدوح وشاطئ بردى وحباباً فيه يحكى برداً
والصبا يمرح في أرجائه وتحوك الريح منه زرداً
ينثر الدر عليه فضة وتذيب الشمس فيه عسجداً
ورشأ لو لم تكن ريقته خمرة صافية ما عربدا
قضاته: لما غلب أحمد بن الأفضل على الآمر، أبقي محمد ابن هبة الله ابن ميسر
القيسراني على القضاء، ثم صرفه الحافظ واستقضى أبا الفخر صالح بن عبد الله بن أبي
رجاء، ثم قبض عليه الوزير يانس الرومي وقتله، فولي سراج الدين أبو الثريا نجم من جعفر،
مضافاً إلى الدعوة، إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، فأعيد سناء الملك بن
ميسر، فأقام إلى أن قبض عليه يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسير
تنيس فقتل بها. وولي بعده القاضي الأعز أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن
أبي عقيل، إلى أن توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم
ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي
القعدة منها. ثم جرت مفاوضة بينه وبين النبيه أبي الحسن علي بن إسماعيل، قيل أدت
إلى مصافعة خرج في أثنائها القاضي إلى القصر وهو مخرق الأثواب وقد تحلقت عمامته في
حلقه، فعظم على الحافظ خروجه على هذه الهيئة وغرمه مائتي دينار، واستناب أبا طاهر
إسماعيل بن سلامة الأنصاري، فأقام في النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر
جاري القضاء، وهو أربعون ديناراً في كل شهر، وخدم لجاري التقدمة في الدعوة، وهو
ثلاثون ديناراً، في الوظيفتين، فأجيب إلى ذلك وأقام إلى أن صرف لسبع خلون من صفر
سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعوة. وولي القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن

المقدسي إلى آخر المدة.
بيعة الظافر بأعداء الله
هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، وهو الثاني
عشر من ملوك الدولة العبيدية
والتاسع من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد وفاة أبيه
لخمس خلون من جمادى
الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة. واستوزر الأمير نجم الدين
أبا الفتح سليم بن محمد
بن مصال، ونعته بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش، وكان إذ
ذاك من أكابر أمراء الدولة.
وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمع السودان وجماعة من
المفسدين بالبهنسانية، فخرج
إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم.
قيام العادل بن السلار
ووزارته ومقتل ابن مصال
في هذه السنة ثار الأمير المظفر أبو الحسن على بن السلار
والي الإسكندرية وخرج
وحشد وتقدم بمن معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع
شعبان، ووقف على باب
القصر، وراسل الظافر والمدبر له من النساء، فراجعت في ذلك
وفاء لابن مصال، ثم أجيب
إلى ما سأله. وفتح باب القصر، وخل على المظفر خلع الوزارة
ولقب بالعادل. فلما اتصل
ذلك بابن مصال جمع عربان البلاد، ووافقه بدر بن رافع مقدم
العربان بتلك البلاد، وقصد
ابن السلار فندب إليه ربيبه عباس بن يحيى بن تميم بن المعز
بن باديس بعسكر معه.
فعسكر ببركة الحبش. فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجد
في السير وكبس عسكر
عباس، فأثخنهم جراحاً وقتلاً، فانهزم عباس.
وأجمع ابن مصال رأيه على قصد بلاد الصعيد، فعاجله ابن السلار
وأمد ربيبه بالعساكر
وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقرب من دلاص، والتقوا
بينها وبين مهد، وهي قرية
هناك، واقتتلوا، فانجلت الحرب عن قتل ابن مصال وبدر بن
رافع. وكانت هذه الوقعة في يوم
الأحد تاسع عشر شوال. وحمل رأس ابن مصال إلى القاهرة،
وطيف به. وخلع على
العادل في ذلك اليوم.
وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادل أبواب
القاهرة والقصور، وقبض على

صبيان الخاص وقتلهم، وكانوا جمعاً كثيراً وهو أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة فكان
الرجل إذا توفي وخلف أولاداً حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم،
ويؤخذ في تعليمهم الفروسية وغير ذلك، وتسموا صبيان الخاص. وكان سبب إيقاع العادل
بهم أنه بلغه أنهم تعاقدوا على قتله، فبادر بهم. وقبض عليهم، وقتل أكثرهم، وجعل من
بقي منهم في المراكز بالثغور.
وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال من السنة قتل العادل أبا المكرم الموفق محمد بن
معصوم التنيسي ناظر الدواوين، وكان سبب ذلك أن العادل في مبدأ أمره كان من صبيان
الحُجر وكان يتكرر دخوله إلى الموفق برسائل ويكلمه بكلام غليظ فكرهه الموفق، ثم كتب
بعد ذلك لابن السلار منشور بإقطاع، فدخل به إليه، فتغافل عنه وأهمل أمره: فقال له ابن
السلار: ما تسمع؟ فقال: كلامك ما يدخل في أذني أصلاً. فأخذ ابن السلار منشوره
وخرج من حيث أتى. فلما ولي أمر الدولة دخل عليه الموفق وسلم عليه، فقال له: ما أظن
كلامي يدخل في أذنك. فتلجلج بين يديه وقال: عفو السلطان. فقال: قد استعملت للعفو من
حين خروجي من عندك، ما أتيتك به. وأشار لبعض خدمه فأحضر مسماراً من حديد
عظيم الهيئة، وقال: هذا والله أعددته لك من ذلك الوقت. وضرب المسمار من أذنه حتى
نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها حتى
مات.
ما فعله الفرنج بالفرما
وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم
وفي شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبوها وأحرقوها
وعادوا إلى بلادهم. فجهز العادل المراكب الحربية وشحنها بالرجال وسفرها في شهر ربيع
الأول سنة ست وأربعين، فمضت إلى يافا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولوا على عدة
كثيرة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقاً كثيراً. ثم امتدوا إلى
ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم بيافا. وكذلك فعلو بصيدا وبيروت وطرابلس. وأنكوا في

الفرنج نكاية عظيمة. ووجدوا طائفة كثيرة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم. وكان
جملة ما أنفق في هذه الأسطول ثلاثمائة ألف دينار.
وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمراء والدواوين عن أربابها،
وتوفرت.
مقتل العادل بن السلار
وسلطنة ربيبة عباس
كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. وكان سبب ذلك أن العادة
كانت جارية بتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج
قد حاصروها في سنة سبع وأربعين. فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البدل على
عباس ربيب العادل، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر،
وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولا غنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه. فخرج
عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصاً
بعباس فلما وصلوا إلى بلبيس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا
إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده، فقال له
أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر. قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك
نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت
السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.
فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة. فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل،
واجتمع بالظافر وأعلمه في الحال، فأجاب لما طلب.
ثم مضى نصر إلى عند جدته، زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من
السفر. ومضى العادل إلى مصر وجهز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً
وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد إلى داره بالقاهرة وهو على غاية من
التعب. فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به إلى القصر، ودخل إلى

الظافر، وجهز إلى أبيه، فركب لوقته، ودخل القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من
المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك،
فلاطفهم وطمأنهم، فلم يطمئنوا. ومضوا إلى دمشق.
وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الأكراد الزرزارية. ولما قتل
طيف برأسه في القاهرة جميعاً. ونصب الظافر عباساً في السلطنة.
مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه
كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً
متنكراً ومعه خادمان وجاء إلى دار نصر ابن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر
بن القاسم ثم عرفت يسكن المأمون بن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في
وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابله. بخد سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء
الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل
أحد الخادمين وهرب الآخر.
وكان سبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعابس وقال له:
كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع
النساء! فعظم ذلك على عباس. وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس
بقليوب، فجاء نصر إلى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية. فقال
عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي
لولدك في هذا الدار خفية، فإذا أتاه فأمره بقتله. وأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله
نصر.
قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى إلى القصر، فقال لبعض
الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه. فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من
الاجتماع بالخليفة. فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد. فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر،
فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل إلى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لا بد من

مولانا. فقيل له عند ذلك: أنت أعلم بحاله. فأحضر أخويه يوسف وجبريل وقال لهما: أنتما
قتلتما مولانا. فأنكرا ذلك وحلفا عليه الأيمان المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من
الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه. فأفتوه
بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معهما أبا البقاء ابن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة،
مصلح، زمام القصر.
قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجهاً. وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر
ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة
أشهر وخمسة عشر يوماً، ومدته ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.
ولده: أبو القاسم عيسى.
وزراؤه: تقدم ذكرهم.
قضاته: أبو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بن السلار في سنة سبع وأربعين، وولي أبا
المعالي مجلي بن نجا المخزومي، فأقام إلى أخر الدولة.
بيعة الفائز بنصر الله
هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بأعداء الله، وهو الثالث عشر من ملوك الدولة العبيدية
والعاشر من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد مقتل والده في يوم الخميس سلخ المحرم
سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وعمره خمس سنين. وذلك أنه لما قتل الظافر استدعى
عباس ابنه أبا القاسم عيسى هذا وحمله على كتفه، ووقف في القاعة، وأمر أن تدخل
الأمراء، فدخلوا، فقال: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه كما ترون، والواجب الطاعة
لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي
واختل. ثم سيره إلى أمه ولقب بالفائز، فأقام يصر في كل يوم.
وانفرد عباس بالوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبق على يده يد، وظن أن الأمر استقام له.
خروج عباس من الوزارة
وما آل إليه أمره
قال المؤرخ: لما قتل الظافر بأعداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعوا في إعمال

الحيلة على عباس، ووافق ذلك نفور الأمراء منه لإقدامه على القتل: فاختلفت الكلمة
عليه، وهاجت العساكر. وتفرقت الفرق، ولبسوا السلاح. فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين
عاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم. فأرسلت عمة الفائز
أخت الظافر شعور أهل القصر طي الكتب إلى الأمير طلائع بن رزيك، وهو إذ ذاك متولي
الأعمال السيوطية، وقيل كان متولي منية بني خصيب، وسألوه الانتصار لمولاه فجمع العربان
والأجناد ومقطعي البلاد، وسار إلى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول
من السن، وخرج الناس للقائه.
فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشار عليه باللحاق بالشام. فدخل إلى القصر وأخذ في
جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هو وأسامة بن منقذ إلى الشام على طريق أيلة. فأرسلت
عمة الفائز إلى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج
على عباس وأخذ ما معه. فخرجوا إليه وقاتلوه، فتخاذل عنه أصحابه، ونهبوا ما معه
فأسره الفرنج وحملوه إلى عسقلان، ونجا أسامة إلى دمشق.
وقيل إن الفرنج قتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ففداه الصالح بن رزيك، وأحضره إلى
القاهرة وضرب عنقه.
وزارة الصالح أبي الغارات
طلائع بن رزيك
قال المؤرخ: لما توجه عباس نحو الشام وافق ذلك قدوم طلائع من رزيك، فخرج الأمراء
والعساكر إليه. فمن الأمراء من شهر سلاحه وقاتله، ومنهم من التحق به، ثم انجلى الأمر
بعد ساعة عن دخول طلائع إلى القاهرة والعساكر بين يديه. وشق القاهرة وهو لابس
السواد، وأعلامه سود كذلك حزناً على الظافر، وشعور نساء القصر التي سيرت إليه على
الرماح.
ونزل طلائع دار المأمون التي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر
لما قتل وأعلمهم بمكانه، فأخرج وغسل وكفن، وحمل في تابوت على أعناق الأمار
والأستاذين، وبان رزيك يمشي أمام التابوت. وأتوا به إلى القصر فصلى عليه ابنه الفائز

ودفن في تربتهم بالقصر وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد،
وعلى ولده وإخوته وحاشيته، وقرئ سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على
جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشري شهر ربيع الأول من السنة.
وفي سنة خمس وخمسمائة خرج الأمير تميم. متولي إخميم وأسيوط، علي الصالح، وجمع
جمعا
صلى الله عليه وسلم صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكراً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في
سابع عشر رجب.
وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز
الصالح الجيوش والسرايا إلى بلاد الفرنج. فوصل سرية إلى عسقلان وغنمت وعادت
سلمة. وجهز المراكب في البحر إلى نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج. وجهز سرية إلى
جهة الشوبك فعانوا في تلك النواحي، وعادوا سالمين بالغنائم والأسرى.
وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح ابن رزيك على
الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر
وقصد القيام على الصالح، وكان واليا عاملاً على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل
في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.
وفي سنة أربع وخمسين ثار علي الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولي الإسكندرية،
وجمع جموعاً من العربان وغيرها، وتقدم بها لحره، فندب الصالح إليه الأمي عز الدين حسام
بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.
فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلباً لثأره، وتلقب بالملك
الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش. فلما هجمت عليه هرب وأتى الجيزة، واستتر عند
بعض العربان. فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو
والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم
مُسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد أن ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصناً من اللبن على مدينة بلبيس.
وفاة الفائز بنصر الله
كانت وفاته في ليلة الجمعة السابع عش رمن شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة،
وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين،
فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأياماً، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر
وسبعة عشر يوماً.
وزراؤه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم، ثم الصالح طلائع بن رزيك.
قضاته: أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي، ثم صرف في أول وزارة الصالح،
وأعيد أبو الفضائل يونس، ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.
بيعة العاضد لدين الله
هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ بن عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر
بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم المعز لدين الله أبي تميم معد، بن
المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي
عبيد الله. وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار
المصرية منهم، وعليه انقرضت دولتهم. بويع له بعد وفات الفائز بنصر الله في يوم الجمعة
السابع عش رمن شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.
وكان الملك الصالح طلائع قصد أن يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض
أصحابه لا يكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد
هو بالأمر. فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد
اسماً وللصالح رسماً.
ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين الذين قتلهما عباس بعد قتل الظافر.
وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدي الله بابنة الملك الصالح بن رزيك، وكان
العاضد توقف عن زواجها، فجبره الصالح على ذلك واعتقله إلى أن تزوجها، وقصد بذلك

أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.
مقتل طلائع بن رزيك
وقيام ولده الملك العادل رزيك
كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة. وذلك أنه
ركب في هذا اليوم من دار الوزارة إلى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى
المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة
ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك أنه تحكم في الدولة لخلوها منا الأمراء وصغر سن
العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور عمة العاضد الأموال
إلى بعض الأمراء وأغرتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما كان ضُرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد
نفسه عليه وقاتل ونه ودخل بقية الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست
القصور وقد ركب أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل إلى العاضد يعاتبه على
ما كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل الصالح إلى
ست القصور وأخرجها، فلما جاءت إلى منزله أمر بخنقها، فخنقت بين يديه حتى ماتت.
ومات الصالح في بقية ليلته.
قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان يكره أهل السنة. وقيل
إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم، وغضب على من يتنقصهم. وكان في بخل
وحسد. ومنع في أيامه من بيع الغلال حتى غلت الأسعار. وكان كثير التطلع إلى ما في
أيدي الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً. وهو أول
من وطب بالملك في الديار المصرية.
وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني الذي ارتد عن الإسلام في
خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك،
قدم مع أمير الجيوش بدر الجمالي.
قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمور دولته شاعراً أديباً. قال القاضي الأرشد

عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته بليلتين فناولني رقعة وقال: قد عملت هذين
البيتين في هذه الساعة، فإذا فيها:
نحن في غفلة ونوم وللمو ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً ليت شعري! متى يكون الحمام!!
فقلت : هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.
قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً فالثلث الأول مع أمراء دولته ووجوهها، والثلث
الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث الثالث مع خواص نسائه. فكان يسمى: أبو
العمرين قال: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي:
ومن شعر الصالح قوله:
يا مريض القلب بالذن ب، متى بالعفو تبرأ
كلما جددت يوماً توبة ضيعت أخرى
تشتهي الأجر ولا تف عل ما يكسب أجرا
أترى بعد ذهاب ال عمر تستأنف عمرا
وقوله:
يا ما شياً فوق الثرى رفقاً، فسوف تصير تحته
إن قلت أني أعرف ال مولى القدير، فما عرفته
إن كنت تعبد للمخا فة والرجاء، فما عبدته
والصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة المعروف به، وكان يقول: ندمت على ثلاثة:
أحدها أنني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقت
الحصار، والأخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لا كان خراب دولة بني رزيك إلا على
يديه، والثالثة أنني أنفقت في العسكر مائتي ألف دينار لأجل فتح بيت المقدس فتأخرت عن
ذلك.
قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.
قال: ولما حضرته الوفاة أحضر ولده رزيك وأوصاه بوصايا كثيرة، من جملتها أنه لا يعزل
شاور ولا يغير عليه مغيراً.
قال: ورثاه الشعراء بقصائد كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني:
أفي ذا النادي عليم أسائله فإني لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده ويذهل واعيه، ويخرس قائله
ومنها:
وقد رابني من شاهد الحال أنني أرى الست منصوباً وما فيه كافله

وأني أرى فوق الوجوه كآبة تدل على أن النفوس ثواكله
دعوني. فما هذا أوان بكائه سيأتيكم طل البكاء ووابله
وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب
قال: ولما مات الصالح خرجت الخلع من القصر لولده، وتلقب بالملك العادل مجد الإسلام.
ظهور حسين بن نزار وقتله
وفي شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ورد حسين بن نزار، بن المستنصر بالله
ابن الظاهر لإعزاز دين الله من بلاد المغرب، وقد جمع جمعاً عظيماً وتلقب بالمنتصر بالله،
فخرج إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة ابن رزيك على صورة الانضمام واللحاق به. فما
صار عنده في خيمته غدر به وقتله، وحمل رأسه إلى العاضد لدين الله.
وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البرج المعروف به بثغر الإسكندرية.
انقراض دولة بني رزيك
قد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك، والد العادل، لما حضرته الوفاة أوصى ابنه العادل
بوصايا كثيرة منها أنه لا يعزل شاور من عمله ولا يحركه، وحذره من ذلك فلما صار في
سنة سبع وخمسين اجتمع أقارب العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد،
فذكرهم بوصية أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدهم في ذلك الأمير عز الدين حسام ابن
فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتاباً يستدعي فيه شاور ويأمره بالحضور إلى القاهرة فكتب
إليه شاور يستعطفه ويظهر الطاعة والإدلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته في القيام بأمور
الدولة، ثم قال فيه إن كان القصد أن يلي الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من يتسلمها غير
عز الدين حسام، وإن كان غيركم من الأمراء فأنا أحق به من سواكم، وقد سمعتم وصية
أبيكم الصالح في حقي وما كرره عليكم وإقرار أعمال الصعيد في يدي. وأرسل الكتاب
إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله. فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولا
يحمل إليك مالاً. فقال العادل لهم: المصلحة تركه. فصمموا على عزله.
فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال

القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه
ووصوله إلى القاهرة. وتوجه نصير
الدين. فلما وصل إلى إخميم أقام بها وأرسل الكتاب إلى شاور
طي كتابه، فلما وقف
شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولاً من جهته
برسالة يقول له: إن بيني وبينك
صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك.
رجع نصير الدين إلى
القاهرة ولم يعاوده.
وأظهر شاور العصيان على الدولة. وأحضر جماعة من العربان
من بني شيبان وغيرهم،
وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج
منها إلى تروجه، وحشد
العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم
نحو القاهرة، فندب العادل لحربه
سيف الدين حسيناً، صهره، ومعه جماعة من الأمراء. فراسلهم
شاور واستمالهم، وبذل
لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته
وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين
واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام فأجاره، وحمله في
البحر، فمضى إلى مدينة الرسول
صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين
حساماً، فانهزم منه أيضاً.
فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح،
واستصحب أهله وذخائره.
وستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه
الصالح، فأنزله عنده، ومضى
من وقته إلى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة
فأخذوه أسيراً هو ومن معه،
ونهب أصحاب ابن الفيض ما كان معه. وحمل إلى شاور فوصل
إليه في ليلة الجمعة لثلاث
بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأمر شاور
باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض:
لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا
أخبئك ذخيرة لولدي.
ثم أمر به فشنق. وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك
اليوم، فهي تعرف الآن بهذا
الاسم. فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً.
وجميع دولة بني رزيك تسع
سنين تقريباً.
وزارة شاور الأولى
وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. وذلك أنه
لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها
شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه
بأمير الجيوش. وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في
أيام بني رزيك واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم. وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم
الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم
وبالعاضد. وعتا ولده الكامل وتجبر، وليس بداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير
وجوه مصارفها.
وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة.
فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع من ذلك وقال: إنه
أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه. فعظم ذلك على شاور وعلى
الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا عن شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان
الضرغام وإخوته وأهله فرقة، و والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.
وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين. فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله
وذخائره وغلمانه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في أثره فلحقه عند باب النصر،
فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر أخوه الكامل، ومضى شاور إلى الشام. وذلك في
صبيحة يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة. فكانت وزارته ثمانية أشهر
وخمسة أيام. والله أعلم.
وزارة الضرغام بن سوار
قال: ولما توجه شاور إلى الشام وعاد الضرغام إلى القصر وأرسل إلى العاضد بما كان من
أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته. وجاء القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد
لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستحلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك بن النحاس إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام،
يقبض على شاور. فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ظاهره.
قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام،
فأشهره بالقاهرة، وصلبه. وأحضر جماعة من الأمراء إلى داره لدعوة عملها، فلما حضروا
إليه قبض عليهم وقتلهم.
قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام
كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة.
وذلك أنه لما توجه إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له
أن يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها، والتزم أنه يحمل خزائنها إليه
يستعين بها على قتال الفرنج. فمال إليه، وجهز معه أسد الدين شيركوه بعساكر. فلما
قاربوا مصر ندب إليهم الضرغام عسكراً وقدم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقيهم على
بلبيس، فانهزم العسكر المصري وعاد إلى القاهرة.
وسار شاور والعساكر الشامية، فنزل بظاهر القاهرة في آخر الشهر، واجتمع معه خلق
كثير من العربان. فعلم الضرغام أنه لا قبل له بما دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به،
وجعل ينادي العاضد، وهو يخاف أن ينزل إليه. فأرسل إليه العاضد يقول: انجُ بنفسك
فخرج من القاهرة يريد مصر، ودخل شاور وشيركوه إلى القاهرة، وندب جماعة إثر الضرغام
فأدركوه عن مشهد السيدة نفيسة، فقتلوه هناك في يوم الجمعة، لليلتين بقيتا من جمادى
الآخر . وطيف برأسه القاهرة على رمح، وبقيت جثته ملقاة بين الآكام ثلاثة أيام حتى
أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك
الضرغام تسعة أشهر.
وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحب العلماء ويقربهم، وله مجلس يجتمع فيه أهل
العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخط، يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.
قال: ودخل شاور إلى العاضد لدين الله في مستهل شهر رجب، فعاتبه على ما كان منه في

إحضار العسكر الشامي، وحذره عاقبة ذلك، فوعده أنه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك
منه، وخلع عليه خلع الوزارة.
غدر شاور بشيركوه
قال: ولما انتصب شاور في الوزارة وتم له ما أراد، أخذ في التدبير على العسكر الشامي،
وحلف الأمراء، وتخاذل عن شيركوه، وصار يخرج إليه بوجه عليه آثار الغضب. ففهم
أسد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور أنه لا قبل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج واستدعاهم
من الساحل لنصرته، ووعدهم بالأموال. واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.
واتصل خبر شاور بالملك العادل نور الدين، فكتب إلى أسد الدين وأعلمه بما بلغه من
مباطنة الفرنج، وأمره بالخروج عن الديار المصرية. فأبى ذلك وتوجه إلى بلبيس، واحتوى
على بلاد الحوف، وجعل مدينة بلبيس ظهره. فاجتمعت العساكر المصرية ومن أتاهم من
الفرنج، ونازلوا أسد الدين، وحصروه ببلبيس ثلاثة اشهر، وهو ممتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما
هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج أن نور الدين ملك حارم وسار إلى بانياس، فراسلوا
شيركوه يسألونه الصلح، فأجابهم إلى ذلك، وخرج من مدينة بلبيس، فلما صار بظاهرها
أشار شاور على تلك الفرنج بمهاجمته وقبضه فامتنع مري، ملك الفرنج، وأبى إلا الوفاء
بيمينه لشيركوه.
وسار أسد الدين إلى الشام، وعاد شاور إلى القاهرة، ومعه طائفة من الفرنج يتقوى بهم.
وكان قد بذلك لهم على نصرته أربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين.
وكان دخول شاور إلى القاهرة لِست مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من
غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.
عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله
قال المؤرخ: لما انفصل أسد الدين شيركوه عن الديار المصرية في سنة تسع وخمسين، بقي
عنده منها أمر عظيم. وكان إذا خلا بنور الدين الشهيد يرغبه فيها. فجهزه بالعساكر
والحشود، فسار من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنين وستين وخمسمائة، فاتصل ذلك

بشاور، فراسل الفرنج وانتصر بهم. فخرج الفرنج ووقفوا على الطريق التي يسلكها شيركوه
إلى الديار المصرية، فعدل شيركوه عن تلك الطريق وجعلها عن يمينه، وسار حتى نزل
إطفيح، في سادس شهر ربيع الآخر. وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة، وأقام
عليها إلى العشرين من جمادى الأولى. واستولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى
الفرنج يستحثهم، فأتوه على الصعب والذلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.
فلما تكاملوا بالقاهرة توجه أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وسار شاور والفرنج في
آثارهم. فجمع أسد الدين الأمراء واستشارهم في العبور إلى الجانب الشرقي والعود إلى
الشام، فوافقوه على ذلك، فنهض شرف الدين بزغش، أحد الأمراء المماليك النورية، وكان
شجاعاً مقداماً، وأنكر ذكر كل الإنكار، وامتنع من الموافقة، وقال: من خاف من الأسر أو
القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نزال نقاتل إلى
أن نقتل عن أخرنا أو ننتصر. فوافقه أسد الدين، وجمع عسكره ورتبهم، وجعل أثقاله في
القلب ليكثر بها السواد ولئلا ينهبها أهل البلاد.
فبينما هم في التعبئة إذا بشاور والفرنج قد أقبلوا، ورتبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمة على
شاور والفرنج وتوالت عليهم الحملات من العسكر الشامي، فتمادت بهم الهزيمة إلى الجيزة،
وشيركوه في آثارهم. وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم. وأسر أسد الدين صاحب
قيسارية.
ودخل شاور والفرنج إلى القاهرة، وملك أسد الدين البر الغربي بكماله، وقصد
الإسكندرية ليحاصرها. فلما قرب منها خرج إليه أهلها وسلموها إليه من غير ممانعة،
وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدين بن مصال. فدخل شيركوه البلد، وأقام بها أياماً قلائل،
واستناب بها صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين أيوب، وتركه بها ومعه ألف فارس.
وتوجه هو إلى الصعيد فاستولى عليه، واستخرج أمواله وصام شهر رمضان بمدينة قوص.
هذا وشاور يتجهز للخروج ويرتب أحواله وأحوال الفرنج ويرم ما تلف لهم. فلما تكامل ما

يحتاج إليه قصد الإسكندرية، فأخرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكان في
جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.
وسار شاور ومري ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندرية. فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم
على الحصار، تقدم شاور إليهم وقال: سلموا إلى صلاح الدين ومن معه وأضع عنكم
المكوس، وأعطيكم الأخماس. فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج
والإسماعيلية. فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت
الأقوات.
وبلغ ذلك أسد الدين فسار من الصعيد وجد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد
أفسد التركمان الذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمع لشيركوه طائفة كبيرة من العربان،
فملا علم شاور بقربه خافه وراسله في طلب الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار، سوى ما
أخذه من خراج البلاد، على أن يفارق الديار المصرية. فأجاب أسد الدين إلى ذلك،
وشرط عليهم أن يرجع هو إلى الشام ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة،
وحلف الفرنج عليها.
ففتحت الإسكندرية عند ذلك، وخرج صلح الدين يوسف إلى مري ملك الفرنج وجلس
إلى جانبه. فدخل شاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنة خمسين ألف
دينار. فقال مري: نحن إذا حلفنا لا نغدر، ووبخه. وكان أسد الدين قد شرط على شاور
أن الفرنج يرحلون ولا يلتمسون من البلاد درهماً ولا ضيعة ولا غير ذلك.
قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بلبيس. وأرسل إلى ابن
أخيه يوسف أن يوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من
الأثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.
هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه. قال: وارتحل أسد الدين من بلبيس في نصف
شوال، ودخل شاور إلى الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل
ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد
فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.
وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الزارة، فندب
شاور عسكراً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.
وصول الفرنج إلى القاهرة
وحصارها وحريق مصر
قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسمائة عاد الفرنج إلى القاهرة. وذلك انهم لما توجهوا
في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها
من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلوّ مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري
واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم. فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها
فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل
أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه
فهو لهلاك الفرنج وخروجهم من الشام. فلم يقبلوا رأيه، وقالوا ما يصل عسكر نور الدين
إلينا إلا وقد ملكناها. وغلبوا على رأيه.
فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس ونالوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع
شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر
خندقاً. وملك الفرنج بلبيس عنوة وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء
المصرين ممن هرب من شاور، منهم يحيى الخياط.
ثم ساروا إلى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا
القتال أن يحل بهم ما حل بأهل بلبيس ، فجدوا في القتال والاحتراز.
قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر،
ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فانتقل بعضهم وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه
آخرون في المراكب إلى ثغرى الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا
وذهبت أموالهم. كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم.

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.
قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك
العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.
وقيل إن شاوراً أرسل إلى نور الدين أيضاً.
وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل
إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي
ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين. فاستوثق شاور منه بالأيمان وعجل له مائة ألف
دينار، وماطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير
خمسة آلاف دينار لضعفهم.
هذا والرسل تتابع إلى الملك العادل ويستغيثون به. وقرر له ثلث الديار المصرية.
قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب
في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك.
فاختار أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر.
وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً. ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في
منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين
جرديك، وشرف الدين بزغش وعين الدولة الياروقي، وناصح الدين خمارتكين، وقطب الدين
ينال بن حسان المنتبجي، وغيرهم. والله أعلم.
قدوم شيركوه إلى مصر
ورحيل الفرنج عنها
قال: وقدم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فكان وصوله إلى مصر في يوم الثلاثاء لليلة بقيت
من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة. ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القاهرة إلى
بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر
ألف نفس. ودخل أسد الدين إلى القاهرة في سابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد

لدين الله وتلقاه. وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب
العاضد، وخلع عليه، وفرح الناسب بقدومه وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء
النيران وإصلاح ما تشعث. وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قد احترقت
فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.
قال: وأمر العاضد أسد الدين بالنزول على شاطئ النيل بالمقس، ورتب له شاور ولمن معه
الإقامات الوافرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليه في كل يوم. فطلب أيد الدين من
شاور مالاً ينفقه في عسكره، فمطله فسير إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة
ويقول له: إن العسكر قد طال مقامهم وطالبوا بالنفقة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشى
عليك منهم. فلم يكترث شاور بذلك، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين.
وعزم شاور على أن يصنع دعوة ويحضر أسد الدين وجماعة من الأمراء الذين معه إلى
داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك
ولده الكامل، وحلف أنه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه. فقال له أبوه: والله لئن
لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا. فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير
من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين
قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما
عزم عليه. واتصل بالعاضد فأعلم شيركوه.

مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.
وذلك أن الأمراء النورية لما رأوا مماطلته بالنفقة وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم
اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك،
فنهاهم عنه. واتفق أن شيركوه خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له
على عادته، فقيل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه. فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما

يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه. فجعلاه في خيمة، وأحاط بهم
جماعة ولم يمكنهم من قتله بغير أمر أسد الدين. فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد،
يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره
بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.
ومضى أولاده إلى القصور واستجاوروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين
لأربع خلون من جمادى الأولى منها. وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام. وتأسف
شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.
قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة
التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فأهاله ذلك، فقال لهم: إن مولانا العاضد
لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور. فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل
شيركوه إلى القصر، فتلقاه العاضد، وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير
الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي إلى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً،
وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في
أخبار الدولة الأيوبية.

انقراض الدولة العبيدية
والخطبة للمستضيئ بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من
المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.
وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال
الناس بالأموال قتل مؤتمن الخلافة جوهرا زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي
الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله
مستوفي في أخباره. ثم أسقط من الأذان قولهم: حي على خير العمل، وأبطل مجلس
الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى
الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضيئ

بنور الله، وكان المستضيئ قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه
الدولة. فكتب إلي الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لا نأمن من قيام أهل
مصر علينا لميلهم إلى هذه الدولة. وكان صلاح الدين أن يتقوى بالعاضد على نور الدين إن
هو أراد الدخول إلى الديار المصرية.
فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع
العاضد والقبض عليه.
فاستدعى الملك الناصر الأمراء واستشارهم في ذلك، فمنهم من حذره، ومنهم من هونه
عليه. فأحضر الفقيه أليسع بن يحيى بن أليسع، وعرفه الحال. فلما كان في هذه الجمعة
صعد إلى المنبر بجامع مصر قبل طلوع الخطيب، ودعا للمستضيئ بنور الله، فلم ينكر عليه
أحد. فلما كان في الجمعة الثانية أمر الملك الناصر الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا
للمستضيئ بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي، فخطبوا له.
ثم توفي العاضد لدين الله إثر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثة أيام من
خلعه. وكان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقال صلاح الدين: لا تعلموه، فإن عوفي أعلمناه،
وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.
وقال بعض المؤرخين: إن صلاح الدين لما قطع خطبته دخل عليه وقبض عليه واعتقله،
فلما رأى ذلك كان في ذخائره فص في خاتم، فمصه، فمات لوقته. فكان صلاح الدين يقول:
ندمت على كوني دخلت على العاضد وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.
ولما مات جلس الملك الناصر للعزاء به. فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وخمسة
أشهر وتسعة عشر يوماً، ومولده في يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين
وخمسمائة، فعمره على هذه إحدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.
وكان له من الأولاد ثلاثة عشر وهم علي، وموسى، وعبد الكريم، وأبو الحداد يوسف،
وأبو الفتوح، وإبراهيم، وجعفر، ويحيى، وعبد القوي، وعبد الصمد، وأبو البشر،

وعيسى. فاعتقلهم الملك الناصر بأجمعهم، واستمرا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمائة،
فكان من أمرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.
ووزر له من ذكرنا أخبارهم، وهم: الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك، ثم ولده العادل
رزيك، ثم شاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر
صلاح الدين يوسف.
قضاته: أبو القاسم هبة الله بن كامل، وأبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي،
ثم الأعز أبو محمد الحسن بن علي بن سلامة، ثم أعيد عبد الجبار، ثم أعيد ابن الكامل،
ثم صرف على أيام الملك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.
وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، رضوان الله عليه أجمعين. إذا رأى
سنياً استحل دمه.
أخبار الدولة العبيدية
ومدتها ومن ملوك من ملوكها
كانت مدة تغلب ملوك هذه الدولة على البلاد منذ أن أخرج أبو عبد الله الشيعي عبيد
الله، المنعوت بالمهدي، ومن سجلماسة، ومن سجن أليسع ابن مدرار إلى أن مات العاضد
هذا مائتي سنة وسبعين سنة وشهراً. منها ببلاد الغرب، منذ دخل عبيد الله المهدي
رقاده إلى أن وصل المعز لدين الله إلى القاهرة أربع وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة
وعشرون يوماً. وباقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعت دعوتهم. بخروج عسقلان
عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها، في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في
أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.
وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبد الله المنعوت
بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر اله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر
إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد
الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه
الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو

الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم
أحمد، ثم ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون
عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل
بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين
الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر،
وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.
قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده
بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليمني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة
الجناب، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها
القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:
رميت يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور، فإن قدرت من عثرات الدهر فاستقل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها من المكارم ما أربي على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن جمالها أنها جاءت ولم أسل
منها:
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين، وابك معي عليهما، لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما: والله ما التحمت فيكم جراحي، ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبي والنفل
مررت بالقصر، والأبواب خالية من الوفود، وكانت قبلة القبل

فملت بوجهي خوف منتقد من الأعادي، ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت حال الزمان عليها، وهي لم تحل
وهي قصيدة مشهورة مطولة.
ولما انقرضت هذه الدولة الأيوبية على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكها والله أعلم.
الدولة الأيوبية
وهي دولة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأولاده، ودولة أخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.
ولنبدأ بذكر نسب نجم الدين أيوب والد ملوك الدولة الأيوبية وابتداء حاله وحال أخيه أسد الدين، وكيف تنقلت بهم الحال إلى أن ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية، وكيف انتقل الملك من بعده إلى ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف. ثم نذكر أخبار من ملك من أولاده وأخيه الملك العادل وأولاده في حربهم وسلمهم إلى حين انقراض دولتهم.
وبالله التوفيق
الملك الأفضل نجم الدين
هو أبو سعيد أيوب بن شادي بن مروان. هذا هو المقطوع به الذي لا نزاع فيه، ولا خلاف بين أحد من المؤرخين ونقلة أخبارهم.
قال الملك الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن، ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المفاخر داود، ابن السلطان الملك المعظم شرف الدين أبي المظفر عيسى، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الدين أبي سعيد أيوب، رحمهم الله تعالى، في كتابه المترجم بالفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، سمعت من يقول: مروان بن محمد، وقال بعض الناس محمد بن يعقوب.
وقال شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن في كتابه المترجم بالروضتين في أخبار الدولتين سمعت من يقول: مروان بن يعقوب.
وقال الملك الأمجد: وقد اختلف في نسبهم على ثلاثة أقوال: القول الأول: ما قاله عز الدين علي بن أثير الجزري المؤرخ أن نجم الدين أيوب من بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الروادية، وهذا القبيل هم أشرف الأكراد.

قال الملك الأمجد: وهذا شيء يجري على ألسنة كثير من الناس، ولم أر أحداً ممن أدركه
من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب، لكنهم لا ينكرون أن نجم الدين كان بدوين.
قال: والمشهور عند بيتنا أن جدنا نزل على الأكراد وتزوج منهم، فصارت بيننا وبينهم
خؤولة لا غير. ويد على ذلك أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف لما ملك
البلاد تقدم في دولته جماعة من الأكراد، فلم يبق أحد منهم إلا جاء بنو عمه وأقاربه، حتى
صار في عصبة من أهله، والسلطان رحمه الله لم يأت إليه من يمت بقرابة إلا من جهة
النساء فقط، ولو كان من الروادية لكان جميع القبيلة أولاد عمه وإن لم يكن له ابن عم قريب
فيكون ابن عم بعيد لأن قطعاً لأن القبيلة كلها أولاد رجل واحد. ولا شك أن الدواعي
تتوفر على الانتماء إلى الملك ما لا تتوفر على الانتماء إلى الأمراء.
القول الثاني: أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.
قال الملك الأمجد: وهذا شيء ادعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء إسماعيل بن الملك
العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين، بن أيوب، باليمن، لما ملكه بعد
أبيه، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميد بن
أبي طي: قد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لا يعفرون جداً فوق
شادي.
القول الثالث: ما ذكره حسن بن عمران الجرشي فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرة
لنسب بني أيوب، فوصله بعلي من أحمد المري ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:
شرق الجو بالغبار إذا سا ر على بن أحمد بن القمقام
وقال أيضاً في مدحه:
إنما بن عوف بن سعد جمرات لا تشتهيها النعام
ولم ينكر الملك المعظم عليه ذلك بل قبل منه.
قال: وهذا سرد النسب الذي عمله الجرشي، وهو: أيوب بن شادي بن مروان بن أبي
علي.
قال الملك الأمجد: قلت: ويحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره - وأبو علي

كنية له - ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد ابن أبي علي بن عبد العزيز بن هدية بن
الحصين بن الحارث بن سفيان بن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي
بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبقية
النسب معروف، هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:
ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه
قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في
خلافة المسترشد بالله، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد. فرأى من نجم الدين
عقلاً ورأياً وحسن سيرة، وكان أسن من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد الدين دزداراً
بقلعة تكريت، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدين.
وقيل بل كان نجم الدين قد خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجقي، فرأى منه أمانة
وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاه قلعة تكريت، فقام بها أحسن قيام. فلما ولي السلطان
مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز، فأقر نجم الدين في الولاية. وكان أتابك عماد
الدين زنكي بن آق سنقر، والد السلطان الشهيد نور الدين لما انهزم من قراجا الساقي في
سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرنا، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام الدين بخدمته
أتم قيام، وأقام له السفن إلى أن عبر دجلة، فكان ذلك سبب وصلته بالبيت الأتابكي
وتقدمه.
قال: ثم اتفق بين أسد الدين وبين قوارص النصراني، كاتب بهروز، مشاجرة في بعض الأيام،
فكلمه النصراني بكلمة أمضته، فضرب عنقه بيده، ورماه برجله فلما اتصل الخبر ببهروز
وحضر عنده من حذره من جرأة شيركوه وتمكين نجم الدين واستحواذه على قلوب الرعايا
خاف عاقبة ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ما كان من أخيه، وعزله. فسار نجم الدين
أيوب وشيركوه إلى عماد زنكي في الموصل، فلما وصلا إليه سر بهما وأحسن إليهما،
فأقطعهما الإقطاعيات الجليلة، وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج.

فما ملك زنكي قلعة بعلبك، في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة جعل نجم الدين دزداراً بها،
فأقام بها إلى أن قتل عماد الدين زنكي، في سن إحدى وأربعين وخمسمائة. وحاصر معين
الدين أنر، صاحب دمشق قلعة بعلبك، حتى ضاق الأمر على نجم الدين، فاضطر إلى
تسليمها إليه، وتعوض عنها إقطاعاً وأملاكاً، وكان عنده من الأكابر الأمراء. واتصل أسد
الدين شيركوه بخدمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، فجعله مقدماً على عسكره،
وجعل له حمص والرحبة وغيرهما.
فلما تعلقت همة نور الدين بملك دمشق أمر أسد الدين بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب في
ذلك، فراسله، فأعان نور الدين على فتح دمشق، فعظم محلها عند نور الدين. فكان نجم
الدين إذا دخل عليه جلس من غير أن يؤذن له في الجلوس، ولم تكن هذه الرتبة لغيره من
سائر الأمراء. فلما كان من أمر شاور ما قدمناه وقصد نور الدين محمود أو استغاث به،
أرسل معه أسد الدين بالعساكر، وكان من أمره في المرة الأولى، في سنة تسع وخمسين
وخمسمائة، والمرة الثانية، في سنة اثنتين وستين، والمرة الثالثة في سنة أربع وستين وخمسمائة
على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العبيدية في أيام العاضد لدين الله.
وزارة الملك المنصور
أسد الدين شيركوه بالديار المصرية ووفاته
كانت وزارته للعاضد لدين الله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر
سنة أربع وستين وخمسمائة.
وذلك أنه لما كان من أمر شاور ومقتله ما ذكرنا آنفاً استدعى العاضد لدين الله أسد الدين
شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى اجتماع العوام ما أهاله،
فخاف على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين يأمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس
ونهبوها، وتفرقوا عنه، ولما نزل أسد الدين بدار شاور، وهي دار الوزارة، لم يجد فيها ما
يجلس عليه.
قال: ولما تفرق الناس للنهب دخل أسد الدين على العاضد لدين الله، فتلقاه وخلع عليه

الوزارة، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليد الوزارة، وكتب عليه العاضد
بخطه عهداً: عهد لم يعهد لوزير مثله، وتقليد أمر رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله:
والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة،
واسحب ذيل الفخار بان اعتززت بخدمتك من النبوة، واتخذ الفوز سبيلاً:" ولا تنقضوا
الأيمان بعد توكيدها وقد جعلكم الله عليكم كفيلاً".
وخرج من عند العاضد وركب على دار الوزارة وسكنها، واستقل بالأمر. واستعمل على
الأعمال من يثق به من كفاة أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره. وأرسل إلى ديوان الإنشاء
بالقصر يطلب من يكتب بين يديه، فأرسل إليه متولي الديوان القاضي الفاضل عبد الرحيم
البيساني؛ وظن أن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا الأمر لا يتم، وأن أسد يقتل عن قريب
كما قتل غيره، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وقالوا لعله يقتل معه، فكان من أمره ما كان.
ولم تطل مدة أسد الدين في الوزارة بل انقضت أيامه، وفاجأه حمامه، فتوفي يوم السبت لثمان
بقين من جمادى الآخرة من السنة.
واختلف في سبب وفاته، فقيل مات فجأة، وقيل بعلة الخوانيق، وقيل بل سم. فكانت مدة
وزارته خمساً وستين يوماً؛ وعمل عزاؤه ثلاثة أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام؛ ودفن هناك برباط الوزير 108 جمال الدين وزير الموصل.
ولما مات أسد الدين شيركوه استقر بالوزارة بعده الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن
أيوب
الملك الناصر صلاح الدين
بن يوسف
ابن الملك الأفضل بن نجم الدين أيوب وزارته في الديار المصرية
كانت وزارته بالديار المصرية عقب وفاة عمه المنصور أسد الدين شيركوه وقد تطاول
جماعة من الأمراء النورية للوزارة، ومنهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين قايماز، وسيف
الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وخطبها

كل منهم لنفسه، فأشار جماعة من المصريين وخواص العاضد لدين الله على العاضد أن
يولي صلاح الدين، وقالوا: إنه أصغر الجماعة سناً ولا يخرج من تحت أمر أمير المؤمنين.
فإذا استقر وضعنا على العساكر من يستميلهم إلينا، فيبقى عندنا من الجند من نتقوى به،
ثم نأخذ يوسف بد ذلك أو نخرجه فإن أمره أسهل من غيره، فاستدعاه العاضد لدين الله،
وخلع عليه خلع الوزارة. ولقبه بالملك الناصر، فلم يطعه أحد من الأمراء الذين كانوا
تطاولوا للوزارة ولا خدموه.
وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعى مع الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب
حتى استماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع الياروقي والحارمي وغيرهما.
ثم اجتمع بالحارمي وقال مثل ذلك، وقال له: إن صلاح الدين ولد أختك، وعزه وملكه لك،
وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء
واستمالهم. فأطاعه بعضهم عصى بعضهم.
فأما الياروقي فإنه قال: لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى الملك العادل نور الدين هو وجماعة
من الأمراء. وصال صلاح الدين نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين ولا
يكاتبه إلا: بالأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية. يفعلون كذا
وكذا. ويفعل علامته في الكتب، عظمة أن يكتب اسمه. ولما وزر صلاح الدين ثبت قدمه،
واستمال قلوب الناس بالأموال فمالوا إليه فقوي أمره، وضعف أمر العاضد.
مقتل مؤتمن الخلافة جوهر
زمام المقصور انتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السودان
كان مقتل مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، من سنة أربع وستين
وخمسمائة.
وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض إقطاع المصريين، فاتفق هذا الخادم مع جماعة
من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعتضاد بهم
على صلاح الدين ومن معه، وأرسل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعل ولبسه، وسار أنه

فقير ورث الهيئة. فلما وصل إلى البيضاء وجده تركماني، فأنكر حاله إذ هو رث الهيئة
جديد المداس. فأخذ مداسه وفتقه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك الناصر،
فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرر الرجل بالعقوبة، فأقر أن الكتب بخط رجل يهودي،
فاستحضره، فأقر بها. ثم قتل صلاح الدين القاصد. واستشعر مؤتمن الخلافة من الملك
الناصر، فلزم القصور واحترز على نفسه، فكان لا يخرج منها. فلما طال ذلك عليه خرج
من هذا اليوم لقصر له بالخرقانية، فأرسل إليه الملك الناصر جماعة فقتلوه، وأتوه برأسه،
فرتب حينئذ على أزمة القصور قراقوش الخصي، وكان من مماليك عمه أسد الدين ليطالعه
بما يتجدد بالقصور.
قال: ولما قتل مؤتمن الخلافة ثار السودان لذلك وأخذتهم المحمية، وعظم عليهم قتله، لأنه
كان رأسهم ورئيسهم، فحشدوا واجتمعوا، فزادت عدتهم على خمسين ألف عبد، وكانوا
أشد على الوزراء من العسكر. فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدم على العسكر
أبا الهيجاء السمين، فالتقوا بين القصرين واقتتلوا، فقتل من الفريقين جمع كثير، فلما رأى الملك
الناصر قوتهم وشدة بأسهم أرسل إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة،
فأحرقها، فاتصل ذلك بهم، فضعفت نفوسهم، فانهزموا إلى محلتهم فوجدوا النيران تضرم
فيها. واتبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها. ودام القتال بينهم أربعة أيام، نهاراً وليلاً، إلى
يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنوا
بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك الناصر فقتلهم، ولم ينج منهم إلا اليسير. وكتب
الملك الناصر إلى ولاة البلاد بقتل من يجدونه منهم، فقتلوا من عند آخرهم.
وبقي الملك الناصر يخشى من أهل القصر لما فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر
هذا سبب زوال ملك الدولة العبيدية وجوهر القائد سبب ملك المعز للبلاد، فشتان بين
الجوهرين.
الحوادث في الأيام الناصرية
غير الفتوحات والغزوات

لم نقدم هذه الحوادث التي نذكرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقة على ذلك
في التاريخ، ولأنا أردنا أن نفرد غزواته وفتوحاته ليأتي الكلام عليها سياقة يتلو بعضه بعضاً،
ولا ينقطع بغيره، فكان مما نذكره.
وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب والد الملك الناصر إلى الديار المصرية
كان الملك الناصر قد كتب في طلب والده، رحمهما الله تعالى، فوصل بأولاده وأهله إلى
القاهرة في السابع والشرين من شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، ولما وصل تلقاه
الخليفة العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج، ولم تجر بمثل ذلك عادة،
فكان يوماً مشهوداً. وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنواع التحف
والألطاف شيئاً كثيراً، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع ولده شمس الدولة،
أخا الناصر، قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستة وستين ألف
دينار.
إبطال الأذان بحي على خير العمل
قال المؤرخ: ولعشر مضين من ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة أمر الملك الناصر
أن يسقط من الأذان قولهم حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر، وكانت أول
وصمة دخلت على الشيعة والدولة العبيدية، ويئسوا بعدها من خير يصل إليهم من الملك
الناصر. ثم أمر أن يذكر في الخطبة بكلام مجمل، ليلبس على الشيعة والعامة: اللهم أصلح
العاضد لدينك.
ما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق
قال المؤرخ: وفي أول سنة ست وستين وخمسمائة أمر الملك الناصر بهدم دار المعونة
المجاورة للجامع العتيق بمصر. ودار المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه الناس. وأمر ببنائها
مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجار. وإنما عرفت به
لأنه درس بها.
ثم عمر دار الغزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكخته مدرسة للطائفة المالكية
ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدين، الدار المعروفة بمنازل
العز بمصر، وبناها مدرسة للطائفة الشافعية. وكانت هذه الدار يسكنها الأمير ناصر الدولة
بن حمدان في الأيام المستنصرية، وقد تقدم ذكر ذلك.
ثم أمر الملك الناصر ببناء مدرسة الشافعي والبيمارستان، وعمر الخانقاه المعروفة بسعيد
السعداء على ما يأتي ذكر ذلك.
وفي هذه السنة أيضاً أبطل الملك ا لناصر مجلس الدعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من
سنة الدولة العبيدية أن يقوموا لهم دعاة كالخطباء والله أعلم.
تفويض القضاء بالديار المصرية للقاضي صدر الدين بن درباس
وفي سنة ست وستين وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوض السلطان الملك
الناصر القضاء بالديار المصرية إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى
بن درباس المارداني، فاستمر إلى آخر الأيام الناصرية.
وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، ومات في
يوم عاشوراء كما قدمناه.
وفيها في الثالث عشر من جمادى الأولى كُشف حاصل الخزائن بالقصور، فوجد فيه ما
يزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النفيسة ما لا مزيد عليه.
وفيها في صفر أمر الملك الناصر بإبطال المكوس بالقاهرة والأعمال عن التجار المترددين
إليها وإلى ساحل المقسم صادراً ووارداً، فكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار عيناً.
وفيها رسم بتحويل سنة خمس وستين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلالية، وكانت قد
حولت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.
وفاة الملك الأفضل
نجم الدين أيوب
كانت وفاته رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين
وخمسمائة. وذلك أنه ركب من داره، فلما انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شب به
فرسه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيام ومات فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد
الدين في الدار السلطانية، ثم نقلا إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام،
وقُبِرا في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أمر الملك الناصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر، فكانت
أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فبيعت بأخس الأثمان.
عمارة قلعة الجبل والسور
وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك الناصر بعمارة قلعة الجبل والسور الدائر
على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطئ النيل إلى شاطئه. فكان دور السور على
القاهرة ومصر والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين. من ذلك ما بين
قلعة المقسم والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع، ومن
القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن
حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع. ودائر قلعة الجبل ثلاثة
آلاف ومائتا ذراع عشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولى عمارة ذلك الأمير بهاء
الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يتوصل إلى مائها المعين من درج منحوتة
من الجبل، وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته.
وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشافعي رحمه الله، وتولاها الفقيه الزاهد نجم
الدين الخبوشاني.
وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقف على ذلك وقوفاً. وهذا
البيمارستان يسمى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.
وفيها أسقط مكوس مكة، شرفها الله، المقررة على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل
ثمانية آلاف إردب قمحاً تحمل إلى ساحل جدة، وعين لذلك ضياعاً بالديار المصرية وقرب
أيضاً حمل غلات إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء: فقال الشيخ الحسين محمد بن
جبير الأندلسي في ذلك من قصيدة يمدح بها الملك الناصر.
رفعت مكارم مكس الحجاز بإنعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر
وسمت أياديك فياضة على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك بالغرب من شاكر
قتل جماعة من المصريين
وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صلب جماعة ممن أراد الوثوب

بمصر من أصحاب الخلفاء العبيديين. وسبب ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة
اليمني الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي الأعز سلامة المعروف بالعوريس،
والقاضي ضياء الدين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند
العبيديين ورجال السودان وحاشية القصر ومن وافقهم من الأمراء الصلاحية والجند -
اتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقلية ومن سواحل الشام إلى الديار المصرية
على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، وقرروا أن الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار
هؤلاء بالقاهرة ومصر وأعادوا الدولة العبيدية، العلوية بزعمهم، ويعود من معه من العساكر
الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام بالبلاد. وإن أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثاروا به
فأخذوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده،
وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسلوا إلى الفرنج وتقررت هذه القاعدة بينهم.
قال: وكان ممن أدخلوه معهم في هذا الأمر زين الدين علي بن نجا الواعظ، وهو القاضي
ابن نجية، ثم اختلفوا في وزارة الخليفة، فقال بنو رزيك: يكون الوزير منا. والقاضي وقال
بنو شاور: بل يكون الوزير منا فحضر ابن نجا إلى الملك الناصر وأعلمه بصورة الحال، فأمره
بمباطنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم. ففعل ذلك.
ثم وصل رسول من ملك الفرنج إلى الملك الناصر بهدايا، وهو في الظاهر له وفي الباطن
لهؤلاء، فوضع الملك الناصر عليه من النصارى من داخله وباطنه، فذكر له الحال على
جليته، فأعلم به الملك الناصر. فلما تحققه قبض على هؤلاء وصلبهم، فكان ممن صلب
عمارة اليمني، وعبد الصمد الكابت، والقاضي الأعز العوريس، وغيرهم.
عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب
ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد، واحتاط
الملك الناصر على من بالقصر من سلالة العاضد وأهله. وأما من كان قد وافقهم من
أصحابه فلم يخاطبهم في ذلك ولا أوهمهم أنه علم به. وبلغ ذلك فرنج الساحل فلم يتحركوا

من أماكنهم، وأما فرنج صقلية فإنهم قصدوا ثغر الإسكندرية على ما نذكره.
وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنز، أمير العرب، على الملك الناصر
بصعيد مصر، واجتمع معه جماعة كبيرة من رعايا البلاد والعربان والسودان وغيرهم، وقتل
أخا الأمير أبي الهيجاء السمين، وكان قد توجه لإقطاعه بالصعيد. فعظم قتله على أخيه،
وكان من أكابر الأمراء الناصرية، فسار إلى قتال الكنز. وندب معه الملك الناصر جماعة
من الأمراء والعسكر، فوصلوا إلى مدينة طود، وهي على مسافة يوم من مدينة قوص إلى
جهة الصعيد، فامتنع من بها عليهم، فقاتلوهم وظفوا بهم وقتلوا كثيراً منهم، وخربوا البلد،
فهي إلى وقتنا هذا تعرف بطود الخراب، وغيطانها عامرة. ثم سار العسكر منها إلى
الكنز، فقاتلوه، فقتل هو ومن معه من الأعراب، وأمنت البلاد واستقر أهلها.
وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ظهر بالديار المصرية فأر كثير جداً. قال القاضي
الفاضل عبد الرحيم حدثني من شاهد هذا الفأر وهو يرحل من بقعة إلى أخرى فيغطي
الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شيء البتة وأنه شاهده يمر بأماكن فلا يلم بها ولا يخرج
عليها والزروع بها محصورة، ويمر بأخرى فلا يلبس أن يفسد جميع ما فيها و لا يرتحل عنها
وبها شيء من الزرع ولا المقات بالجملة.
وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة ظهر بأبوصير السدر من أعمال الجيزة بيت أشاع الناس
أنه بيت هرمس، ففتح بحضور القاضي نظام الدين بن الشهرزوري وأخرج منه أشياء، من
جملتها صور كباش وضفادع بأزهر، وقوارير دهنج، وفلوس من فضة ونحاس، وأصنام
نحاس وياقوت، وغير ذلك من الذهب والفضة والتحف القديمة ووجد فيه خلق كثير من
الأموات.
وفي سنة ثمانين وخمسمائة في يوم الاثنين مستهل المحرم دُرّس في المدرسة الفاضلية التي
أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة بدرب ملوخية، ورتب فيها لإقراء كتاب الله
تعالى الشيخ الإمام العالم الزكي أبو محمد القاسم بن فيره الرعيني الشاطبي، وفي التدريس

على مذهبي الشافعي ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندري،
رحمهما الله تعالى.
وحيث ذكرنا هذه النبذة من الحوادث التي أتفقت في خلال دولته، فلنذكر ما استولى عليه
من البلاد الإسلامية.
ما استولى عليه الملك الناصر
من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه
كان من البلاد التي خطب بها للملك الناصر صلح الدين يوسف طرابلس الغرب وبعض
بلاد إفريقية، منها مدينة قابس.
وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوك تقي الدين عمر، ابن أخي الملك الناصر، توجه
في سنة ثمان وستين وخمسمائة في طائفة من الأتراك إلى جبال نفوسة، واجتمع به مسعود بن
زمام المعروف بالبلاط، وهو من أعيان أمراء تلك الناحية، وكان خارجاً عن طاعة ابن
عبد المؤمن. فاتفقا وكثر جمعهما، ونزلا على طرابلس الغرب، فحاصراها مدة وضيقا على
أهلها، ثم فتحاها، فاستولى قراقوش عليها، وأسكن أهله بقصرها. ثم ملك كثيراً من بلاد
أفريقية إلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع. وكثر جمع
قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة جمعها بمدينة قابس، وقويت نفسه،
وطمع أنه يستولي على جمي أفريقية لبد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الإفرنج. ثم
جاء نورابه مملوك تقي الدين أيضاً، بطائفة من الترك فزاد بهم قوة إلى قوته. ثم اجتمع الأتراك
وعليّ ابن إسحاق الملثم المعروف بابن غانية وملكوا بجاية في سنة ثمانين، وانقادوا إلى
الملثم واستعانوا به، لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة، ولقبوه بأمير المسلمين، وقصدوا
بلاد أفريقية فملكوها شرقاً وغرباً إلا تونس والمهدية فإن الموحدين حفظوها.
ولما حصل استيلاؤهم على بلاد أفريقية قطعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للناصر
لدين الله العباسي، وقصدوا مدينة قفصة فتسلموها في سنة اثنتين وثمانين، وأقام بها طائفة
من الملثمين والأتراك.
فلما اتصلت هذه الأخبار بالأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن اختار من عسكره

عشرين ألف فارس من الموحدين، وسار بهم في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة
تونس. وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه فساروا إلى الملثم والأتراك بقفصة، فهزمهم الملثم
ومن معه في شهر ربيع الأول من السنة. فجاء يعقوب بن يوسف بمن معه في نصف شهر
رجب منها، والتقوا على مدينة قابس، فانهزم الأتراك والملثم، وقتل :كثير منهم. وفتح
يعقوب قابس، وأخذ أموال قراقوش وأهله وحملهم على مراكش. وحصر مدينة فقصة ثلاثة
أشهر وبها الترك، فطلبوا الأمان لهم ولأهل البلد، فأمنه وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من
شجاعتهم.
هذا ما اتفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتوحات لا تختص كلها بالدولة الأيوبية، إلا
أنهم كانوا سبباً، وهم الذين استولوا على البلاد كما ذكرنا فأوردناها في أخبارهم.
استيلائه على اليمن
وفي سنة تسع وستين وخمسمائة جهز الملك الناصر أخاه الملك المعظم شمس الدولة
تورانشاه إلى اليمن، فسار في مستهل شهر رجب. وكان عمارة اليمني الشاعر يذكر له
البلاد ويحسنها له ويحثه على قصدها، ويعظم مملكتها. فسار ووصل إلى مكة شرفها الله
تعالى، ومنها إلى زبيد وبها صاحبها عبد النبي المتغلب عليها. فلما قرب منها ورأى أهلها
انهزموا، فوصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمانع عنه، فنصبوا السلالم
وصعدوا عليها إلى السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه، وأسر المتغلب عليها عبد النبي
وزوجته المدعوة بالخيرة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة. وسلم شمس الدولة عبد النبي
إلى يوسف سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه
الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائن كانت له. ودلتهم الخيرة على ودائع لها
كثيرة. ثم أصلح أمر زبيد وخطب بها للناصر لدين الله.
ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكش وفارس
وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها. وصاحبها يومئذ رجل اسمه

ياسر فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه، فسبقه بعض عسكر الدولة فدخلوا البلد قبل
أهله وملكوه، وأسر صاحبه. وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما
جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بها. ثم عاد إلى زبيد وحصر ما
في الجبل من الحصون فملك قلعة تعز واسمها الدمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون
خزائن صاحب اليمن. وملك غيرها من الحصون والمعاقل، واستناب بثغر عدن عز الدين
عثمان الزنجيلي، وبزبيد سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ. وجعل في كل حصن نائباً
من أصحابه.
وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، وعادت زبيد إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة
والأمن. ثم عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر،
فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.
ملكه مدينة دمشق
قال المؤرخ: لما توفي الملك العادل نور الدين الشهيد محمود ابن الزنكي رحمه الله، كما
قدمناه في أخباره، وولي بعده ولده الملك الصالح إسماعيل أقر الملك الناصر الخطبة باسمه
بعد أبيه، ولم يخطب لنفسه ثم اتفق ما ذكرناه من نقلة الملك الصالح من دمشق إلى حلب،
ولم يستأذن الملك الناصر في ذلك ولا كتب له فيه، فسار الملك الناصر من الديار المصرية
إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ
الشهر - وقال ابن شداد في سلخ شهر ربيع الآخر - وتسلم دمشق من أمير شمس الدين
بن المقدم ونزل بدار العقيقي، وكانت سكن أبيه، وأحسن إلى الأمراء وأكرمهم، وأظهر أنه
إنما حضر إلى الشام نصرة للملك الصالح، وليعيد عليه ما أخذه ابن عمه سيف الدين
غازي من بلاده. وأقرب خطبتها لم يقطعها ولا خطب لنفسه.
ملكه مدينة حمص وحماه
قال المؤرخ: ولما ملك دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغزتيكين بن أيوب،
وتوجه إلى مدينة حمص في مستهل جمادى الأولى، فنازلها، فملك المدينة ولم يشتغل بالقلعة،
وترك بالمدينة من يحفظها ويمنع من في القلعة من التصرف.

وسار منها فوصل إلى مدينة حماة في مستهل جمادى الآخرة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين
جرديك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من تسليمها. فأرسل إليه يعرفه ما هو عليه من
الطاعة للملك الصالح، فاستحلفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة
ليحفظها. وتوجه عز الدين جرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين
كمشتكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر.
حصره حلب
وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك
قال: ولما بلغ الملك الناصر خبر عز الدين جرديك والقبض عليه، توجه إلى حلب
وحصرها في جمادى الآخرة من السنة، فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره
اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب، وذكرهم بإحسان والده إليهم، واستنصر بهم في دفع
صلاح الدين، فبكوا وحلفوا له على بذل النفوس والأموال، وقاتلوا أشد قتال. وأرسل
سعد الدين كمشتكين إلى سنان، مقدم الإسماعيلية، مالاً كثيراً على قتل الملك الناصر،
فسير إليه جماعة، فظفر صلاح الدين بهم وقتلهم. ورحل عن حلب في مستهل شهر رجب
من السنة.
وكان سبب رحيله أن كمشتكين أرسل إلى القومص ريمند الصنجيلي، صاحب طرابلس،
أن يجهز إلى بلاد صلاح الدين من الفرنج من يمنعه من الوصول إليها. فلما بلغه ذلك فارق
حلب وعاد إلى حماة في ثامن الشهر، بعد نزول الفرنج على حمص بيوم. فلما سمع الفرنج
بقربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إلى حمص، وملك القلعة بعد حصار. وكان
ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة.
ثم سار منها إلى بعلبك، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيام نور الدين، فحصرها الملك
الناصر، فطلب يمن الأمان، فأمنه وتسلم القلعة في رابع شهر رمضان.
انهزام عسكر سيف الدين غازي من الملك الناصر وحصره حلب ثانياً
قال المؤرخ: كان الملك الصالح كتب إلى عمه سيف الدين غازي يستنجده على قتال صلاح

الدين ودفعه فجهز العسكر صحبة أخيه عز الدين مسعود، وتأخر هو لما وقع بينه وبين
أخيه عماد الدين من الاختلاف الذي قدمناه في أخبار الدولة الأتابكية فسارت العساكر
السيفية، واجتمع معها العسكر الحلبي، وسارو ا كلهم لقتال الملك الناصر فأرسل إلى
سيف الدين يبذل له تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق نيابة عن الملك الصالح:
فلم يجب إلى ذلك وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر.
فلما امتنع سيف الدين من إجابته تجهز عند ذلك للقاء عز الدين مسعود ومن معه
وقتالهم، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان بقرون حماة، فلم تثبت عساكر سيف الدين
وانهزموا لا يلوي بعضهم على بعض. وتبعهم الملك الناصر وغنم معسكرهم، ووصل إلى
حلب وحاصرها، وقطع خطبة الملك الصالح وأزال اسمه.
فلما طال الحصار على من بحلب راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد
الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصلح. فرحل عن حلب في العشر
الأول من شوال ووصل إلى حماة. ووصلت إليه بها رسل الخليفة المستضيئ بنور الله،
ومعهم الخلع والأعلام السود وتوقيع من الديوان العزيز بالسلطنة ببلاد مصر والشام.
وفيها ملك قلعة بعرين في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن
الزعفراني، وكان من أكابر الأمراء النورية، فجاء إلى خدمة الملك الناصر، وظن أنه يكرمه
ويقربه، فلم ير من ذلك شيئاً، ففارقه وعاد إلى قلعته. فلما استقر الصلح بين الملكين الناصر
والصالح نازل الناصر بعرين ونصب عليها المجانيق وملكها.
وانهزام غازي
قد قدمنا انهزام عز الدين مسعود بالعسكر السيفي من الملك الناصر في سنة سبعين
وخمسمائة. فلما كان في سنة إحدى وسبعين جمع سيف الدين غازي جميع عساكره وفرق
فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، وسار إلى حلب
واستصحب سعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصالح والعسكر الحلبي.

وكان صلاح الدين في قلة من العسكر لأنه جهز أكثر عساكره في الديار المصرية فما بلغه
ذلك أرسل يستدعي عساكره، فلم تلحقه، وأعجلته الحركة، فسار من دمشق إلى حلب
للقاء غازي ومن معه، فالتقى العسكران بلت السلطان بالقرب من حلب، في عاشر شوال
من السنة.
وكان عز الدين زلفندار مقدم العسكر الموصلي قليل المعرفة بالحروب، فجعل أعلام
صاحبه في وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها فلم يرها الناس ظنا أن سيف
الدين غازي قد انهزم، وانهزموا لا يلوي الأخ على أخيه. ولم يقتل من العسكر على كثرته
غير رجل واحد. وانهزم سيف الدول إلى الموصل وترك أخاه عز الدين بحلب.
قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدين غازي كان في عشرين ألف فارس، وخطّأه ابن
الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجد الدين أبا السعادات المبارك كان يتولى كتابة
الجيش، وأنه وقف على جريدة العرض فكانت ستة آلاف.
وإن جمعنا بين قوليهما فنقول: إن الجريدة التي وقف عليها ابن الأثير كانت للجيش المختص
بسيف الدين غازي خاصة، والذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ما صحبه من سائر
الجيوش الحلبية والحصفية، والماردينية، والله أعلم.
ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة
قال المؤرخ: لما استولى الملك الناصر على أثقال العسكر الموصلي وغنمها، واتسع هو
وعسكره بها، سار إلى بزاعة، فحصرها وملكها بعد قتال من بقلعتها، وجعل بها من
يحفظها. ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال، وبها صاحبها قطب الدين ينال بن
حسان المنبجي، وكان شديد العداوة للملك الناصر والتحريض عليه، فملك المدينة
وحاصر القلعة وملكها عنوة، وأسر صاحبها ينال، ثم أطلقه، فسار إلى الموصل، فأقطعه
سيف الدين غازي مدينة الرقة.
ثم سار إلى قلعة عزاز فنازلها في ثالث ذي القعدة ونصب عليها المجانيق، ولام الحصار
ثمانية وثلاثين يوماً وتسلمها في حادي عشر ذي الحجة من السنة.

ووثب عليه في مدة الحصار باطني فضربه بسكين في رأسه، فرد عنه المغفر، وضربه عدة
ضربات وقعت في زيق كزاغنده.
حصره مدينة حلب والصلح عليها
قال: ثم رحل الملك الناصر عن أعزاز ونازل حلب في نصف ذي الحجة وحصرها إلى
العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وترددت الرسائل بينهم في الصلح،
فاستقرت القاعدة بين الملك الناصر وسيف الدين غازي والملك الصالح وصاحب ماردين
وصاحب حصن كيفا، وتحالفوا أن كلهم عوناً على الناكث منهم. فتم الصلح وأعاد الملك
الناصر إليهم قلعة أعزاز ورجع عن حلب.
نهبه بلاد الإسماعيلية
قال: لما عاد الملك الناصر من حلب قصد بلاد الإسماعيلية في شهر المحرم سنة اثنتين
وسبعين لقتالهم، لأنهم أرادوا قتله؛ فنهب بلادهم وخربها؛ ونازل قلعة مصياف. فأرسل
سنان مقدم الإسماعيلية إلى الأمير شهاب الدين الحارمي صاحب حماة، وهو خال الملك
الناصر، يطلب منه الدخول بينهما في الصلح والشفاعة، وتهدده بالقتل إن لم يفعل ففعل ذلك
، وتم الصلح. وتوجه الملك الناصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الديار المصرية لأربع
خلون من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه.
عبوره الفرات
وملكه الديار الجزيرية
وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتته كتب مظفر الدين
كوكبري بن زين الدين علي بن تكين مقطع حران يطلبه إلى البلاد ويعده المساعدة. فسار
وعبر الفرات، وكاتب ملوك الأطراف 116 ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته فأجابه
نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، فسار الملك الناصر إلى مدينة الرها فحصرها في
جمادى الأول، وداوم الحصار، فطلب صاحبها فخر الدين مسعود الزعفراني الأمان، فأمنه
وتسلم البلد، وصار صاحبها في خدمته، وتسلم القلعة. فلما ملكها سلمها لمظفر الدين
صاحب حران، ثم سار عنها إلى الرقة وكان بها مقطها قطب الدين ينال بن حسان

المنبجي، فملكها وسار صاحبها إلى عز الدين أتابك، وسار إلى الخابور فملكه، بكماله.
ثم سار إلى نصيبين، فملك المدينة لوقته وحصر القلعة عدة أيام فملكها وأقطعها للأمير أبي
الهيجاء السمين، وهو من أكابر الأمراء وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن،
فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة من بها.
ملكه مدينة سنجار
قال: ثم سار الملك الناصر من الموصل إلى سنجار، فسير مجاهد الدين قايماز إليها نجدة
من عسكره، فمنعهم الملك الناصر الوصول إليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار
إليها ونازلها وبها شرف الدين صاحب الموصل، فملكها بأمان بعد حصار عظيم وسار
شرف الدين ومن معه إلى الموصل.
واستقر للملك الناصر جميع ما ملكه في هذه الوقعة بملك سنجار واستناب بها سعد
الدين بن معين الدين أنر، وهو من أكابر الأمراء، وأحسنهم صورة ومعنى. وعاد إلى
نصيبين، فلقيه أهلها وشكوا إليه من أبي الهيجاء السمين فأنكر عليه وعزله.
وسار إلى حران فوصل إليها في أوائل ذي القعدة، فكاتب عز الدين صاحب الموصل
صاحب خلاط وهو شاه أرمن واستنجد به على حرب الملك الناصر. فلما بلغه
اجتماعهما سار إلى بحرزم بالقرب من ماردين.
ملكه مدينة آمد
وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا
قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع ذي الحجة فنازلها وحاصرها،
ونصب عليها المناجيق، وهي من أحصن البلاد، يضرب المصل بحصانتها، وكان صاحبها
ابن نيسان في غاية الشح يبخل ببذل المال، فمله أصحابه وتخاذلوا عنه. فأخرج نساء إلى
القاضي الفاضل وسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله، وأن يؤخر ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلد
من الأموال والذخائر.
فأجابه الملك الناصر إلى ذلك، وتسلم البلد في العشر الأول من المحرم سنة تسع وسبعين
وخمسمائة. وانقضت الأيام الثلاثة قبل فراغه من نقل أمواله. فمنع مما بقي. وسلم الملك

الناصر البلد بما فيه إلى نور الدين صاحب الحصن، وكان فيه من الذخائر ما تزيد قيمته
على ألف ألف دينار.
ملكه تل خالد وعين تاب
قال: ثم سار الملك الناصر إلى تل خالد من أعمال حلب فحصرها ورماها بالمجانيق،
فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، وتسلمها في المحرم أيضاً.
وسار منها إلى عين تاب، وبها ناصر الدين محمد بن خمارتكين من أيام نور الدين الشهيد،
فحصرها، فراسله في طلب الأمان على أن يكون الحصن بيده ويكون في خدمته، فأجابه
إلى ذلك، وحلف له عليه، فنزل إليه واتصل بخدمته.
ملكه حلب
قال: ثم سار من عين تاب إلى حلب في المحرم أيضاَ ونزل بالميدان الأخضر عدة أيام ثم انتقل
إلى جبل جوشن؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنه يريد أن يبني مساكن لنفسه ولأصحابه وعساكره،
وأقام أياماً والقتال بين العسكرين في كل يوم.
وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي مجداً في القتال، فطالبه بعض الجند
بأرزاقهم 117 فاعتذر بقلة المال عنده، وكان قد شح بإخراجه، فقال له من يريد حفظ
حلب يخرج الأموال ولو باع حلي نسائه، فجنح إلى تسليمها فراسل الملك الناصر في طلب
العوض عنها: سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج.
فسلم مثل حلب وأعمالها وتعوض عنها قرى ومزارع، وجرت الأيمان على ذلك. وتسلمها
الملك الناصر في ثامن عشر صفر.
فسب الناس عماد الدين الزنكي واسمعوه المكروه على فعلة.
واستقرت الحال بينهما أن عماد الدين يحضر إلى الملك الناصر متى استدعاه بنفسه
وعسكره ولا يحتج بحجة.
قال: ولما تسلم الملك الناصر حلب امتدحه القاضي محي الدين ابن الزكي، قاضي
دمشق، بقصيدة جاء منها:
وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب
فكان ذلك.
ونقل الملك الناصر أخاه الملك العادل من نيابة الديار المصرية إلى حلب في سنة تسع
وسبعين، وأعطاه حلب وقلعتها وأعمالها ومنبج وما يتعلق بها، وسيره في شهر رمضان.

فتح الملك الناصر حارم
قال: ولما فتح الملك الناصر حلب كان بقلعة حارم سرخك، وهو من المماليك النورية،
فامتنع من تسليمها، فراسله في ذلك وخيره فيما يريد من القلاع، ووعده الإحسان؛ فاشتط
في الطلب. فترددت الرسائل بينهم، فراسل سرخك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك من معه
من الأجناد فخافوا أن يسلمها للفرنج، فقبضوا عليه واعتقلوه، وراسلوا الملك الناصر في
طلب الأمان، فأجابهم فتسلم الحصن ورتب فيه دزدار من بعض خواصه، وأقام الملك
الناصر بحلب إلى أن قرر قواعدها وأقطع أعمالها.
حصار الموصل
وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملك الناصر الموصل. وذلك أنه سار من
دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقصد حصارها فلما وصل إلى مدينة بلد سير إليه عز
الدين صاحب الموصل والدته وابنة عمه الملك العادل نور الدين الشهيد وغيرهما من النساء
في جماعة من أعيان الدولة يسألونه المصالحة، وبذلوا موافقته وإنجاده بالعساكر متى طلبها،
ليعود عن قصد الموصل. وإنما أرسلهن ظناً منه أنه لو سير ابنة نور الدين إلى الملك الناصر
في طلب الشام أعطاه لأنها ابنة مخدومه. فتلقاهن بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار
أصحابه ذلك، فكل أشار عليه بموافقتهن.
فقال له الفقيه عيسى الهكاري وعلي المشطوب: مثل الموصل لا تترك لامرأة، وإن عز
الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن الحرب. فوافق ذلك هواه فردهن خائبات، واعتذر
بأعذار غير مقبولة، وقصد الموصل وحاصرها، وكان بينهم مناوشات فلم يتمكن منها،
فندم حيث لم يحبس النساء، ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحب خلاط، فأشار عليه
أصحابه بمفارقة الموصل وقصد الخلاط ففارقها.
ملكه ميافارقين
قال: ولما سار الملك الناصر إلى خلاط جعل طريقه ميافارقين وكان صاحبها قطب الدين
صاحب ماردين قد توفي وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره
بها، فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمع في أخذها ونازلها، فرآها مشحونة بالرجال، وفيها زوجة

قطب المتوفى وبناته، والمقدم على جيشها أسد الدين برتقش، وكان فيه شجاعة وشهامة،
فحضره الملك الناصر من أول جمادى الأولى، ونصب عليها المناجيق والعرادات، واشتد
القتال فلم يظفر منها بشيء؛ فرجع عن القوة إلى إعمال الحيلة. فراسل امرأة قطب الدين
المقيمة بالبلد يقول إن أسد الدين قد مال إلينا في تسليم البلد، ونحن نرعى حق أخيك نور
الدين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لك نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادي، وتكون
ميافارقين وغيرها لك وبحكمك، 118 ووضع من أرسل إلى أسد الدين يعرفه أن الخاتون قد
مالت إلى تسليمها، وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموها إليه، فسقط في يده، وضعفت
نفسه، وأرسل إلى الملك الناصر يقترح إقطاعاً ومالاً، فأجيب إلى ذلك، وسلم البلد في سلخ
جمادى الأولى، وعقد نكاح بعض أولاده على بعض البنات.
عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها
قال: ولما تسلم الملك الناصر ميافارقين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها عاد إلى الموصل
لحصارها. فترددت الرسائل بينه وبين عز الدين صاحبها، ووقع الاتفاق على أن يسلم
للملك الناصر شهرزور وأعمالها، وولاية القرابلي، وجميع ما وراء نهر الزاب، وأن يخطب له
على منابر بلاده، ويضرب السكة باسمه، وتحالفا على ذلك، فتسلم الملك الناصر البلاد،
وسكنت الدهماء.
ورحل إلى حران فمرض بها وطال مرضه حتى أيس منه؛ ثم عوفي. وعاد إلى دمشق في
المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.
قال: ولما كان الملك الناصر مريضاً بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن
شيركوه، وله من الإقطاع حمص والرحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحلب، وأحضر جماعة
من أحداثها، ووعدهم، وأعطاهم مالاً؛ ثم وصل إلى حمص وراسل جماعة من الدماشقة
على تسليم البلد إذا مات الملك الناصر، وأقام ينتظر موته، فتوفي ناصر الدين ليلة عيد
الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصر.
وكان الملك الناصر لما بلغه ما اعتمده ناصر الدين بحلب ومراسلته للدماشقة، وضع عليه

الناصح بن العميد سقاه سما فمات، وطلب ابن العميد من الغد فلم يوجد وسار من ليلته
إلى الملك الناصر؛ فقويت الظن بذلك.
ولما توفي أعطي الملك الناصر إقطاعية لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف
ناصر من الأموال والخيول والآلات شيئا كثيراً، فحضر الملك الناصر إلى حمص وعرض
تركته، واخذ أكثرها، واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا ما لا خير فيه.
وحضر شيركوه عند الملك الناصر بعد موت أبيه بسنة فأجلسه في حجره وسأله إلى أين
انتهى من القرآن فقال إلى قوله تعالى: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في
بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً" فاضطرب الملك الناصر لذلك وظن أنه عرض بفعله،
وطلب مؤدبه ولوحه فوجده كذلك.
فعوضه عما أخذه من مال أبيه الضياع الخراب بالشام في ذلك الوقت، وهو الذي يعرف
إلى زماننا هذه بالخراب الأسدي، وورثته إلى هذا التاريخ يبيعون خراب ضياع الشام
والسواد والبلقاء وغير ذلك، واستولوا من الخراب ما ليس في كتابهم، فباعوا مالاً هو لهم
فإنه قيل إن الذي اشتمل عليه كتاب المبايعة أربعمائة ضيعة، وهي التي كانت قد استولى
عليها الخراب في ذلك الوقت، فأباع ورثته جميع ما خرب بعد ذلك مما لم يتضمنه كتابهم
وأعانهم على ذلك أنهم يبيعونه لأرباب الجاهات بأحسن الأثمان. واعرف بلداً يسمى
رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرقيم والجادية وسنجاب اشتراها الملك المنصور حسام
الدين لاجين المنصوري لما كان ينوب عن السلطنة في الشام، من الورثة الأسدية بسبعمائة
درهم فلما مات وانتقل بعض ميراثه إلى السلطان الملك الناصر بالولاء الشرعي. وكنت
أباشر ديوانه بالشام، حصلت من مغل هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمائة ما أبيع بنيف
وعشرين ألف درهم. فانظروا هذه التفاوت العظيم.
غزوات الملك الناصر
وما افتتحه من بلاد الفرنج
وقد رأيت أن أفرد غزوات الملك الناصر وفتوحاته ونكايته في الفرنج، ولا أضم ذلك إلى

غيره من أخباره، لأن فيه ما يدل على قوة الإسلام، وأن الله تعالى لم يزل يؤيد هذا الدين من
عباده بمن يناضل عنه، ويحمي حوزته، ويذب عن أهله، ويستأصل شأفة عدوهم.
ونذكر ذلك على الترتيب.
فكان أول ذلك وصول الفرنج على ثغر دمياط ورجوعهم عنه.
كان وصل الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة خمس وستين
وخمسمائة، 119 فحاصروا الثغر وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه لما ولي الوزارة
للخليفة العاضد لدين الله خافه فرنج الساحل، فكاتبوا أهل صقلية والأندلس من الفرنج
يستمدونهم ويخبروهم أن أسد الدين قد ملك الديار المصرية، وأنهم لا يأمنونه على البيت
المقدس، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، فنازلوا دمياط وضيقوا على أهلها، فأرسل
الملك الناصر إليهم العساكر براً وبحراً، وكتب إلى الملك العادل نور الدين الشهيد بذلك،
ويعرفه أنه لا يمكنه الخروج من القاهرة لأنه لا يأمن أمر الشيعة وأنهم يثورون بعده، فيبقى
الفرنج أمامه والمصريون خلفه، فأمده نور الدين بعسكر وخرج نور الدين بنفسه إلى بلاد
الفرنج للإغارة عليها؛ فاستباح أموالها لخلو البلاد الساحلية منهم فلما بلغهم ذلك رجعوا
إلى بلادهم بساحل الشام بعد مقامهم على دمياط نيفاً وخمسين يوماً، ولم يظفروا منها
بشيء، وأخرج العاضد للملك الناصر في هذه الغزاة ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب
والأسلحة.

غزوه بلاد الفرنج
وفتح إيلة

وفي سنة ست وستين وخمسمائة سار الملك الناصر عن القاهرة وأغار على أعمال
عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر ليرده،
فهزمه الملك الناصر بعد أن اشرف على أسره وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكب مفصلة
ونقلها على الجمال إلى البحر. فجمع قطعها وشدها، وألقاها في الماء، وحصر إيلة براً
وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها؛ وعاد إلى
الديار المصرية.

محاصرة الشوبك وعوده عنها
قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع وستين توجه الملك الناصر إلى حصن شوبك ونازله،
وحصره، وضيق على من به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستمهلوه إلى
عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، ثم بلغه أن الملك العادل نور الدين جاء من دمشق إلى
الشوبك من الجانب الآخر، فخاف أن نور الدين متى ملك الشوبك قبض عليه، فعاد إلى
الديار المصرية، وكتب نور الدين يعتذر بمرض أبيه بمصر، فقبل عذره ظاهراً، ووقعت
الوحشة بينهما باطناً.
وصول أسطول صقليه إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه
كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكن للملك الناصر بها غزاة إلا نفسه ولا
مباشرة للحرب، وكان سبب وصول هذا الأسطول إلى الثغر ما قدمناه من مكاتبة المصريين
الذين صلبهم صلاح الدين الفرنج، فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال وست
وثلاثون طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل الأوازد،
وفي المراكب من الرجال: خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف فارس وخمسمائة فارس، وكان
المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الثغر في السادس والعشرين من ذي
الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة، فخرج إليهم أهل الثغر بعددهم وأسلحتهم،
فمنعهم المتولي عليهم، وأمرهم أن يقاتلوا من وراء السور، وطلع إلى البر ونصبوا الدبابات،
وقاربوا السور؛ وقاتلهم أهل البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندرية من كان إقطاعه
بالقرب منها.
وكتب إلى الملك الناصر بذلك، فتجهز بنفسه، وقدم من يعلم أهل الثغر بوصوله، وكان أهل
الثغر قد انكوا في الفرنج وقتلوا وجرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدبابات.
ولما علم الفرنج بمقدم الملك الناصر جنحوا إلى الهرب، وأخذتهم سيوف أهل الثغر،
وحرقوا بعض مراكبهم، ونهبوا خيامهم وأخذوا سلاحهم؛ وكثر القتل فيهم، وهرب من
بقي؛ واحتمى ثلاثمائة من الفرسان على تل، فقاتلهم المسلمون طوال الليل إلى ضحى الغد

فأخذوا بين أسير وقتيل.
120 ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده
وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة خرج الملك الناصر إلى غزة وعسقلان.
وكان رحيله من القاهرة بعد صلاة الجمعة لثلاث ليال خلون من جمادى الأولى من السنة،
فوصل إلى عسقلان في يوم الأربعاء لليلة بقيت من الشهر، فسبى وسلب، وضرب أعناق
الأسرى، وتفرق عسكره للإغارة على الأعمال.
ثم سار إلى الرملة في يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة، فاعترضه الفرنج وقد جمعوا جموعاً
كثيرة؛ فكان بينهما وقعة عظيمة استشهد فيها أحمد ولد الملك المظفر تقي الدين عمر،
وأسر ولده الثاني شاهنشاه، وأقام في الأسر سبع سنين حتى أفكه السلطان بمال كثير،
وأسر الفقيه عيسى الكهاري.
ثم كانت على المسلمين. وذلك أن العساكر كانت قد تعبت للحرب، فلما قاربهم العدو
أراد بعض الأمراء أن ينقل الميمنة إلى الميسرة إلى القلب، فلما اشتغلوا بهذه التعبئة هجم
عليم الفرنج، فانكسروا وطلبوا الديار المصرية، وضلوا الطريق، وعاد السلطان ومن معه إلى
القاهرة في يوم الخميس منتصف الشهر.
وقعة مرج عيون
وانهزام الفرنج واسر ملوكهم
كانت هذه الوقعة في يوم الأحد لثمان خلون من شهر المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة؛
وكان الفرنج في عشرة آلاف مقاتل. فلما التقوا مع المسلمين انهزم ملكهم مجروحاً عند اللقاء
وأسر منهم جماعة منهم: مقدم الداوية، ومقدم الإستبارية وصاحب طبرية، وأخو صاحب
جبيل، وابن القومصية، وان بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا،
وابن صاحب مرقية وعدة خيالة من القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الأكابر زادت
عدتهم على مائتين وسبعين، سوى غيرهم، فنقلهم السلطان إلى دمشق.
فأما ابن بارزان فإنه بذل في نفسه مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق
ألف أسير من المسلمين، والتزم بفكاك الفقيه عيسى الهكاري، وأما ابن القومصية فافتكته

أمه بخمس وخمسين ألف دينار صورية، وأما مقدم الداوية فإنه هلك، فطلبت جثته بإطلاق
ألف أسير من مقدمي المسلمين.
قال: وفي هذا اليوم ظفر الأسطول المصري ببطشة كبيرة للفرنج. فاستولى عليها وعلى
أخرى وعاد إلى الثغر بألف أسير. والله أعلم.
هدم بيت الأحزان
كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدة مقام الملك الناصر على بعلبك واشتغاله
بأمرها؛ فبنوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم.
وكان في بنائه ضرر عظيم على المسلمين، فبذل لهم الملك الناصر في هدمه مائة ألف دينار
فأبوا ذلك، فجهز إليه الجيش فوصل إلى المخاضة يوم السبت لإحدى عشر ليلة بقيت من
شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، والحصن مبنى دونها من الغرب، فنصبوا عله المجانيق
بعد العصر من يوم الأحد ، فما جاء الليل إلا وقد استولوا على الباشورة، ثم أدار حوله
النقوب، فاستمرت إلى يوم الخميس، لست بقين من الشهر، فهدم الجدار، ودخل العسكر
الحصن وغنموا ما فيه؛ فكان ما غنموه من أنواع السلاح الجديدة مائة ألف قطعة؛ واسروا
سبعمائة أسير، ومن أسرى المسلمين مائة. ثم هدم الحصن إلى الأساس، وكان سمكه
عشرة أذرع.
قال: ولما عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدمشقي

هلاك الفرنج أتى عاجلاً   وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفحها   لما عمرت بيت أحزانها

مسيره إلى بلاد الأرمن
121 توفي سنة ست وسبعين وخمسمائة، توجه الملك الناصر إلى بلاد الأرمن، وذلك أن
ابن لاوون ملك الأرمن كان قد استمال قوماً من التركمان، فلما أتوه، وهم آمنون أسرهم،
فدخل الملك الناصر إلى بلاده واستولى على قلعة تعرف بالمانقير، وهدمها إلى الأساس،
وأخذ ما فيها من الآلات. ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً من الآلات والفضة
والنحاس. فبذل ابن لاوون جملة من المال، وأنه يطلق الأسرى، ويشتري خمسمائة أسير من
بلاد الفرنج ويطلقهم، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأخذ رهينة عليه، ثم عاد إلى الديار

المصرية، وأقام بها إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.
مسيره إلى الشام
والإغارة على طبرية وبيسان وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب
وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، توجه السلطان الملك الناصر لقصد الشام عند وفاة
الملك الصالح بن الملك العادل نور الدين، فأغار على طبرية وبيسان في العشر الأوسط من
شهر ربيع الأول، فانتصر بعد قتال.
وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عيذاب وذلك أن البرنس صاحب الكرك عمل أسطولا
بالكرك، ونقل قطعه إلى بحر أيلة، وجمعها وألقاها في البحر، وشحنها بالمقاتلة، فساروا في
البحر وافترقوا فرقتين: فرقة حصلت أيلة وفرقة توجهت إلى عيذاب، وأفسدوا السواحل،
ونهبوا، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها، من التجار. وجاءوا على
حين غفلة، فرأى الناس ما لم يعهدوا، فإن هذه البحر لم ير الناس فيه فرنجياً قط، لا تاجراً
ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.
وكان الملك العادل ينوب عن أخيه الملك الناصر بالديار المصرية، فعمر أسطولا وجهز فيه
جماعة من المسلمين، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الخاص، فسار في طلبهم، وابتدأ بالمركب
التي على أيلة، فظفر بها، وقتل بعض من فيها وأسر بعضهم. وتوخه لوقته بعد ظفره بهم
إلى الذين توجهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز وأخذ الحاج،
والدخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجدهم قد نهبوا ما وجدوه بها
وتوجهوا، فسار في أثرهم، فبلغ رابع والحوراء فأدركهم بها وأوقع بهم فلما تحققوا العطب
خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل من مراكبه وقاتلهم في البر أشد قتال،
وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فركبها، وقاتلهم، فظفر بهم وقتل أكثرهم واسر من
بقي، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لهم على قصدهم البيت الحرام وعاد إلى
مصر ببقية الأسرى، فقتلوا.
الإغارة على الغور
قال: ولما ملك الملك الناصر حلب وعاد إلى دمشق ثم رحل منها في ثامن جمادى الآخرة

سنة تسع وسبعين وخمسمائة نزل على بيسان فوجد أهلها قد ارتحلوا عنها، فنهبها
العسكر الناصري وتقووا بما فيها، وحرقوا ما لم يمكنهم أخذه وسار بهم حتى أتى
الجالوت، وهي قرية عامرة وعندها عين جارية، فعبأ أصحابه للقتال، ورحل إلى الفولة،
ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وكان الظفر لهم، ثم عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم
الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة.
وتوجه إلى الكرك في هذه السنة وعاد.
ثم جمع العساكر المصرية والحلبية وغيرها وقصد الكرك في سنة ثمانين وخمسمائة، وهي
الدفعة الثانية؛ فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم للذب عنها، ففارقها السلطان، وجهز طائفة
إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه.
غزوة الكرك والشوبك
وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا
قال العماد الأصفهاني في البرق الشامي: وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة برز الملك الناصر
من دمشق في أول المحرم، في العسكر العرمرم ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما
وصل إلى رأس الماء أمر ولده الأفضل بالمقام عندها ليجتمع الأمراء الواصلون من الجهات،
وسار السلطان 122 إلى بصرة، ومن ثم منها إلى الكرك، ورعى الزورع وقطع الأشجار، ثم
سار إلى الشوبك وفعل مثل ذلك، ووصل إليه العسكر المصري ففرقه على قلعتي الكرك
والشوبك، وأقام إلى أن انقضى من السنة شهران، والملك الأفضل مقيم رأس الماء، وقد
اجتمعت عنده العساكر، فتقدم إلى سرية منهم بالغارة على أعمال طبرية، فانتهوا إلى
صفورية فخرج إليهم الفرنج فقاتلوهم، فكان الظفر للمسلمين، وهلك مقدم الأستبار؛ وعادوا
إليه فكانت مقدمة النصر المبين.
وانتهت البشائر إلى الملك الناصر وهو بنواحي الكرك والشوبك، فسار بمن معه في يوم
الجمعة سابع شهر ربيع الأول، وعرضهم في اثني عشر ألف فارس. وعزم على دخول
الساحل، فانتهى إلى ثغر الأقحوانة فاجتمعت الفرنج زهاء خمسين ألفاً، ونزلوا على مرج
صفورية بأرض عكا، فلم يتقدموا عنها، فتقدم السلطان إلى الأمراء أن يقيموا في مقابلتهم،

ونزل هو بمن معه من خواصه على طبرية وشرع في نقب سورها، فهدموه في ساعة من
النهار، وامتنعت القلعة بمن فيها.
فلما اتصل بالفرنج فتح طبرية تقدموا، وذلك في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر، فترك
السلطان على طبرية من يحفظ قلعتها، وتقدم بالعسكر، فالتقيا على سطح جبل طبرية
الغربي منها، وحال بينهما الليل، فباتا إلى صبيحة يوم الجمعة، فتصادما بأرض قرية اللوبيا؛
واستمرت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحروب. ثم باتا إلى صبيحة يوم
السبت، فالتقيا.
فلما عاين القومص أن الدائرة تكون على طائفته هرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار
نحو صور، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجا بمفرده، ثم انهزمت طائفة أخرى فتبعها أبطال
المسلمين، فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، فضايقهم المسلمون
وأشعلوا حولهم النيران، فقتلهم العطش، فأسر مقدمهم، وقتل الباقون وأسروا، وألقى الله
عليهم الخذلان.
قال القاضي أبو المحاسن ابن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً
واحداً ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً.
وأما القومص الذي هرب فإنه وصل طرابلس، واصابه ذات الجنب، فأهلكه الله.
قال: وبات السلطان بالمنزلة، ونزل يوم الأحد على طبرية وتسلم قلعتها في بقية يومه، وأقام
بها إلى يوم الثلاثاء.
قال: ولما يسر الله هذا الفتح كتب السلطان إلى أخيه الملك العادل سيف الدين بمصر
يبشره به، وأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي لديه من العساكر، ومحاصرة
ما يليه منها؛ فسارع إلى ذلك، وسار ونازل حصن مجدل يابا وفتحه، وغنم ما فيه، ثم سار
إلى يافا وفتحها عنوة، وقتل وسبى، وأسر وغنم..
فتح عكا ونابلس وحيفا
وقيسارية وصفوريه والناصرة ومعليا والفولة والطور الشقيف وغير ذلك.
قال ابن شداد: ثم رحل السلطان طالباً عكا، وكان نزوله عليها في يوم الأربعاء سلخ شهر

ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين، وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها،
واستنفد من كان فيها من الأسرى، وكانوا زهاء أربعة آلاف، واستولى على ما فيها من
الأموال والذخائر.
ثم تفرقت العساكر في بلاد الساحل فأخذوا نابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية،
والناصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشقيف، وقلاعاً على هذه كثيرة، وكان ذلك لخلوها
من الرجال فإنهم عمهم القتل والأسر.
فتح تبنين وصيدا
وصرفند وبيروت وجبيل
قال: ثم أرسل السلطان بن أخيه تقي الدين إلى تبنين، فضايقها، وكتب إلى السلطان أن
يأتيه بنفسه، فوصل إليها ونازلها يوم الحادي عشر من جمادى الأولى، فسأل من بها من
الأمان واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وأطلقوا الأسرى، فخرجوا إليه، واستمهلوا
خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وأطلقوا الأسرى، فخرجوا إليه، فسر بهم وكساهم، وخلص في
تلك السنة 123 من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة
ألف.
قال: ثم رحل السلطان من تبنين إلى صيدا، فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها بعد قتال.
ثم سار إلى صيدا، ففارقها صاحبها وتركها خالية، فتسلمها ساعة وصوله إليها لتسع بقين
من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.
وسار من يومه نحو بيروت فقاتل أهلها على سورها وظنوا انهم قد قدروا على حفظه،
فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وتسلمها
في التاسع والعشرين من الشهر.

وأما جبيل فكان صاحبها في جملة الأسرى الذين نقلوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه،
وتسليمها، فأحضره مقيداً، فسلم البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السلطان.
فتح عسقلان وما يجاورها
قال: وسار السلطان إلى عسقلان والرملة وغزة والدروام وغير ذلك.

فنزل على عسقلان في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة، ونصب عليها المجانيق، فسلموها
على خروجهم بأموالهم سالمين وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة.
ثم تسلم حصون الداوية وهي غزة، والداروم، والرملة، وتبنى، وبيت لحم، ومشهد الخليل،
ولدّ، وبيت جبريل.
قال: وكان الفتح بين عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو
استولى عليها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.
قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم الخطابة وجميع المناصب الدينية بمدينة
عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين عبد الله بن عمر الدمشقي، وهو المعروف بقاضي
اليمن.
فتح بيت المقدس
قال المؤرخ: لما فرغ السلطان الناصر من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى البيت
المقدس، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين
وخمسمائة، وكان به البطرك المعظم عندهم، وهو أعظم شأنا من ملكهم، وبه أيضاً ياليان
بن بارزان صاحب الرملة ومن خلص من فرسان الفرنج من حطين، واجتمع به أهل
عسقلان وغيرها، كلهم يرى الموت عليه أهون من أن يملك البيت المقدس.
فنزل السلطان بالجانب الغربي وأقام خمسة أيام يطوف حول البلد لينظر من أين يقاتله، ثم
انتقل إلى الجانب الشمالي يوم الجمعة، العشرين من الشهر وكانت من به من المقاتلين ستين ألفاً
غير النساء والصبيان فنصب السلطان المجانيق في تلك الليلة، ونصب الفرنج على السور
المجانيق أيضاً، وقاتلوا أشد قتال رآه الناس لأن كلا من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات
لا يحتاج فيه على سلطان، وكانت خيالة الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون
ويبارزون، وتوالى الزحف، ونقب المسلمون السور مما يلي وادي جهنم.
فلما رأى الفرنج ذلك أخلدوا إلى طلب الأمان، وبعثوا جماعة من أكابرهم في ذلك؛ فامتنع

الملك الناصر من ذلك وقال، لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه في سنة إحدى
وسبعين وأربعمائة من القتل والسبي، فلما رجع الرسل إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب
الأمان لنفسه ليحضر إلى الملك الناصر، فأمنه، فحضر إليه وسأله الآمان فلم يجبه،
واستعطفه فلم يتعطف، واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس منه قال له ما معناه: أيها السلطان،
اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء
الأمان، وهم يكرهون الموت ويرغبون بالحياة؛ فإذا رأينا أن الموت لا بد منه والله لنقتلن
أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، فلا نترككم تغنمون منها دينار واحداً ولا درهماً،
ولا تسبون ولا تأسرون رجلا أو امرأة 124 فإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد
الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشريفة؛ ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم
خمسة آلاف، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم نخرج إليكم، كلنا، فنقاتلكم قتال
من يريد يحمي دمه ونفسه، فلا يقتل الرجل منا حتى يقتل، فإما نموت أعزاء أو نظفر كرماء.
فلما سمع الملك الناصر كلامه استشار عند ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بموافقتهم.
ووقع الصلح على أن يسلموا أسرى المسلمين ويبذلون عن كل رجل من الفرنج عشرة دنانير،
وعن كل امرأة خمسة، وعن كل طفل وطفلة دينارين، يستوي في ذلك الغني والفقير، وبذل
ابن بارزان في الفقراء ثلاثين ألف دينار من ماله، وعلى أن تكون المدة أربعين يوماً فمن أدى
ذلك قبل المدة خلص ومن تأخر استرق.
وتسلم السلطان المدينة في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب وكان يوماً مشهوداً،
رفعت فيه الأعلام الإسلامية على الأسوار، ورتب السلطان على أبواب البلد الأمناء من
الأمراء يأخذون من أهله ما استقر عليهم، فخانوا، ولو أدوا الأمانات لامتلأت الخزائن.
قال: وصلى الملك الناصر الجمعة الثانية في رابع شعبان في قبة الصخرة، وكان الخطيب
والإمام القاضي محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق.
ثم رتب له خطيباً وإماماً ونقل إليه المنبر الذي كان عمله الملك العادل نور الدين بحلب

برسم البيت المقدس إذا فتحه، وكان بين عمله وفتح البيت المقدس ما يزيد عن عشرين
سنة.
ثم تقدم أمر السلطان بعمارة المسجد الأقصى ومحو ما كان الفرنج صنعوه من الصور على
عادتهم، ونقل إليه المصاحف، وطهره من أدناس الكفر، رحمه الله تعالى، وتقدم بعمل الربط
والمدارس، وجعل دار الأسبتار مدرسة للشافعية.
رحيله ومحاصرة صور
قال المؤرخ: وأقام السلطان الملك الناصر بالبيت المقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان
من السنة، ثم سار لقصد محاصرة صور وقد اجتمع فيها خلق كثير من الفرنج، وقدم إليها
المركيس في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادته أن يحضر إلى البيت المقدس بأموال يفرقها،
فلما حضر في هذا الوقت ووصل عكا فرآها قد خرجت عن أيدي الفرنج سار إلى صور
وملكها، وأنفق ما معه على من بها، فقوي أمره وانحاز إليه جميع من خلص بالأمان من
سائر البلاد، فأنفق على سور صور وخنادقها، وعمقها، فصارت كالجزيرة في البحر لا يمكن
الوصول إليها.
فوصل الملك الناصر إلى عكا في مستهل شهر رمضان، فأصلح من شأنها، ثم رحل عنها
ونازل صور في تاسع شهر رمضان ونزل على نهر بالقرب من البلد، ثم نزل على تل يقارب
صور في الثاني والعشرين من الشهر، وقسم القتال على العسكر لكل جمع منهم وقت
معلوم. واستدعى الأسطول المصري، وكان بعكا، فجاءته عشر شوان، وكان للفرنج في
البحر مراكب فيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا براً بحراً؛ ثم أغفلوا أمرهم فملك
الفرنج من الشواني خمسة وأسروا مقدمها.
ثم كانت حروب كثيرة ووقائع ثم رحل السلطان عنها في آخر شوال، وهو أول كانون وسار
إلى عكا، وأذن للعساكر بالعود إلى أوطانهم للراحة في الشتاء والعود في الربيع، فعادت
عساكر الشرق والموصل والشام ومصر، وبقي السلطان في عكا في حلقته وخاصته، ورد
أمرها إلى الأمير عز الدين جرديك.
فتح هونين

قال المؤرخ: كان السلطان لما فتح تبنين امتنع من بهونين من تسليمها، وهي من أحصن
القلاع وأمنعها، فرتب من يحاصرها؛ فطلب من بها الأمان لما كان السلطان يحاصر صور،
فأمنهم، ونزلوا منها وتسلمها،
واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية، مع كثرتها، كان في
ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس، 125 وأشدهم عدواة للمسلمين، فيسر الله فتحها
ايسر مدة.
فتح حصن برزية
قال: ولما رحل السلطان من قلعة الثغر سار إلى قلعة برزية، وبحصانتها يضرب المثل، وهي
تقابل حصن أفاميا، وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، ومن
عيون تنفجر من جبل برزية وغيره.
وكان أهلها أضر شيء بالمسلمين يقطعون الطريق ويبلغون في الأذى.
فنزل السلطان شرقها في رابع عشري الشهر، وركب من الغد وطاف عليها لنظر موقعاً
يقاتلها منه، فلم يجد إلا من جهة الغرب، وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهتي الجنوب
والشمال البتة، فإن جبلها لا يصعد إليه من هاتين الجهتين؛ وأما الجانب الشرقي فيمكن
الصعود منه لغير مقاتل لصعوبته وارتفاعه؛ وأما جهة الغرب فإن الوادي المطيف بجبلها قد
ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً حتى قابل القلعة، بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام، فنزله
المسلمون ونصبوا المجانيق، ونصب أهل القلعة منجنيقاً، فرأى السلطان المجانيق لا تفيد،
فتركها وعزم على الزحف ومكاثرتها بالرجال؛ فقسم العسكر ثلاثة أقسام يزحفون بالنوبة،
فطال ذلك على أهلها وعجزوا عن مقاتلتهم فملكها المسلمون عنوة ونهبوا واسروا وسبوا،
وأخذوا صاحبها وأهله وأمست خالية خاوية، وألقى المسلمون النار في بعض البيوت
فاحترقت.
فتح قلعة دربساك
قال: ثم رحل السلطان بعد فتوح برزية من الغد فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي
بالقرب من إنطاكية، فأقام هناك حتى وافاه من تخلق عنه من عسكره ثم سار إلى قلعة

دربساك، فنزل عليها في ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وهي من أحصن
معاقل الداوية وقلاعهم التي يدخرونها عند نزول الشدائد بهم، فنصب عليها المجانيق، وتابع
الرمي بالحجارة، فهدم قطعة يسيرة من سورها، ثم أمر بالزحف عليها ومهاجمتها، فتوالى
الزحف والقتال، وتقدم النقابون فنقبوا منها برجاً وعلقوه فسقط، وطلب أهله الأمان
فأمنهم على أن لا يخرجوا منها بغير ثيابهم خاصة، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى إنطاكية،
وتسله في تاسع عشر شهر رجب.

فتح قلعة بغراس

قال: ثم سار عن دربساك إلى قلعة بغراس، فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في
حصرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين، وقلعة منيعة،
وهو بالقرب من إنطاكية، فسار إليها وجعل عسكره مقابل إنطاكية يغيرون على ضياعها،
وبقي هو في بعض أصحابه على القلعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثر فيها، فغلب على
الظنون تعذر فتحها، فبينما هم في ذلك إذ جاء رجل من القلعة يطلب الأمان لرسول،
فأعطيه، وجاء رسول يطلب الأمان لأهلها، وسلموها على قاعدة دربساك، وعاد الرسول
ومعه الأعلام السلطانية فرفعت على رأس القلعة، وتسلمها السلطان وأمر بتخريبها
فخربت.

الهدنة مع صاحب إنطاكية

قال: ولما فتح السلطان بغراس قصد حصار إنطاكية فجاءته رسل بيمند وسأله الهدنة
ثمانية أشهر بحيث يطلق جميع ما عنده من أسرى المسلمين، فاستشار السلطان أصحابه،
فأشار أكثرهم بذلك ليستريح العسكر ويجددون 126 ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك
ووقعت الهدنة ثمانية أشهر أولها تشرين الأول.
وتوجه السلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرق العساكر الشرقية: عماد
الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وعسكر الموصل، وغيرهما، ثم رحل إلى دمشق
فدخلها في أول شهر رمضان من السنة.

فتح الكرك والشوبك
وما يجاورهما

قد ذكرنا أن السلطان قد جعل على الكرك من يحاصرها وهو سعد الدين كمشبه، في أول
سنة أربع وثمانين، فلازم الحصار هذه المدة الطويلة حتى نفذت ذخائر الفرنج، وأكلوا داوبهم،
فراسلوا الملك العادل أخا السلطان. وكان السلطان قد جعل بتلك النواحي في جمع من
العسكر، وسألوه الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سعد الدين مقدم العسكر فتسلم
القلعة منهم وأمنهم.
وتسلم أيضاً ما قارب هذا الحصن من الحصون وهو الشوبك وهرمز، والوعيرة، والسلع
فأمنت القلوب من تلك الجهة.
فتح قلعة صفد
قال: ولما وصل السلطان إلى دمشق أشير عليه أن يفرق العساكر، فقال: إن العمر قصير
والأجل غير مأمون، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون: صفد والكواكب، ولا بد من الفراغ
من ذلك فإنهما في وسط بلاد الإسلام، وأقام بدمشق إلى منتصف شهر رمضان من السنة،
وسار إلى قلعة صفد، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وداوم الرمي ليلاً ونهاراً، فسألوا
الأمان، فأمنهم وتسلمها، وخرج أهلها إلى صور.
فتح كوكب
قد قدمنا أن السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النجمي، فلما حضر
السلطان صفد أرسل من بصور من الفرنج نجدة من جهاتهم إلى كوكب، وهم مائتا رجل
من الشجعان، فظفر بهم قايماز فقتلهم عن آخرهم، وأرسل إلى السلطان المقدمين عليهم،
وهما رجلان من فرسان الأسبتار، فأمر بقتلهما فقال أحدهما ما أظن إننا ينالنا سوء بعد
أن رأينا وجهك الصبيح، فعفا عنهما واعتقلهما.
ولما ملك صفد سار عنها إلى كوكب وشدد الحصار ووالى الزحف، واشرف على
أخذها، فسأل الفرنج الأمان فأمنهم وأطلقهم، وتسلم الحصن في منتصف ذي القعدة سنة
أربع وثمانين وخمسمائة.
فالتحق من كان به بصور فقويت شوكتهم وكثروا، لأنه اجتمع عندهم شجعان الفرنج
وكماتهم. وتابعوا الرسل إلى ملوك الفرنج بالأندلس وصقلية والجزائر يستغيثون بهم ويسألون
الإمداد، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم سار السلطان إلى البيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا
وأقام بها إلى أن انسلخت السنة.
وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلاً من الشيعة، ونادوا بشعار
العلويين، وصاحوا: يا لعلي، وسلكوا الدروب ينادون، ظناً منهم أن أهل البلد يلبون
دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العبيدية ويملكون البلد ويخرجون من بالقصر من
العلويين؛ فلم يجيبهم أحد من الناس.
فلما خاب سعيهم تفرقوا فأخذوا. وكتب بذلك إلى السلطان فأهمه وأزعجه.
فقال له القاضي الفاضل عبد الرحيم: ينبغي أن يفرح السلطان بذلك ولا يحزن، حيث علم
من بواطن رعيته المحبة له والنصيحة، وترك الميل إلى عدوه، ولو وضع السلطان جماعة
يفعلون مثل هذه الحالة لعلم بواطن أصحابه ورعيته وخسر الأموال الجليلة لكان قليلاً
فسرّى عنه.
127ذكر فتح شقيف ارنوم
وفي شهر ربيع الأول سنة خمسين وثمانين وخمسمائة سار السلطان إلى شقيف ارنوم، وهو
من أمنع الحصون، ليحصره، ونزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب
صيدا، إلى السلطان؛ وكان من أكثر الناس دهاء ومكراً، فقال: أنا محب لك ولدولتك،
ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يطلع المركيس على بيني وبينك فينال الأذى أولادي
وأهلي منه أذى، فإنهم عنده بصور؛ وأحب أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم من
عندهن وحينئذ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع
بما تعطينا من الإقطاع، فأجابه السلطان إلى ذلك وظن صدقه، واستقر الأمر بينهما أن
يسلم الشقيف في جمادى الآخرة.
وأقام السلطان بمرج عيون ينتظر الأجل وهو قلق مفكر انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب
إنطاكية فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكر ومن يأتيه من بلاد الشرق
ويكون مقابل إنطاكية لئلا يغير صاحبها على ما يجاوره من بلاد الإسلام عند انقضاء
الأجل.

وكان السلطان أيضاً منزعج الخاطر لما بلغه من اجتماع الفرنج بصور وما يصل إليهم منه
الإمداد، وأنهم اجتمعوا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها، فخاف أن
يترك الشقيف وراء ظهره، وكان أرناط في هذه المدة يشتري الأقوات من سوق العسكر،
والسلاح، وغير ذلك مما يحصن به شقيفه، فيبلغ السلطان فلا ينكره بحسن ظنه، وكان
قصد أرناط إلى أن يظهر الفرنج من صور، فلما قرب الأجل تقدم السلطان إلى الشقيف،
واستدعى أرناط وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام فجاءه، فتحدث معه في تسليم الحصن،
فاعتذر بأولاده وأهله وأن المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه، وطلب المهلة مدة أخرى،
فحينئذ تحقق السلطان من مكره وخداعه، فأخذه وحبسه وأرخ بتسليم الشقف فطلب
قسيسا وحمله رسالة سراً، وأظهر أنه أمر بتسليمه، فامتنع من بالحصن من تسليمه: فسير
أرناط إلى دمشق وسجنه، وتقدم إلى الشقيف وضيق من به، وترك عليه من يحفظه ويمنع
الوصول إليه. فتسلمه في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين،
وأطلق صاحبه.
مسير السلطان من مرج العيون إلى صور وما كان عليه من الوقائع
قال: وجاءت السلطان كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا في مقابلة الفرنج على مدينة
صور يخبرونه إن الفرنج قد اجتمعوا على عبور الجسر الذي لصور، وعزموا على حصار
صيدا، فسار جريدة في شجعان أصحابه، فوصل بعد أن كانت الوقعة بين الفرنج ولين
اليزك.
وذلك أن الفرنج خرجوا من مدينة صور فلقيهم اليزك على مضيق وقاتلوهم ومنعوهم،
وكانت حرباً شديدة، وأسر من الفرنج جماعة، منهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين،
وقتل من المسلمين جماعة، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى صور والله
أعلم.
ثم كانت وقعة ثانية بعد وصول السلطان مع المتطوعة.
وذلك أن السلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليزك في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج

للخروج؛ فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة لينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل، فظن أن هناك
من المتطوعة أنه قصد الغزاة، فساروا مجدين أوغلوا في أرض العدو وبعدوا 128 عن
العسكر، وخلفوا السلطان وراء ظهورهم؛ فبعث من يردهم فلم يرجعوا، وظن الفرنج أن
وراءهم من يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلما علموا بانفرادهم حملوا عليهم حملة رجل واحد،
فقتل منهم جماعة من المعروفين: فشق على السلطان والمسلمين، وكانت هذه الوقعة في تاسع
جمادى الأولى.
فلما رأى السلطان ذلك انحدر من الجبل بمن معه، وحمل على الفرنج فردهم إلى الجسر،
فرموا بأنفسهم في الماء، فغرق منهم مائة دارع سوى من قتل، وعادوا إلى مدينة صور، فعادا
السلطان إلى تبنين ثم إلى عكا.
ثم كانت وقعة ثالثة في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان.
محاصرة الفرنج لعكا
قال المؤرخ: لما كثر جمع الفرنج بصور، على ما ذكرناه من أن السلطان كان لكما فتح
حصناً أو مدينة بالأمان سار أهلها إلى صور بأموالهم وأهلهم، اجتمع بها منهم عالم كثير لا
يحصون، وأموال كثيرة، ثم أن الرهبان والقسوس لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج
بيت المقدس منهم، وتابعهم جماعة من المشهورين، فأخذهم البطرك ودخل بهم إلى بلاد
الفرنج يطوفها بهم ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت
المقدس
وصوروا صورة المسيح عليه السلام وصورة رجل أعرابي والعربي يضربه بين جماعة،
وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله.
فعظم ذلك على الفرنج وحشدوا، حتى النساء فإنهم كان معهم على عكا عدة من
النساء يبارزن الأقران، ومن لم يستطع أن يخرج استأجر عنه أو يعطيهم مالاً، فاجتمع لهم
من الرجال والأموال ما لا يحصى كثرة.
واجتمعوا بصور والبحر يمدهم بالأموال والأقوات والعدد والذخائر، فضاقت عليهم مدينة

صور، باطنها وظاهرها، فأرادوا قصد صيدا، فكان من ردهم ما ذكرناه.
فاتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها؛ فساروا إليها بفارسهم وراجلهم، ولزموا البجر في
مسيرهم، لا يفارقونه في السهل والوعر، ومراكبهم تسايرهم وفيها السلاح والذخائر. فكان
رحليهم من مدينة صور في ثاني شهر رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ونزولهم على
عكا في منتصف الشهر، فتخطف المسلمون منهم في مسيرهم واخذوا من انفرد.
وجاء الخبر إلى السلطان برحيلهم، فسار حتى قاربهم. ثم نزلوا على عكا قبل وصوله
إليها، ونازلوها من سائر جهاتها براً وبحراً فلم يبق للمسلمين إليها طريق. ونزل السلطان
عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى النهر
الجاري، ونزلت الأثقال بصفورية، وسير الكتب إلى الأطراف يستدعي العساكر، فأتاه
عسكر الموصل، وديار بكر، وسنجار، وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه تقي الدين ابن أخيه،
ومظفر الدين بن زين الدين صاحب حران والرها، فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر
وتأتي الفرنج من البحر.
وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة.
نحن نذكر المشهور منها على سبيل الاختصار؛ وأما الحروب التي تكون بين بعض هؤلاء
وبعض هؤلاء والمناوشات، فلو شرحناها لطال بها الكتاب لأن مدة الحصار كانت ثلاث
سنين وشهراً.
وكان ابتداء القتال في مستهل شعبان من السنة، فقاتلهم السلطان في ذلك اليوم ولم يبلغ
منهم غرضاً، ثم باكرهم القتال واستدار عليهم من سائر جهاتهم إلى أن انتصف النهار،
وصبر الفريقان أعظم صبر، فحمل تقي الدين من الميمنة على من يليه منهم وأزاحهم عن
مواقفهم، فركب بعضهم بعضاً لا يلوي الأخ على أخيه، والتجأوا إلى من يليهم من
أصحابهم. وانكشف نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم، ودخل المسلمون البلد
وخرجوا منه، واتصلت الطريق وزال الحصار. وأدخل السلطان إلى البلد 129 من أراد

من الرجال، وما أراد من الذخائر، والأموال، والسلاح، فكان من جملة من أمره السلطان
بالدخول إليها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين، وقتل من الفرنج في هذا اليوم خلق
كثير.
ثم كانت بينهم وقعات في ثامن شعبان، وتاسعه، وعاشره، وحادي عشره، ثم كانت وقعة
في تاسع عشر شعبان بين أهل عكا والعدو فقتل من في الطائفتين وجرح.
ثم كانت الوقعة الكبرى في الحادي والعشرين من شعبان وذلك أن الفرنج اجتمعوا
وتشاوروا، وقالوا أن العسكر المصري إلى الآن ما قدم وهذا فعل السلطان، فكيف إذا
قدمت عساكره فاجمعوا رأيهم على مناجزة الحرب، وكانت عساكر السلطان متفرقة: منها
طائفة في مقابلة إنطاكية تمنع صاحبها من الإغارة على الأعمال الحلبية، وطائفة أخرى على
حمص في مقابلة طرابلس، وطائفة أخرى تقاتل من بقي في صور، وطائفة بالديار المصرية
لحماية ثغرى الإسكندرية ودمياط، ومن بقي من العسكر المصري إلى الآن لم يصل؛ وهذا
ما أطمع الفرنج في الظهور.
قال: وأصبح المسلمون في هذا اليوم على عادتهم، فمنهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو
في خيمته، ومنه من قد توجه في حاجته، فخرج الفرنج من معسكرهم كالجراد المنتشر قد
ملأوا الأرض، فكانت وقعة عظيمة ابتداؤها المسلمين، ثم أنزل الله نصره عليهم، فهزموا
الفرنج أقبح هزيمة، وقتل من رؤسائهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هذه الموقعة من
الغلمان ومن لم يعرف مائة وخمسون ومن المعروفين: الأمير مجلى بن مروان والظهير أخو
الفقيه عيسى الهكاري، وكان والي البيت المقدس، جمع العلم والدين والشجاعة، والحاجب
خليل الهكاري وجمال الدين بن رواحة الحموي، ولم يكن بالمصاف، وأسر من الفرنج مقدم
الداوية وكان السلطان قد أسره فيما تقدم وأطلقه، فقتله الآن.
قال: وأمر السلطان بجمع القتلى وإلقائهم في النهر الذي يشرب منه الإفرنج.
قال العماد الأصفهاني رحمه الله: ومن العجب أن الذي ثبتوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً

وردوا مائة ألف، وآتاهم الله قوة بعد ضعف.
قال ابن الأثير: وأخذ من جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل، فلما
أسرن وألقي عنهن السلاح عرفن.
رحيل السلطان عن منزلته وتمكن الفرنج من حصار عكا
كان رحيله في رابع شهر رمضان من السنة، وسبب ذلك أنه لما قتل من الفرنج هذه المقتلة
العظيمة جافت الأرض منهم وتغير الهواء، وحدث للأمزجة فساد، وحصل للسلطان مرض
القولنج، وكان يعتريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا لو أراد الفرنج أن
ينصرفوا لما قدروا فإنا ضيقنا عليهم، والرأي أن ينتقل عن هذه المنزلة، فإن رحلوا فقد
كفينا شرهم، وإن أقاموا عدنا للقتال، فوافقهم. وكان بئس الرأي.
ورحل السلطان إلى منزلة الخروبة، وكتب أهل عكا يعلمهم بسبب رحيله ويحثهم على
حفظ البلد وغلق أبوابها.
قال: ولما رحل السلطان بعساكره عن تلك المنزلة أمن الفرنج وانبسطوا، وانبثوا، وعادوا
على حصار عكا في البر والبحر، وشرعوا في حفر خندق عليهم يكون بينهم وبين المسلمين
إن قصدوهم وعملوا سوراً من تراب، وجاءوا بما لم يكن بالحسبان، هذه والسلطان قد
اشتد به المرض فلم يستقل منه إلى أن تكامل حفر الخندق وعمل السور من ترابه.
وصول العسكر المصري في البر 130 والأسطول في البحر
قال: وفي منتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل
سيف الدين، فلما وصلت قويت قلوب الناس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً. ثم
وصل بعده الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدمهم الأمير حسام الدين لؤلؤ، وكان
شهماً شجاعاً، مقداماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتة فوقع على بطشة
كبيرة للفرنج، فغنمها وأخذ ما فيها من الأموال الكثيرة والميرة، وعبر بذلك إلى عكا؛
فسكنت نفوس الناس بذلك.
وقال العماد: أنه ظفر ببطشتين.
خبر ملك الألمان
وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني: ونمى الخبر بوصل ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل
على قصد العبور إلى بلاد الإسلام. فاستنفر الملك الناصر الجيوش والعساكر من كل جهة،
وجهز القاضي بهاء الدين شداد وأمره بالمسير إلى الديوان العزيز ببغداد وأن يمر على
صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، ويستدعيهم بأنفسهم وعساكرهم.
قال ابن شداد: فسرت في حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة،
وأبلغت الرسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعدت في خامس شعر ربيع الأول سنة ست وثمانين،
وسبقت العساكر.
ثم وصلت العساكر عند انقضاء الشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة بحمل النفط
الطيار وحملين من القنا، وتوقيع بعشرين ألف دينار يقبض على الديوان العزيز من التجار،
وخمسة من الزراقين.
وكان العدو قد اصطنع ثلاثة أبرجة من الخشب والحديد كالجبال وألبسها الجلود المسقاة
بالخل، فيسر الله تعالى على المسلمين إحراقها، وذلك في الثامن والعشرين من شهر ربيع
الأول.
قال: وكان السلطان قد كتب إلى مصر بعمارة الأسطول وإحضاره إلى عكا، فوصل في يوم
الخميس ثامن الشهر، فكانت الحرب في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في
البر، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.
هذا ما كان من أمر السلطان لما بلغه خبر ملك الألمان.
وأما ملك الألمان فقال ابن الأثير في تاريخه الكامل:
وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفة من الفرنج من
أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً، وكان قد أزعجه ملك المسلمين البيت المقدس، فجمع
عساكره وسار بهم، وطريقه في مسيره على القسطنطينية، فأرسل ملك الروم بخبره إلى
السلطان، ووعده أنه لا يمكنه من العبور إلى بلاده، فلما وصل ملك الألمان إلى
القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه، لكنه منع عنهم الميرة، فقلت
أزواده، وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية، وصاروا على ارض بلاد الإسلام، وهي

مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود السلجقي، فلما وصلوا إلى أوائلها ثار عليهم التركمان
فما زالوا يسايرونهم، فيقتلون من انفرد منهم ويسرقون ما قدروا عليه؛ فنالهم لذلك مشقة
عظيمة، وهلك كثير منهم من الجوع والبرد وكثرة الثلوج.
فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم،
فعجز عن ذلك، فعاد إلى قونية وأرسلوا له هدية وطلبوا منه أن يأذن للرعية في بيع الأقوات
عليهم فأذن بذلك.
وطلبوا من الملك قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يجهز معهم جماعة من
أمرائه رهائن، فخافهم، وسلم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم، فساروا بهم معهم، ولم
يمتنع اللصوص وغيرهم من أذاهم؛ فقبض ملك الألمان على من معه من الأمراء وقيدهم،
فمنهم من مات في أسره ومنهم من فدى نفسه.
قال ابن شداد: وأعوزهم الزاد وعراهم جوع عظيم. وعجزوا عن حمل أقمشتهم،
فجمعوا عددا كثيراً وسلاحاً 131 وجعلوا ذلك بيدراً وأضرموا فيه النار، لعجزهم عن
حمله، ولئلا ينتفع به غيرهم.
قال: وبقيت بعد ذلك رابية من حديد.
قال ابن الأثير: ثم سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون بن اصطفانه بن
ليوم الأرمني، فأمدهم بالأقوات والعلوفات، وحكمهم في بلاده، وأظهر الطاعة لهم، ثم سار
إلى إنطاكية، وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده، وعبر ملكهم إليه ليغتسل فيه، فغرق في
مكان لا يبلغ الماء وسط الرجل فيه. وكفى الله شره.
وقال ابن شداد: إنه لما وصل إلى طرسوس سبح في النهر فمرض من شدة برد الماء فمات؛
ولما مات سلقوه في خل وجمعوا عظامه في كيس ليحملوها إلى القدس ويدفنوها به.
قال ابن الأثير: وكان معه ولد كبير فملك بعده وسار إلى إنطاكية، فاختلف أصحابه عليه؛
وأحب بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه، ومال بعضهم إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً،
وسار هو فيمن بقي معه، فعرضهم، وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الموت والوباء،
فوصلوا إلى إنطاكية وكأنهم نبشوا من القبور فتبرم صاحبها وحسن لهم المسير إلى عكا،

فساروا على اللاذقية وجبلة وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون؛ وخرج أهل حلب
وغيرها إليهم وأسروا خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممن أسر.
قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا فيها أياماً فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف
رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا.
ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم،
فغرقت بهم المراكب، فلم ينج منهم أحد.
وقال ابن شداد: إنهم لما وصلوا إلى إنطاكية طلب ابن ملكهم من صاحبها قلعتها لينقل
إليها من أمواله وخزائنه وأثقاله، فسلمها إليه طمعاً في ماله، وكان كذلك، فإنه لم يعد إليه
واستولى الإبرنس على ما فيها.
قال: وجاءت فرقة منهم على حصن بغراس وظنوا أنه للفرنج، ففتح لهم والي الحصن الباب
وتسلم منهم الأموال، واسر جماعة منهم وقتل، وخرج إليهم العسكر الحلبي فقتل منهم
وأسر، ثم أخذ من بقي منهم على طريق طرابلس فخرج عليهم من باللاذقية وجبلة، فقتلوا
منهم وأسروا.
ثم ركب ملك الألمان في البحر من طرابلس بمن بقي معه لقصد عكا، في أواخر شعبان،
فثارت عليهم ريح كسرت منهم ثلاثة مراكب، ووصل الباقون إلى صور ثم إلى عكا في
سادس شهر رمضان سنة ست وثمانين؛ وكان لقدومهم وقع عظيم.
سيأتي ذكر ما تجدد بعد وصولهم إلى عكا إن شاء الله تعالى.
فلنذكر ما كان قبل وصولهم من الوقائع.
الوقعة العادلية على عكا
كانت هذه الوقعة في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأولى سنة ست وثمانين.
قال ابن شداد: لما بلغ السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد الأرمن جهز بعض العساكر
إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو.
وتقدم أمره بهدم سور طبرية وهدم يافا، وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل
ونقل أهلها غلى بيروت. فلما علم الفرنج إن العساكر قد تفرقت نهضوا للقتال بغتة وهجموا
على الميمنة وفيها مخيم الملك العادل، فلما بصر بهم ركب فيمن معه، وتلاحقت به

العساكر، واقتتلوا، فكانت من أعظم الوقائع، قتل فيها خلق كثير من الفرنج.
قال: ولقد خضت في الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم
وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر في
الميمنة وبعض القلب، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة غبر معروفين.
قال: ولما أخبر من بعكا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيم العدو من البلد،
وجرى بينهم مقتلة عظيمة انتصر فيها المسلمون، ونهبوا ما كان بخيام الفرنج من الأقمشة
وغيرها، حتى الطعام الذي في القدور، وسبوا النساء.
قال: واختلف الناس في عدد من قتل من الفرنج في هذه الوقعة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل
سبعة آلاف، ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف.
وصول الكندهري إلى عكا
نجدة للفرنج وما جدده من آلة الحصار
قال: ثم وصل الكندهري في البحر نجدة للفرنج في عدد كبير أضعاف ما نقص منهم، ففرق
الأموال واستخدم ونصب المجانيق على عكا فحرقها المسلمون؛ ثم نصب منجنيقين فأحرقا
في أول شعبان، وكان قد أنفق عليهما ألف دينار وخمسمائة دينار وأسر من الفرنج سبعون
في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون.
ثم جهز الفرنج بطشاً لمحاصرة برج الذبان وهو برج وسط البحر على باب ميناء عكا،
فعمدوا إلى بطشه من البطش وعملوا برجاً على صاريها وملأوه حطباً ونفطاً على أنهم
يلحقون البطشة ببرج الذبان، ثم يحرقون البرج الذي على الصاري، وجعلوا في البطشة
وقوداً كثيرة حتى يلقوه في البرج إذا اشتعلت فيه النيران، وعبئوا بطشة ثانية وملأوها
حطباً على أنها تدخل بين المراكب الإسلامية ثم يلهبونها فتحترق هي والبطش الإسلامية،
وجعلوا بطشة ثالثة جماعة من المقاتلة. وقدموا البطشة نحو البرج، وكان الهواء مساعد
لهم، فلما أحرقوا البطشة والبرج الذي قصدوا بهما إحراق بطش المسلمين وبرج الذبان
انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البطشتان، وانقلبت الثالثة بمن فيها من

المقاتلة. والله أعلم.
ما كان من أمر الفرنج بعد وصول ابن ملك الألمان إلى عكا وما اتخذوه من آلات
الحصار
قال: ولما وصل ابن ملك الألمان القائم في الملك بعد أبيه إلى عكا كان وصوله إليها في
سادس شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة فكان أول ما بدأ به أنه خرج إلى إنطاكية
يزكيه السلطان وقاتلهم فقتل من أصحابه وجرح خلق كثير، وانكسروا ورجعوا إلى المخيم
غروب الشمس من ذلك اليوم؛ وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة. فلما عاين ذلك رجع
إلى قتال من في البلد، واتخذ من آلات الحصار ما لم ير قبل ذلك مثله، فكان مما أحدثه آلة
عظيمة تسمى دبابة يدخل من تحتها المقاتلة وهي من الخشب الملبس بصفائح الحديد، ولها
من تحتها عجل يحرك من داخلها حتى تنطح السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها،
وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحبه وفيه كبش، ورأس تلك الآلة ممدة تشبه سكة
المحراث، ورأس الكبش مدور، هذه يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها، وهي تسمى
سفوداً، وأعد الستائر والسلالم وغير ذلك، وأعد في البحر بطشة عظيمة وصنع فيها برجاً
بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور بحركة انقلب بحركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذي
ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة، ونصب المجانيق وحكمها على السور، وتوالت حجارتها
حتى أثرت فيها أثراً بيناً فأخذ المسلمون سهمين عظيمين من سهام الجروح وأحرقوا نصالها
حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا في منجيق الفرنج فاحترق، واتصل لهبه بالآخرة
فأحرقه.
ثم زحف العدو على البلد في شهر رمضان في خلق كثير، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا
آلتهم المذكورة وقاربوا أن يلصقوها بالسور ويحصل منهم في الخندق جماعة كثيرة، فأطلقوا
عليه الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدو من كل مكان،
وكبسوهم في الخندق، فانهزموا؛ ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم. ثم القوا النار في

كبشهم، فاحترق، وسرت ناره إلى السفود فاحترق أيضاً، وعلق المسلمون في الكبش
الكلاليب الحديد فسحبوه وهو يشتعل، فحصل عندهم، فأطفأوه بالماء وزن ما كان عليه
من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي 133 فكان هذه اليوم من أحسن أيام الإسلام.
قال: واستأنف الفرنج عمل دبابة أخرى وفي رأسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان
في طول الرمح كالعمد الغلاظ، وسقوفها هي والكبش بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش
بعد الحديد بالنحاس. فلم يبق للنار عليها سبيل؛ وشحنوها بالرجال، فنصب المسلمون
عليها المجانيق ورموها بالحجارة، فأبعدت الرجال من حولها، ثم رموها بحزم الحطب
فأحرقوا ما بين القرنين، وخسفها المنحنيق، وخرج أهل عكا فقطعوا رأس الكبشين.
قال: وفي العشر الأوسط من شهر رمضان ألقت الريح بطشتين فيها رجال ونساء وصبيان،
وميرة عظيمة وأغنام، فغنمها المسلمون.
وكان في إحداها امرأة محتشمة كثيرة الأموال؛ واجتهد الفرنج في استنقاذها فلم يجابوا إلى
لذلك.
وكان بينهم في بقية السنة عدة وقائع يطول شرحها.
وفي سابع ذي الحجة هدمت قطعة عظيمة من سور عكا فسدها المسلمون وقاتلوا عليها
قتالاً شديداً حتى أحكموا بناءها.
وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان وكند كبير، ومرض الكندهري، ووقع فيهم فناء
عظيم، والله أعلم.
وصول ملك افرنسيس
كان وصوله في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة في ست بطش
عظام مشحونة بالمقاتلة، وكان ملكاً مطاعاً فيهم، ووعدهم بالإمداد خلفه. وكان معه باز
عظيم الخلق أبيض اللون، فطار من يده وسقط على سور عكا، فأخذه المسلمون وأنفذوه
إلى السلطان، فبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجاوبوا لذلك.
قال: وزحف الفرنج على عكا في يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى سنة سبع وثمانين،
ونصبوا عليها سبعة مجانيق. وبلغ من مضايقتهم لها أنهم كانوا يلقون في خندقها ما يموت

من دوابهم وما يؤيس منه ممن أثخنته الجراح. وانقسم أهل البلد أقساماً: قسم ينزلون إلى
الخندق ويقطعون الدواب ليسهل نقلها، وقسم ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذبون عنهم،
وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار.
قال: وكانوا قد صنعوا دبابة عظيمة أربع طبقات، الأولى من الخشب، والثانية من
الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة النحاس، فكانت تعلوا على السور وتركب فيها
المقاتلة، وقربوها من السور فكاد أهل البلد يطلبون الأمان، فأعان الله على حرقها وكان في
جمادى الأولى عدة وقعات.
قال: ولما حرقت دبابات الفرنج وكباشهم وأبرجتهم الخشب وستائرهم أقاموا أمام خيامهم
مما يلي عكا تلاً مستطيلاً عالياً من التراب، فكانوا يقفون وراءه ويحولونه ليقربوه من السور،
إلى أن صار بينه وبين السور مقدار نصف غلوة سهم. فلم تعمل فيه النار.
وصول ملك الإنكلتير
كان وصوله إلى عكا في ثالث عشر جمادى الأولى من السنة بعد أن ملك في ميسره قبرص
عنوة، ووصل في أربعين قطعة. ولما قدم توالى الزحف والقتال. ثم مرض مرضاً شديداً
وجرح الإفرنسيس، وهم مع ذلك لا يدعون القتال. هذا واللصوص يدخلون على الرجل من
الفرنج وهو نائم فيوقظونه، ويشيرون إليه بالسلاح: إن تكلمت ذبحناك، ويحملونه ويخرجون
به إلى عسكر المسلمين. فعلوا ذلك مراراً كثيرة.
قال: ثم ترددت الرسائل من الفرنج إلى السلطان مدافعة بسبب مرض الإنكلتير، ثم استأذن
في إهداء جوارح، وقال إنها قد ضعفت وتغيرت من البحر، وطلب أن يسر لها دجاجة
وطير تأكله لتقوى به ثم يهدى للسلطان. ففهم السلطان أنه يحتاج ذلك لنفسه لأنه حديث
عهد بمرض، فسير إليه ذلك. ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج، فأرسل إليه وهم مع ذلك
يحاصرون البلد أشد حصار.
استيلاء الفرنج على عكا
قال: ثم اشتد الحصار في سابع جمادى الآخرة، فركب السلطان بالعسكر وجرى قتال
عظيم إلى الليل عاد إلى خيامه. ثم باكر القتال، فوصلت مطالعة من بالبلد يذكرون أن

العجز قد بلغ بهم الغاية، وأنهم في الغد متى لم يعمل ما يمنع العدو طلبوا الأمان وسلموا
البلد. فرأى السلطان مهاجمة العدو، فلم يساعده العسكر. فضعفت نفوس أهل البلد،
وتمكن العدو من الخنادق فملكوها، ونقبوا السور وأحرقوه، فوقعت بدنة من الباشورة
ودخل العدو إليها، فقتل منها زهاء مائة وخمسين نفساً، وكان منهم ستة من أكابر، فقال
أحدهم: لا تقتلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم. فقتل رجل من الأكراد وقتل الخمسة،
فناداهم الفرنج من الغد احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم. فقالوا: لقد قتلناهم. فقوي
عزم الفرنج على عدم المصالحة وأنهم لا يطلقون من في البلد إلا بإطلاق جميع الأسرى الذين
في أيدي المسلمين، وتعاد إليهم البلاد الساحلية.
فصالحهم من بالبلد على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد
والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين،
وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم ونسائهم وذراريهم، وما معهم من أموالهم
وأقمشتهم.
فكتبوا في ذلك إلى السلطان، فأنكر هذا الأمر واستعظمه، وعزم على أن يكتب بالإنكار
على من بعكا. وجمع أمراءه وأصحاب المشورة، فما شعر المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام
الكفر وصلبانه على أسوار البلد، وذلك ظهر نهار الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة،
سنة سبع وثمانين وخمسمائة.
فعظمت المصيبة على المسلمين وتحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد. ثم ترددت
الرسائل بينهما على تقرير القاعدة في خلاص من بعكا من المسلمين، فاستقرت الحال على
مائة ألف دينار وستمائة أسير وصليب الصلبوت. وأنفذوا ثقاتهم وعاينوا الصليب في ثامن
عشر شهر رجب، ثم طلبوا أن يسلم ذلك إليهم فإذا صار عندهم أطلقوا الأسرى، فامتنع
السلطان من ذلك إلا بعد تسليم الأسرى.
فلما رأوه قد امتنع منه أخرجوا خيامهم إلى ظاهر الخنادق في الحادي والعشرين من
الشهر، ثم ركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع

وثمانين، وجمعوا الأسرى، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً، طعناً بالرمح
وضرباً بالسيف، رحمة الله عليهم، ولم يُبقوا من المسلمين إلا أكابرهم. فلما اتصل الخبر
بالسلطان حمل المسلمون عليهم، وجرت بينهم حرب عظيمة دام القتال فيها طول النهار.
وتصرف السلطان فيما كان قد حصله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، ورد صليب
الصلبوت إلى مكانه.

ما كان بعد أخذهم عكا

قال: ثم سار الفرنج إلى صوب عسقلان في مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم،
والمسلمون يتخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون، وكل أسير جيء به إلى السلطان أمر بقتله.
ثم كانت وقعة عظيمة في تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية، انتصر فيها المسلمون.
ثم رحل السلطان فنزل شعراء أرسوف. وطلب ملك الإنكلتير الاجتماع بالملك العادل
خلوة، فاجتمعا، فأشار بالصلح. وكان حاصل كلامه أنه قد طال بيننا القتال ونحن في نصرة
فرنج الساحل، ورأيي الصلح، ويرجع كل منا إلى مكانه. فقال له الملك العادل: على ماذا
يكون الصلح؟ قال: على أن تسلموا لأهل الساحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبى الملك
العادل.
ثم كانت وقعة أرسوف في يوم السبت رابع عشر شعبان، وكانت الدائرة على الفرنج.

هدم عسقلان

قال: ثم رحل السلطان بعد وقعة أرسوف في تاسع عشر شعبان، ونزل بالرملة، واستشار
أصحابه في أمر عسقلان، فأشاروا عليه بتخريبها خشية أن يستولي العدو عليها وهي
عامرة، فتكون سبباً لأخذ البيت المقدس وقطع طريق مصر. فعلم السلطان عجز المسلمين
عن حفظها لقرب عهدهم بقتال عكا: فسار حتى عسقلان، وأمر بتخريبها، وكان هو وولده
الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية حضور العدو فيتعذر هدمها، ثم حرقها
بالنار، والأخبار تتواتر من جهة العدو بعمارة يافا. واستمر الخراب والحريق إلى سلخ
شعبان.

ثم رحل السلطان عنها يوم الثلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرملة يوم الأربعاء، وأمر
بتخريب حصنها وتخريب كنيسة لد. وركب جريدة إلى القدس الشريف، فوصل إليه في يوم
الخميس
وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان من السنة كانت بينهم وقعة انتصر فيها المسلمون.
قال: ثم سار السلطان إلى الرملة في سابع شوال وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعات،
منها وقعة في ثامن شوال، وفي سادس عشره، والدائرة فيها على العدو.
وفي ثامن عشر شوال اجتمع الملك العادل والإنكلتير على طعام، وانفصلا على توادد،
وسأله الاجتماع بالسلطان فامتنع السلطان من ذلك.
ثم رحل الفرنج في ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد بيت المقدس والحرب مستمرة
بين المسلمين وبينهم. ورحل السلطان إلى القدس في الثالث والعشرين من ذي القعدة بنية
المقام به، وشرع في تحصينه.
قال: ولم تزل الحرب قائمة والمراسلات متصلة بينهم على طلب الصلح، والسلطان لا يرضى
بما يختارونه، وهم لا يوافقون على ما يريده السلطان، إلى الحادي والعشرين من شعبان سنة
ثمان وثمانين وخمسمائة، فوقعت هدنة عامة في البر والبحر، وجُعل لهم من يافا إلى قيسارية
إلى عكا إلى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وإنطاكية. وأخرج من عمل يافا الرملة
ومجدل يابا ومن عمل عكا الناصرة وصفورية واشترط خراب عسقلان. ووقعت المصالحة
مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها مبتدأ أيلول الموافق لهذا التاريخ، وذلك بعد سؤال ملك
الإنكلتير وتكرار رسائله.
قال: ثم أمر السلطان أن ينادى في الطرقات والأسواق: ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء
من بلادنا يدخل بلادهم ومن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل.
ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس.
ثم أمر بإرسال مائة نقاب لتخريب سور عسقلان وإخراج الفرنج منها، فخربت. وكان يوم
الصلح يوماً مشهوداً واختلط العسكران.
ثم اشتد المرض بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان وسار معه

الكندهري إلى جهة عكا، ولم يبق بيافا إلا مريض أو عاجز. ثم أذن السلطان للناس في
الرجوع إلى أوطانهم، فسار عسكر إربل والموصل وسنجار، وقوي عزمه على الحج.
ثم عاد السلطان إلى القدس ورتب أحواله وعين الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان
ونقل إليه العقاقير والأدوية، وأدار سور القدس. وأقام بالقدس إلى يوم الأربعاء رابع شوال،
وخرج في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق. فلما انتهى إلى طبرية وصل إليه بهاء
الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، فاستصحبه معه وكشف القلاع والحصون،
ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة:
وجلس الناس يوم الخميس، وأنشده الشعراء، وكان مجلساً عاماً، وعم الناس فيه بعدله.
ولم يزل كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وفاة الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب

كانت وفاته رحمه الله تعالى بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء لثلاث بقين من صفر سنة تسع
وثمانين وخمسمائة.
وكان مولده بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره سبعاً
وخمسين سنة تقريباً. ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد لدين الله ولقب بالملك الناصر
لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين
سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام، ومنذ خلع العاضد في سابع المحرم سنة سبع وستين
وخمسمائة اثنتين وعشرين سنة وشهراً واحداً وعشرين يوماً.
وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس عشر صفر، ونال المسلمون لوفاته من الألم ما لا يعبر
عنه. ولما مات دفن بقلعة دمشق في منزله، وما زال ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله
غليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية. وأمر ببناء
التربة في سنة تسعين وخمسمائة، فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصرية
للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء. ثم أمر بعمارة القبة في حد جامع دمشق،

فعمرت ونُقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين
وخمسمائة، ومشى الأفضل أمام تابوته
وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، وصلى
عليه قدام باب السر، صلى عليه القاضي محي الدين بن علي بإذن الأفضل. ثم حمل إلى
لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.
وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيامه في
الجهاد في سبيل الله تعالى.
قال ابن شداد: لما مات السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين
درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً في سائر أنواع الأملاك.
وحسب ما وهبه من الخيل في مدة مقامه على عكا فكان تقديره اثني عشر ألف رأس، ولم
يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه يلازمه في طلبه، وما حضر
اللقاء إلا استعار فرساً فركبه. وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف. وكان
له ركعات يصليها من الليل.
وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيره سبعة عشر ولداً:
الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وهو أكبرهم، والملك العزيز عماد الدين، أبو
منصور غازي، والملك الظافر مظفر الدين أبو العباس خضر، والملك المعز فتح الدين أبو
يعقوب ويوسف، والملك الأعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيد نجم الدين أبو
الفتح مسعود، والملك الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود، والملك المفضل قطب الدين أبو
محمد موسى، والملك الأشرف عز الدين محمد، والملك المحسن شهاب الدين أبو العباس
أحمد، والملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب، والملك المظفر فخر الدين أبو منصور
تورانشاه، والملك العادل نور الدين أبو المظفر ملكشاه، والملك المنصور نصرة الدين مروان،
والملك الصالح معين الدين إسماعيل، وعماد الدين شادي، ويسمى عمر، وابنة صغيرة.
من ملك من أولاده وأقاربه
الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله

تعالى من أولاده وإخوته وأقاربه وإلزامه بعد وفاته
استقر ملك دمشق وما معها للملك الأفضل نور الدين أبي
الحسن علي، وهو أكبر أولاده
وولي عهده، وعنده أخواه شقيقاه الملك الظافر خضر والملك
المفضل موسى.
واستقر ملك الديار المصرية للملك العزيز عماد الدين أبي الفتح
عثمان.
واستقر ملك حلب ما يليها للملك الظاهر غياث الدين غازي،
وعنده أخوه الملك الزاهر
داود، فجعله من قبله على البيرة.
واستقر ملك حمص والرحبة وتدمر للملك المجاهد أسد الدين
شيركوه بن محمد بن
شيركوه، وهو ولد ابن عم السلطان الملك الناصر.
واستقر مُلك حماة وسلمية والمعرة ومنبج للملك المنصور ناصر
الدين محمد بن تقي الدين
عمر بن شاهنشاه بن أيوب.
واستقر ملك حران والرها وميافارقين والرقة وقلعة جعبر
والكرك والشوبك للملك العادل
سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السلطان.
واستقر ملك بعلبك للملك الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه بن
شاهنشاه بن أيوب.
واستقر ببعرين أفاميه وكفرطاب عز الدين إبراهيم بن شمس
الدين بن المقدم.
واستقر بصهيون ناصر الدين منكورس بن خمارتكين غلام أبي
قبيس.
واستقر بتل باشر بدر الدين دلدرم بن ياروق.
واستقر بعينتاب ناصر الدين شحنة حلب.
هذه الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر
رحمه الله.
فلنذكر الآن أخبار الديار المصرية ومن ملكها بعد وفات
السلطان الملك الناصر، ونجعل ما
يقع لهؤلاء الملوك، أو في ممالكهم، من الحوادث في ضمن
أخبار ملوك الديار المصرية، وننبه
عليها بالتراجم، على ما نقف عليه إن شاء الله تعالى.
أخبار الملك العزيز
عماد الدين أبي الفتح عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين
يوسف بن أيوب
وهو الثاني من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية ملك الديار
المصرية عندما وصل إليه
الخبر بوفاة والده السلطان الملك الناصر، رحمه الله تعالى،
وذلك في شهر ربيع الأول سنة
تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحسن السيرة وأطلق جميع ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم من المكوس على
اسم الزكاة. وجهز إلى البيت المقدس عشرة آلاف دينار لتصرف في مصالحه، أكرم
أصحاب أبيه وعاملهم الأفضل أخوه صاحب دمشق بخلاف ذلك، فمالت القلوب إلى
الملك العزيز ونفرت عن الملك الأفضل. فاستشعر الأفضل من أمرائه، وعزم على القبض
عليهم، فبلغهم الخبر ففارقوه، واتصلوا بخدمة أخيه الملك عبد العزيز بالديار المصرية في بقية
السنة فأكرمهم وقربهم وكان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.
استيلاء الفرنج على جبيل
كان استيلاؤهم على حصن جبيل في مستهل صفر سنة تسعين وخمسمائة بمواطأة ممن
كان فيه. وذلك أن الحصن كان عدة من فيه خمسة عشر رجلاً، فندب متولي البلد منهم
عشرة لجباية الجزية، وخرج متولي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمسة الذين
تأخروا بالحصن معه، وبقي به أربعة من الأكراد، فأغلقوا باب الحصن. وتوجه أحدهم إلى
الفرنج الذين بالتيرون فأخبرهم بخلو الحصن، وكان به حداد نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى
أعلى الحصن. فلما عاد الوالي منعوه من الدخول ورموه بالحجارة، فكسروا يده، وقالوا
هذه القلعة قد صارت للقومص. وجاء أهل التيرون بالليل فطردوا من كان بالباشورة من
المسلمين.
ووصل ابن ريمون صاحب جبيل وتحدثوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرر معهم أن
يعطوا نصف ما بالحصن من سائر الحواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عمل
طرابلس، واستحلفهم على ذلك. وتسلموا الحصن، فرتب الفرنج فيه من الجرخية ألفاً
وخمسين جرخياً.
فلما اتصل الخبر بالسلطان الملك العزيز عظم عليه، وأخرج خيامه في يوم الأحد العشرين
من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جبيل من الفرنج، وأرسل
شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل فتوجه في سادس عشر شهر ربيع
الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدين بن
درباس وفوض القضاة بالديار المصرية للقاضي زين الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن
عبد الله بن رمضان الدمشقي، فولي سنة وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد
القاضي صدر الدين. وقيل بل ولي القاضي محي الدين محمد بن عبد الله بن أبي عصرون،
وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. وأعيد القاضي زين
الدين الدمشقي فولي سنة، ثم عزل وأعيد القاضي صدر الدين إلى أن توفي في سنة خمس
وستمائة والله أعلم.
مسير الملك العزيز إلى الشام
والصلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة
قال: وفي تاسع عشر شعر ربيع الآخر سنة تسعين وخمسمائة توجه الملك العزيز إلى الشام
وترك بالقاهرة من الأمراء بها ء الدين قراقوش وصيرم، وجهز ثلاثة عشر لواء إلى ثغرى
الإسكندرية ودمياط ومعهم سبعمائة فارس. واستصحب معه من الأمراء سبعة وعشرين
أميراً عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحلقة ألف فارس. فلما اتصل بالأفضل خروجه
استعد وأنفق النفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولما وصل الملك
العزيز إلى الغور احتاط على الخاص الأفضلي به، وشرع في إقطاع أعمال الشام. وجهز من
أمرائه: قايماز، وعشرين أميراً، منهم، جهاركس، وميمون القصري، وسنقر الكبير،
والشجاع الخادم، والجناح، وجرديك. فتقدموا ووقعوا على أطراف العسكر الشامي،
فرجع الأفضل إلى دمشق وغلقت أبواب البلد لما قرب العسكر المصري منها.
وتقدم العزيز وترك ثقله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكسوة، فاستنجد
الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دمشق، وحضر الظاهر من حلب، وناصر الدين
صاحب حماة، وأسد الدين صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيره. فلما رأى العزيز
اجتماعهم علم أن لا قدرة له بهذا الجمع، وكتب إلى عمه العادل يقول: أنا ما خرجت من

الديار المصرية إلا لاستنقاذ جبيل من الفرنج، فبلغني أن الملك الأفضل حالف الفرنج علي،
واستنصر بهم، ووعدهم أن يعيد البلاد إليهم، فاقتضى ذلك سوقنا إليه. وبلغنا أنك
تدخل بيننا وبينه، وحوشيت من ذلك، وأنا خير لك من غيري. وإن أردت أن تكون
السلطان ورئيس الجماعة فأنا راضٍ بذلك.
وكتب لأخيه الملك الظاهر وغيره من حكام الممالك وترددت الرسائل بينهم.
وتقررت الحال على أن يكون للملك العزيز البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين،
وأن تكون دمشق وبرية وأعمال الغور للملك الأفضل، وأن يعطي الأفضل لأخيه الملك
الظاهر جبلة واللاذقية، وأن يكون للملك العادل بالديار المصرية إقطاعه الأول، وأن يخطب
للملك العزيز ببلاده وتنقش السكة باسمه، وأن الملك العزيز يمده بألف فارس إعانة له على
فتح خلاط.
واجتمع الملك العادل بالملك العزيز، وتزوج العزيز ابنته، وجاء الملك الظاهر صاحب حلب
إلى أخيه الملك العزيز. وتقررت قواعد الصلح.
وتأخر الملك العزيز إلى الكسوة ثم إلى مرج الصفر، ومرض به ثم أفاق.
ولما عزم على العود إلى الديار المصرية خرج لوداعه سائر الملوك الذين حضروا لنصرة
الأفضل، ثم خرج إليه الأفضل في سابع شعبان وأدركه بنيق، وهي أعلى الغور، فأكرمه
الملك العزيز، وبالغ في احترامه وسأله الأفضل أن يرجع إلى دمشق ليزور قبر أبيه، فأجاب
إلى ذلك، ثم أشار عليه أصحابه ألا يفعل، فامتنع. وعاد الأفضل، وسار العزيز إلى الديار
المصرية فدخلها في أواخر شعبان.
وفي مستهل جماد سنة تسعين وخمسمائة هبت رياح عاصفة بالقاهرة من وقت العصر،
وسقط في ثالث الشهر بَرَدٌ كثير أكبره قدر البيض وأصغره قدر النبق، وصار على جبل
المقطم منه شيء كثير كالجبل الثاني، ونقل الناس منه مدة أربعة أيام، ثم سال حتى ملأ
الخندق، ودخل الماء من المرامي التي في السور إلى القاهرة، وعلا، حتى خيف على البلد.
خروج الملك العزيز لقصد الشام ثانياً ورجوعه وقصد العادل والأفضل الديار المصرية

وما تقرر من القواعد
كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قلد وزارة دمشق لضياء الدين ابن الأثير الجزري
وحكمه في البلاد، فقصد الأمراء بالأذى والاطراح، وتشاغل الأفضل عنهم. ففارق خدمة
الأفضل فارس الدين ميمون القصري وشمس الدين وسنقر الكبير وعز الدين سامة،
وغيرهم. وحضر بعض هؤلاء إلى الديار المصرية وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إن
الأفضل مسلوب الاختيار، وحرضوه على قصد دمشق، فخرج إليها في سنة إحدى
وتسعين وخمسمائة.
فلما اتصل خبر خروجه بالأفضل ركب من دمشق في رابع جمادى الأولى وتوجه إلى عمه
الملك العادل، وهو بقلعة جعبر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظاهر بحلب
واستنجد به أيضاً، فركب الملك العادل وجدّ في السير إلى دمشق خوفاً أن يسبقه العزيز
إليها. وكاتب الملك العادل الأمراء الذين صحبة العزيز، وكان العزيز قد نزل بمنزلة الفوار
على مرحلتين من دمشق، واستمالهم وحذرهم من العزيز، فمالوا إليه، واستمالوا أبا
الهيجاء السمين، وفارقوا العزيز وقصدوا دمشق، وذلك في يوم الاثنين رابع شوال من السنة.
فلما وصلوا إلى دمشق اتفق العادل والأفضل، وتحالفا على قصد العزيز انتزاع الديار
المصرية منه، على أن يكون ثلث الديار المصرية للملك العادل إقطاعاً والثلثان للملك
الأفضل. وساروا في طلب العزيز، فرجع إلى الديار المصرية وجد في السير ودخل القاهرة.
قال: ولما وصل العادل والأفضل إلى القدس سلماه وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل
لأبي الهيجاء السمين، فرتب فيه نوابه، وسار معهما إلى الديار المصرية. فنزل الملك العادل
على بلبيس، وكان السعر ما شيا فاستظهر العزيز عليهم.
قال: ولم يكن غرض العادل قصد مصر وإنما خشي على الملك العزيز من الأمراء أن يقتلوه
ويستولوا على الديار المصرية، فقصدها لهذا السبب.
ولما ضاقت الميرة على العسكر الشامي وقلت أزوادهم ندموا على وصولهم إلى الديار
المصرية، فأرسل الملك العادل إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم في الاجتماع به، فأذن له

العزيز في ذلك، فخرج إليه، فاستبشر الناس بخروجه رجاء وقوع الصلح. وركب العادل
وتلقاه على فراسخ، فاجتمعا، واستقرت القواعد على أن يكون إقطاع العادل بمصر على
عادته، وأن تكون إقامته عند الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفو العزيز عن الأسدية والأكراد.
واجتمع العادل بالأفضل وأمره بالرجوع إلى دمشق. ثم اجتمع الأفضل بالعزيز، واستقر
الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايا جليلة المقدار. ورجع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو
الهيجاء السمين، فدخلها في المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.
ولم تطل المدة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوغر خاطره، فعند ذلك قرر، مع
الملك العزيز، أن يجهز العساكر لتمهد قواعد المُلك بالشام وسائر البلاد، واتفقا على أن يكون
العزيز بدمشق والعادل ينوب عنه بالديار المصرية.
ملك الملك العزيز دمشق
وخروج الأفضل إلى صرخد
قال: ولما اتفق الملك العادل والملك العزيز على ما قرراه تجهز الملك العادل للمسير إلى
دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين
وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثم برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهر
خروجه وداعه لعمه الملك العادل، وحث العساكر المجردة على الخروج. وأقام ببركة الجب.
فلما كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل انه كاتب الأسدية،
وأنه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وألق رهائن كانت عند نوابه، وأنه وافق الظاهر
صاحب حلب، فقرر مع الملك العزيز أن يتوجها جميعاً ويأخذا دمشق من الأفضل وحلب
من الظاهر، فاتفقا على ذلك وعقدا بينهما يميناً.
وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورحل هو وعمه الملك العادل من
البركة في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، فحصل للعادل ضعف في هذا النهار منعه عن
الحركة. وكان وصولهما إلى بلبيس في سابع عشر الشهر، وكملت صحة العادل في العشرين
من الشهر، وسار إلى الشام على مهل ورفق.

فلما تحقق الملك الأفضل قصدهما لبلاده استشار شيوخ دولته، فأشاروا عليه أن يستقبل
أخاه وعمه ويسلم لهما الأمر، وأشار وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري بالتصميم
والمخالفة، فرجع إلى رأيه وحصن البلد، وفرق الأمراء على الأسوار. فلما رأى شيوخ
الدولة وأكابرها أنه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلوا الملك العزيز والملك العادل
في انتهاز الفرصة، فركبا بعساكرهما وتأهبا في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر
رجب وخرج أهل دمشق لقتالهم، والتقوا في السابع والعشرين من الشهر. فلم يكن بأسرع
من انهزام العسكر الشامي. وتبعهم العزيز والعادل حتى ألجئوهم إلى سور البلد، ودخلوا
دمشق، وتبعهم العسكر، فملكت البلد.
فعندها ركب الملك الأفضل إلى خيمة أخيه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.
قال: ودخل الملك العادل ومن معه باب توما والباب الشرقي، ونزل بالدار الأسدية. ودخل
الملك العزيز من باب الفرج وبت في دار عمته الحسامية. وملك العزيز دمشق وأقيمت له
الخطبة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من الشهر.
قال: ولما ملك الملك العزيز دمشق ندم على ما كان قرر من إقامته بالشام وتمكين عمه
الملك العادل من الديار المصرية واعتذر إلى أخيه الملك الأفضل في السر. فأظهر الأفضل
سره لمن معه فظنوا أن هذه خديعة. فأرسل إلى العادل وأعلمه بمرسلة العزيز، فعتبه
العادل، فأنكر الحال. وخرج الأفضل إلى صرخد وقرر له في كل سنة مائتي ألف درهم من
صرخد وغيرها، وهو كاره لذلك. وسأل أن يكون بمكة، وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن
الملك، فلم يجبه العزيز.
وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صرخد يوم الاثنين، ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين،
فكانت مدة ملكه لدمشق منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاث سنين وخمسة أشهر.
ودخل الملك العزيز قلعة دمشق واستقر بها في يوم الأربعاء رابع شعبان من السنة
المذكورة، وجلس يوم الجمعة بدار العدل وأسقط من المكوس بدمشق ما هو مقرر على

سوق الرقيق وسوق الدواب ودار البطيخ، والملاهي، والعصير، والفحم، والحديد، وسبكى
الفولاذ والزجاج.
قال: وهرب ضياء الدين ابن الأثير ونهبت داره.
ونودي في دمشق أن يلبس أهل الذمة العمائم الغيار ليعرفوا من المسلمين وكان سبب ذلك
أن الملك العزيز لما جلس بدار العدل دخل عليه رجل له هيئة حسن، فما شك العزيز أنه
من الأشراف، فلما علم أنه ذمي أمر بذلك.
قال: ولاطف الملك العزيز عمه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النيابة، فأجاب إلى ذلك
بعد امتناع. وسلم ديوان دمشق لصفي الدين ابن شكر كاتب العادل.
وفارق الملك العزيز دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعاد إلى الديار المصرية بعد أن
استخلف الملك العادل وسلم إليه دمشق وما هو مضاف إليها من القلاع والحصون
والأعمال، والخطبة والسكة باسم الملك العزيز.
ودخل العزيز إلى القاهرة جريدة في رابع شهر رمضان، وفوض شد الأموال والخطاب عليها
للأمير فخر الدين إياز جهاركس، وضمن الخمور في كل سنة بسبعة عشر ألف دينار،
فتجاهر الناس بها وظهر الفساد وفشا في الناس، واجتمع الرجال والنساء في شهر رمضان
من غير استتار، سيما في الخليج وساحل مصر، ورتب ضمان الخمر في النفقة على طعام
السلطان، وهذه من البلايا التي لم يسمع بمثلها، فإن عادة الملوك والأكابر أن يجتهدوا أن
يكون مأكلهم من أجل الجهات كالجوالي وما يناسبها. وبسبب إطلاق الخمور كثر القتل
بالقاهرة والجراحات، وخطف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.
قال المؤرخ: وغلت الأسعار في هذه السنة بالديار المصرية، واشتد الأمر على الناس، وكثر
الوباء، وبلغ القمح كل أردب بدينارين، وأظن الدينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم، وهذا
كان نهاية الغلاء في ذلك العصر.
ولقد وصف الفاضل من عظم ما حل بالناس غلو السعر أمراً عظيماً فكيف لو أدرك
الفاضل الديار المصرية في سنة خمس وتسعين وستمائة وقد أبيع القمح سعر الإردب ثلاثة

عشر ديناراً ونصف دينار وأبيع الفروج بخمسين درهماً، ورطل البطيخ الأخضر بأربعة
دراهم، والسفرجل بثلاثين درهماً.
قال المؤرخ: وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السيد الشريف عبد
الرحيم، قدس الله روحه ونور ضريحه، بقنا من أعمال قوص ودفن بجبانتها، وضريحه
معروف هناك من أعظم مزارات أهل الصلاح بالدنيا.
ومما نقل من كلامه، قدس الله روحه، وقد سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله غلا الله، فقال
الشيخ شهدنا بما شاهدنا. ومن كلامه: لا يستطيع العارف أن يوصل إلى من لا يعرف
حقيقة ما عرف، كما لا يستطيع البصير أن يوصل إلى الأكمه حقيقة الألوان. وعرض هذا
الكلام على الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، رحمه الله ونفع به، فقال هذا كلام
من غرق في الحقيقة.
استيلاء الفرنج على بيروت
وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة بيروت
من المسلمين وسبب ذل أن فرنج الساحل راسلوا ملك الألمان في سنة اثنتين وتسعين
وخمسمائة، وكان قد ملك جزيرة صقلية، وعرفوه أن المسلمون قد اشتغلوا بحرب بعضهم
بعضاً، فأقبل في مراكبه إلى عكا. وصادف ذلك سقوط الكندهري ملك عكا من شباكٍ
فهلك، فملك ملك قبرص عكا، وخرج إلى بيروت فملكها من المسلمين، وكان بها عز الدين
أسامة. فعمرها الفرنج ولم تزل بأيديهم إلى أن فتحها الملك الأشرف في سنة تسعين وستمائة،
على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.
وفيها خرجت المراكب الحربية لقصد بلاد الفرنج، فوجدوا بطشاً للفرنج فملكوها، فوجد
المسلمون فيها أموالاً جليلة.
وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهاركس الناصري القيسارية المعروفة به بالقاهرة
المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.
وفاة سيف الإسلام
بن أيوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك
وفي يوم الأربعاء الثالث من شوال سنة ثلاث وتسعين
وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف

الإسلام طغتكين بن أيوب، أخو السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالمنصورة التي أنشأها
باليمن. وكان قد طرد ولده شمس الملوك إسماعيل إلى الحجاز. فلما سمع بوفاة ولده سار
إلى اليمن وملك بعده.
وإلى سيف الإسلام هذا ينسب البستان الذي كان بظاهر القاهرة، وهو الآن عمائر تعرف
أرضها بحكر سيف الإسلام.

وفاة الملك العزيز
وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة بداره
بالقاهرة.
وكان قد خرج إلى الفيوم لقصد الصيد إلى ذات الصفا، فحُمَّ، فعاد إلى القاهرة واشتد
مرضه، فمات. وقيل إنه ساق خلف الصيد فكبا به فرسه مرة بعد أخرى، فمات بعد
ثلاث. ودفن بداره بالقاهرة وكان مولده بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين،
وقال الفاضل في جمادى الآخرة. فكانت مدة عمره سبعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر واثني
عشر يوماً، ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يوماً.
وكان رحمه الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه شجاعاً حسن الأخلاق.
وكان رحمه الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه شجاعاً حسن الأخلاق.
وخلف من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملك المنصور محمد، القائم بعده، وعلي،
وعمر، وإبراهيم، وعيسى، ومحمود، ورعاه، ويوسف، ويونس، وولدان صغيران. ولم يخلف
في خزانته ذهباً ولا دراهم إلا بعض قماش ليس بالطائل.

سلطنة الملك المنصور

محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية
ملك الديار المصرية بعد وفاة أبيه في يوم الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين
وخمسمائة بوصية منه. ولما مات الملك العزيز كان عمه الملك العادل يحاصر ماردين
فاجتمعت الأمراء الصلاحية وعقدوا الأمر لولده ولقبوه بالملك المنصور، وكان قبل ذلك

يلقب بالناصر وإنما تركوا الناصر لموافقته لقب الخليفة وركب في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين
من المحرم، وشق القاهرة من باب زويلة إلى باب النصر، والأمراء في خدمته. وكتب الأمراء
إلى الملك العادل يعزونه في ابن أخيه الملك العزيز، ويذكرون اتفاقهم على تنصيب ولده في
السلطنة بعده، وأنهم على طاعة الملك العادل.
ثم اجتمع الأمراء الأسدية والصلاحية بظاهر القاهرة وقالوا: إن الذي فعلناه من حفظ
الملك العزيز في ولده هو نعم الرأي، وإنما هو صغير السن لا يفهم ما يقال له، ولا يقوم بأعباء
الملك، ولا بد لنا من كبير من هذا البيت يربيه ويكفله ويدبر أحوال الدولة، وليس أن
يكتبوا إليه ويستدعوه فكره بعضهم شدة أخلاقه ومماقتته للجند فعدلوا عنه واتفقوا على
استدعاء الملك الأفضل من صرخد.
وأن يتولى أتابكية الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله، أخوه الملك
الظافر خضر، فاستقر ذلك.
وكتبوا إلى الأفضل وذلك في يوم الخميس سادس عشر صفر من السنة ونزل الملك الظافر
بدار السلطنة في القاعة العزيزية، وقام بنيابة السلطنة.
قال: ولما وصل كتاب الأمراء إلى الأفضل خرج من صرخد في ليلة الأربعاء التاسع
والعشرين من صفر، وسلك البرية إلى البيت المقدس.
وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره في تدبير دولة المنصور
كان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس السابع من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين
وخمسمائة، فبرز الناس للقائه، وزينت المدينة، لقدومه. ولما دخل أقر الخطبة باسم الملك
المنصور ابن أخيه، ونقش السكة باسمه، وكان الأفضل يذكر بعده. وكتب إلى عمه الملك
العادل يبذل له الطاعة والانقياد إلى أمره.
قال: ولما وصل الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدين إيازجهاركس وزين الدين قراجا على
أنهما يلتقيانه، فتوجها إلى الملك العادل. ثم خرج في يوم وصوله الأمير شمس الدين
سراسنقر بمماليكه وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل، وسار إليه، إلى ماردين.
مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار

المصرية
قال: ولما استقر الأفضل في تدبير الدولة بالديار المصرية، ولم يبق للملك المنصور معه إلى
الشركة في الخطبة، حمله أصحابه على قصد دمشق وحصرها، وقالوا: هي لك بوصية
أبيك الملك الناصر. فعزم على المسير إليها، وأمر العساكر بالاستعداد لذلك. وبرز إلى
المخيم ببركة الجب، هو وابن أخيه الملك المنصور، في يوم السبت العشرين من جمادى
الأولى من السنة واستحث العسكر على الخروج.
وصل إليه في يوم الأربعاء، السادس من جمادى الآخرة، رسول من أخيه الملك الظاهر
صاحب حلب وهو يلومه على إنفاذ الرسل بالطاعة للعادل، ويقول: إن أكثر الناس كانا
منصرفين عنه فانصرفوا إليه، وحثه على سرعة قصد دمشق، ويقول: اغنم الفرصة ما دام
العادل في حصار ماردين، ووعده بالوصول إليه فأكد ذلك ما عنده، وأقام ببركة الجب وهو
يحث العسكر على سرعة الحركة، إلى ثاني شهر رجب فرحل عنها.
وفي مدة مقامه ببركة الجب أحضر قاضي القضاة والشهود، وأشهدهم على نفسه أنه وقف
المطرية ومنية الباسل والرباع المسوغة والمستمرة بيد الديوان على عمارة سور القاهرة
ومصر والبيمارستان.
قال: ولما وصل الأفضل إلى بلبيس احتاط على ما كان باسم العادل وإلزامه بالديار
المصرية، وأقطعه، ثم قبض على أخيه الملك المؤيد وقيده وأعاده إلى القاهرة، فاعتقل
بالقلعة. وتمادى الملك الأفضل في سيره إلى دمشق. هذا ما كان منه.
وأما الملك العادل فإن سراسنقر الناصري وصل إليه بماردين واستحثه على العود إلى
دمشق، فأوصى ولده الملك الكامل بمحاصرتها. وفارقها العادل لخمس بقين من شهر
رجب، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.
ووصلت العساكر المصرية في يوم الخميس، ورتب الأطلاب وسار الملك المنصور بن الملك
العزيز في القلب وزحف على البلد فأخذ قصر حجاج والشاغور. وكان العادل لما شاهد

إقبال العساكر أمر بإحراق قصر حجاج ، فأحرق، واحترق فيه عدة مساجد وأطفال.
وأحاطت العساكر المصرية بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السلامة، وانتهوا إلى
السوق الكبير، وحرجوا من باب الفراديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر ثم تأخر إلى
ميدان الحصى، واستقر بهذه المنزلة بهذه المنزلة أكثر من ستة أشهر.
وكاتب الملك العادل جماعة من الأمراء المصريين، ففارقوه ودخلوا إلى دمشق فأكرمهم.
ثم وصل الملك الظاهر صاحب حلب ومعه أخواه الظافر والمعز وجاءهم الملك المجاهد
صاحب حمص، وعسكر حماة دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب حمص
بانياس، وكان من أكابر الدولة، فأشار بالصلح.
قال: ولما حاصر الملك الأفضل دمشق منع من يدخل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها
الأنهار، فاشتد الأمر على أهل دمشق واستغاثت الرعايا على العادل، وتسلطوا عليه،
وحملوه على تسليم البلد. وانتقل أكثر من البلد إلى العسكر، ونصبوا به أخصاصاً
ومساكن، وأقيمت الأسواق به.
فلما اشتد الأمر على العادل كتب إلى الظاهر يستميله وقال: أنا أسلم البلد إليك دون
غيرك، فنمي الخبر إلى الأفضل، فاضطرب رأيهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا اسلم البلد
إليكما بعد سبعة أشهر فأجاباه إلى ذلك. وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقول الظاهر قد